



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

الرحالة العرب ودورهم في الكشف الجغرافي للقارة الأمريكية

في القرن السابع عشر

رحلة الموصلي أنموذجاً

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف: أ.د. : حسام الناييف

إعداد: روكن محمود حسي

العام الدراسي: ٢٠٢٠-٢٠٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المُلخَص

هذه رحلة القسيس العراقي إلياس حنا الموصلي الذي كان أول عربي يصل إلى القارة الأمريكية في النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد، وقد دون رحلته في الفترة ما بين عامي ١٦٦٨ - ١٦٨٣ ميلادية، وسطرها في كتابه الموسوم بـ (الذهب والعاصفة) الذي ذاع صيته حتى يوم الناس هذا، فكان صنيعة هذا أول رحلة شرقية إلى العالم الجديد، وقدم الموصلي خلال رحلته وصفاً دقيقاً في غاية الأهمية لتلك البلاد، ولتفاصيل حياة الشعوب التي تسكن تلك البقاع، متحدثاً عن رجال الدين الكاثوليك، ورؤساء محاكم التفتيش، مصوراً القرى والمدن والبلدات التي زارها، واصفاً الطرق والقصور والجبال والأنهار، راسماً صورة الناس في تلك البقاع مشيراً إلى طرائق عيشهم وطباعهم وصفاتهم الخُلقية والخُلقية مقدماً وصفاً حياً دقيقاً للنباتات والحيوانات، واتسعت تلك الرحلة لتصف حدود البلاد التي زارها ومسالكها ومناخها وتضاريسها ومعابدها التي تعكس في مجملها ثقافة البلدان التي مرَّ بها وأخبارها التاريخية وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والبيئية، وهذا ما جعل مدونة الموصلي من أهم الوثائق التاريخية التي تحدثت عن القارة الأمريكية في تلك الفترة؛ وكُلُّ من يقلب صفحات كتاب الذهب والعاصفة، ويقرأ سطورَه سيقف على معلومات قيمة ودقيقة ترسم تاريخ القارة الأمريكية، ويقف على عادات سكانها وتقاليدهم وثقافتهم بمختلف فنونها، وسيدرك أنها ليست عالماً خاصاً، بل عوالم متميزة، تحظى بسحر الطبيعة، وتتوع التضاريس والمناخ، وتختص بتاريخ متواصل شديد الثراء من الناحية الثقافية علوماً وفلسفة و فنوناً وآداباً. إنها خلاصة ناطقة لأدوار تاريخ البشرية، وصورة صادقة معبرة عن تطور الحضارة الإنسانية منذ بدايتها وانتهاء بالحضارة الحديثة.

المصداق

إلى النور الذي أضاء عمري إلى أمي الغالية.
إلى من زرع في قلبي الثقة بالله والتوكل عليه... أبي الغالي
إلى من كان له الفضل الكبير إلى أستاذي الكريم الذي علمني أشياء كثيرة في
الحياة منها أن تشجيع الأستاذ لتلميذه دافع قوي له على التقدم والنجاح... أ. د. حسام النايف
إلى رفاق العلم والقلم إلى كل من وقف بجانب مساندًا ومشجعاً ومدّياً يد العون سواء
بالنصح والتوجيه أو بتقديم المعلومات والكتب.

الحمد والشكر

أتوجه بالشكر العميق، وبكل المحبة، والتقدير، والعرفان، إلى الأستاذ الدكتور حسام الناف؛ لتفضله بالإشراف على أطروحتي، إشرافاً علمياً وأخلاقياً، ممتناً له بما غمرني به من الود، والصدقة، ولعلو همته وأخلاقه، وتقانيه في العمل، ولعاملته المثالية التي أولاني بها خارج إطار العمل، ولا يسعني إلا أن أقول: أمدك الله بالعمر المديد . . وبالصحة والسلامة والعافية . . ووفقك لكل خير . . أستاذي.

كما أقدم بخالص الود والامتنان للأستاذة الكرام أعضاء لجنة الحكم، لتفضلهم بقبول مناقشة الأطروحة، وتحمل عناء قراءتها وتقيتها من الأخطاء والهفوات.

وكل الشكر لأساتذتي الأفاضل في كلية الآداب والعلوم الإنسانية- قسم التاريخ، على جهودهم وتشجيعهم المستمر، ولجهوريتهم الدائمة لتقديم المساعدة لمن يحتاجها من طلابهم . وكذلك أتوجه بالشكر الجليل إلى جامعة دمشق، إدارة، ومسؤولين، وموظفين، وإلى مكتبة الأسد الوطنية، إدارة وموظفين، لما قدموه لي ولغيري من الدعم، والمساندة، والتسهيلات الممكنة، وتقانيهم وإخلاصهم في العمل .

والشكر والحمد لله أولاً وأخيراً

فهرس المحتويات

العنوان	رقم الصفحة
الملخص	٣
مقدمة	٩
أهمية البحث	١٣
إشكالية البحث وتساؤلاتها	١٥
منهج البحث	١٦
أدوات البحث	١٧
الدراسات السابقة	١٧
تمهيد	١٩
أولاً: الرحلات تعريفها، نشأتها وتطورها وأسبابها	٢٠
أ- الرحلة لغة	٢٠
ب- الرحلة اصطلاحاً	٢٠
ج- الرحلات في التراث العربي	٢١
د- أسباب الرحلات	٢٦
ثانياً: القارة الأمريكية	٢٨
أ- الموقع والامتداد.	٢٨
ب- التسمية أصولها ومعانيها	٣٠
ج- الكشوف الجغرافية العربية للقارة الأمريكية	٣٢
د- الكشوف الجغرافية الأوروبية للقارة الأمريكية	٣٥

٤٩	الفصل الأول: إلياس الموصلي ورحلته الذهب والعاصفة
٥٠	أولاً: الرحلة إلياس الموصلي
٥٢	ثانياً: وصف مطبوعة الرحلة.
٥٥	ثالثاً: مسار الرحلة
٥٨	رابعاً: أسباب الرحلة
٦٠	خامساً: أهداف الرحلة
٦٢	سادساً: أهمية الرحلة
٦٤	سابعاً: الجوانب التاريخية لرحلة الذهب والعاصفة
٦٧	١- الأحداث التاريخية قبل الرحلة إلى القارة الأمريكية.
٦٩	٢- الأحداث التاريخية في القارة الأمريكية
٧٢	٣- الدول الأوربية المتنافسة في القارة الأمريكية وممارساتها.
٧٦	الفصل الثاني: الجوانب الاقتصادية في القارة الأمريكية الجنوبية
٧٧	أولاً: مناجم الذهب، طريقة استخراجها، أماكنها
٨١	ثانياً: مناجم الفضة، طريقة استخراجها، أماكنها
٨٥	ثالثاً: الزئبق
٨٧	رابعاً: الزمرد، البونو، القليوما، المرمر، والجواهر
٨٩	خامساً: الصناعات
٩٢	سادساً: الأسعار والمقاييس والأوزان
٩٤	سابعاً: خزينة الملك الإسباني
٩٧	ثامناً: المبادلات التجارية والبضائع والسلع

٩٩	الفصل الثالث: الحياة الاجتماعية في القارة الأمريكية الجنوبية
١٠٠	أولاً: العادات والتقاليد والأعراف لدى السكان المحليين
١٠٢	ثانياً: السكان
١٠٩	ثالثاً: الطعام والشراب
١١٠	رابعاً: وصف الأماكن
١١٥	خامساً: الأمراض والأوبئة
١١٧	الفصل الرابع: الحياة الثقافية في القارة الأمريكية الجنوبية
١١٩	أولاً: القصص، والخرافات، والأساطير
١٢٦	ثانياً: التعليم والثقافة
١٢٩	ثالثاً: الطب وطرق معالجة المرضى
١٣١	رابعاً: الأعياد
١٣٣	خامساً: الديانات
١٣٦	الفصل الخامس: المناخ والحيوان والنبات في القارة الأمريكية الجنوبية
١٣٧	أولاً: النبات
١٤١	ثانياً: الحيوان
١٤٥	ثالثاً: المناخ والطبيعة
١٤٧	الخاتمة
١٥٢	قائمة المصادر والمراجع

المقدمة:

الرحلة قديمة قدم الإنسان، وتشكل تجربة إنسانية فريدة تبرز فيها المتعة بالمشقة، وتكون اكتشافاً للذات وللآخر، فضلاً عن أنها تتضمن توثيقاً لمشاهدات الرحالة، وتوصيفاً للبلدان وتعريفاً بالأقوام. وبناء على ذلك فلا غرو أن يعد هذا النوع من الأدب الوسيلة الأكثر قدرة على رصد مشاهدات الرحالة لمختلف جوانب الحياة والطبيعة، وتوثيقها بالكلمة والوصف من خلال رؤية الرحالة لها، هذه الرؤية التي يفترض فيها الحياد نحو الظواهر حين وصفها، ولكنها غالباً ما جاءت مفعمة بالمشاعر، وهذا ما جعلها مؤثرة في أسلوبها وممتعة في تفاصيلها، كما أنها توثق العادات والتقاليد والأعراف التي تبدو عادية لدى السكان المحليين في حين هي غاية في الأهمية في دراسة تطور هذه الأنماط الثقافية، وكذلك في الدراسات المقارنة لعادات الشعوب وقيمها وتقاليدها وثقافتها، وعلى هذا النحو توفر الرحلات مادة علمية قيمة في المجالات الاجتماعية والانثروبولوجية للباحثين والدارسين.

وأدت الرحلات دورها في الكشف الجغرافي، وحققت الاتصال بين الشعوب، واكتساب المعارف، والاطلاع على العادات والتقاليد؛ وهذا ما جعل بعض المؤرخين يرون أن تلك المعارف وضعت الجذور الأولى للأنتوغرافيا التي شكلت قاعدة أساسية للمقارنة بين أساليب الحياة ومظاهرها اليومية، كالبينة والملبس والمأكل والطب وغير ذلك من جوانب المقارنة المتصلة بالنظم الاجتماعية والثقافية لدى الشعوب.

وموضوع الرحلة والترحال والسفر والغربة عن الأهل والأوطان من الموضوعات التي استغرقت كثيراً من كتب المصنفين، وقد ولد هذا الأدب عبر تدوين الرحالة قصصهم ومشاهداتهم للبلدان التي زاروها والغرائب التي شاهدها، وتنوعت أخبارهم، وأهدافهم، ومقاصدهم تبعاً لأغراضهم من الرحلة؛ ولذلك تنوع ما كتبوه ودونوه كل بحسب دوره.

وإن كثيراً من معارفنا وتصوراتنا عن الحياة في بعض البلدان تعتمد على مدونات الرحالة الذين زاروا تلك البلدان فضلاً عن ذلك تشكل كتب الرحلات مصدراً للمعلومات التاريخية التي تحكي الأحداث التي عاصرها الرحالة من تتابع السلاطين والحروب الدائرة أو الأحداث العظيمة التي وقعت آنذاك، واهتم كثير من الرحالة بوصف المناطق التي زاروها، فأسهموا بشكل كبير في رسم الخرائط، كابن خرداذبة، والبكري، والإصطخري، ولكل واحد من هؤلاء الثلاثة كتب يصف فيها

جغرافياً البلدان التي شاهدها والطرق التي مر بها.

واهتم العرب بالرحلات وبالملاحة واكتشاف الأقاليم والبلدان والبحار والمحيطات منذ زمن بعيد، وشكلت الرحلات مصدراً مهماً من مصادر التاريخ العربي؛ لأن الرحلات من أكثر مظاهر التوثيق التاريخي مصداقية وواقعية، واتسعت تلك المدونات لتصف حدود البلاد التي زارها الرحالة العرب ومسالكها ومدنها وقراها ومناخها وتضاريسها وبحارها وأنهارها ومعابدها وعادات شعوبها وتقاليدهم وأشكالهم، وغير ذلك من مظاهر الثقافة المادية والروحية التي تعكس في مجملها ثقافة البلدان التي مروا بها وأخبارها التاريخية وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والبيئية.

وقد عرف العرب أدب الرحلات منذ زمن بعيد، ولعل من أشهر نماذجه رحلة القسيس العراقي إلياس حنا الموصللي الذي كان أول عربي يصل إلى القارة الأمريكية في النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد، وقد دون رحلته في الفترة ما بين عامي ١٦٦٨ - ١٦٨٣ ميلادية، وسطرها في كتابه الموسوم بـ (الذهب والعاصفة) الذي ذاع صيته حتى يوم الناس هذا، فكان صنيعة هذا أول رحلة شرقية إلى القارة الأمريكية ((العالم الجديد))، وقدم الموصللي خلال رحلته وصفاً دقيقاً في غاية الأهمية لتلك البلاد، ولتفاصيل حياة الشعوب التي تسكن تلك البقاع، متحدثاً عن رجال الدين الكاثوليك، ورؤساء محاكم التفتيش، مصوراً القرى والمدن والبلدات التي زارها، واصفاً الطرق والقصور والجبال والأنهار، راسماً صورة الناس في تلك البقاع مشيراً إلى طرائق عيشهم وطباعهم وصفاتهم الخلقية والخلقية مقدماً وصفاً حياً دقيقاً للنباتات والحيوانات، واتسعت تلك الرحلة لتصف حدود البلاد التي زارها ومسالكها ومناخها وتضاريسها ومعابدها التي تعكس في مجملها ثقافة البلدان التي مرَّ بها وأخبارها التاريخية وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والبيئية، وهذا ما جعل مدونة الموصللي من أهم الوثائق التاريخية التي تحدثت عن القارة الأمريكية في تلك الفترة.

ولهذه الأهمية التي حظيت بها رحلة إلياس الموصللي، ولما امتاز به من عقلية خصبة، وذهنٍ وقادٍ، وقع الاختيارُ على رحلته الموسومة بـ ((الذهب والعاصفة)) لتكون موضوعاً أُنقِذَ به إلى قسم التاريخ بجامعة دمشق للحصول على درجة الماجستير.

وجاء هذا البحث مُكوّناً من مقدّمة وتمهيد ، وخمسة فصول أخرى، أُفردَ التمهيدُ للحديث عن الرّحلات: تعريفها، نشأتها وتطوّرها، أسبابها، قيمتها. وعرفت الرّحلة لغةً، واصطلاحاً، وتحدثت

عن الرحلات في التراث العربي، وبينت أسباب الرحلات، وتحدثت عن القارة الأمريكية من حيث الموقع والامتداد، والتسمية ومعانيها، وأهم الكشوف الجغرافية العربية والأوربية التي سبقت رحلة الموصلية..

وتناول **الفصل الأول** إلياس الموصليّ ورحلته الذهب والعاصفة، فذكرت حياته، ومناصبه وألقابه، وعلاقاته، وقدمت وصفاً لمطبوعة الرحلة، مع تبيان مسار الرحلة، وأسبابها، وأهدافها، وأهميتها، وجوانبها التاريخية في مرحلتي ما قبل الرحلة إلى القارة الأمريكية وبعدها.

وعرج **الفصل الثاني** على الجوانب الاقتصادية في القارة الأمريكية الجنوبية، وذكرت مناجم الذهب، وطريقة استخراجها، وأماكنه، ومناجم الفضة، وطريقة استخراجها، وأماكنها، والزئبق، والرُّمْد، البونو، القليوما، المرمر، والجواهر، وتناولت أيضاً الحديث عن الصناعات، والأسعار والمقاييس والأوزان، و خزينة الملك الإسباني، وأهم المبادلات التجارية والبضائع والسلع التي عرفتھا تلك القارة.

أمّا **الفصل الثالث** فكان وقفةً لعرض الحياة الاجتماعية في القارة الأمريكية الجنوبية، فبينت العادات والتقاليد والأعراف لدى السكّان المحليين، وتحدثت عن السكّان، وعاداتهم في الطّعام والشراب، وكيف كانت مساكنهم، وذكرت الأمراض والأوبئة التي كانت تصيب الناس، وتطّرفت فيه للحديث عن الأماكن التي وصفها الموصلي في رحلته

وبين **الفصل الرابع** الحياة الثقافية في القارة الأمريكية الجنوبية، وما كان سائداً فيها من القصص، والخرافات، والأساطير، وطبيعة التعليم والثقافة، ومعرفة أحوال الطب لديهم، والطرق المستخدمة في معالجة المرضى، وما الأعياد والديانات المتعارف عليها بين السكان.

وكان **الفصل الخامس** وقفةً لعرض المناخ والحيوان والنبات في القارة الأمريكية الجنوبية، وأفردت فيها حديثاً للمناخ والطبيعة كما سطرها قلم الموصلي. وختمتُ البحث بخاتمة لخصتُ فيها أهم النتائج

وبعدُ، فلن نترك القلم قبل أن نشكر المولى تعالى مسمّاه على ما أعان ووفّق، راجين . وما أكثر ما نرجو . أن نكون قد وفقنا إلى الإجابة في تبيان هذا الأثر، وترتيبه، وحسن عرضه في هذا البحث الذي وهبته جهدي وطاقتي، ولم أدّخر من أجله الصبر والوقت، ولستُ أشكُ أنّني لم أبلغ به ما يريده كل باحثٍ مخلصٍ لعمله، بيد أني لم أقصّر إثّاراً لراحةٍ، أو ضناً بجهدٍ، يحدونني في هذا

كلّه تحرّي وجه الحق، فإنّ ظفرتُ بحسن الصنيع فهو المرام، وإن جانبتُ الصواب، فحسبي أني أخلصتُ النية وبذلتُ قصارى جهدي، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وليس كلُّ ما يُرادُ وارداً، ولا كلُّ طالبٍ واجداً، وكلُّ مُسيّرٍ لما خُلِقَ له.

ولستُ أفارقُ مجلسي هذا دون أن أشكرَ أستاذي الجليل الأستاذ الدكتور حسام الناييف الذي كان لي معلماً ومرشداً وأباً وأخاً، وكان . أطل الله بقاءه . يستحثني على تتجّز هذه الرسالة، ويبادرني بالسؤال عنها، كما لو أنّها شيءٌ يصنعه هو، أبقاه الله مَفْرَعاً يلوذُ به طلبَةُ الدراسات العليا في جامعة دمشق .

والعمل لا ينمو ولا يكبر إلا بتوجيهات من أفنوا حياتهم في دراسة هذا التاريخ ، وقد يسر الله لهذا البحث أساتذتي: الدكتور حكمت عبد الرحيم، والدكتور وضاح نوفل، فلهما أزجي وافر الشكر. مكبراً ما تجشموه من عناء قراءة هذه الرسالة في قيظ الصيف على كثرة أعبائهم ومشاغلوهم، وما من شك أنهم يصلحون ما انآد من عملي، وينفقون ما شابه من هبات، ويصوبون ما فرط مني بسديد آرائهم، وصائب ملاحظتهم. شكر الله صنيعهم في الدارين، وجعل الحق إمامهم وأمامهم والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه، والحمدُ والشكرُ له على ما أعان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ومن والاه بإحسان إلى يوم الدين.

أهمية البحث:

كُلُّ من يقلب صفحات كتاب الذهب والعاصفة، ويقرأ سطره سيقف على معلومات قيمة ودقيقة ترسم تاريخ القارة الأمريكية، ويقف على عادات سكانها وتقاليدهم وثقافتهم بمختلف فنونها، وسيدرك أنها ليست عالماً خاصاً، بل عوالم متميزة، تحظى بسحر الطبيعة، وتنوع التضاريس والمناخ، وتختص بتاريخ متواصل شديد الثراء من الناحية الثقافية علومياً وفلسفة و فنوناً وآداباً. إنها خلاصة ناطقة لأدوار تاريخ البشرية، وصورة صادقة معبرة عن تطور الحضارة الإنسانية منذ بدايتها وانتهاء بالحضارة الحديثة.

ولهذا كله يسعى هذا البحث إلى رصد تلك الجوانب التي سجلها الموصلي عن تلك القارة، ومعرفة أوضاعها السياسية والاقتصادية الثقافية والاجتماعية في المرحلة الممتدة بين (١٦٦٨- ١٦٨٣)، من خلال تَعَقُّبِ كتاب الذهب والعاصفة.

والذي قاد إلى اختيار هذا الموضوع هو أن القارة الأمريكية شهدت في القرن السابع عشر تتطلع جملة من الرحالة والباحثين إلى السعي إلى اكتشافها ولاسيما بعدما ذاع من انتشار الذهب والفضة والزئبق فيها، فطفق الرحالة من جميع أصقاع الأرض يتوافدون إلى هذه القارة واصفين جميع مظاهرها مسجلين كل ما شاهدوه، ووقفوا عليه أثناء ترحالهم في ربوعها، وهذا الكلام ينطبق على رحلة الموصلي الذي حقق سبق العربي في ذلك من خلال رحلته التي دامت ستاً وعشرين سنة أمضاها مرتحلاً في أمريكا الوسطى والجنوبية، فكان عمله هذا وثيقة تاريخية مهمة عن حضارات تلك القارة ولاسيما المايا والإنكا وغيرها، مسجلاً في الوقت نفسه ممارسات الدول الاستعمارية التي كانت تنهب خيرات تلك القارة التي خضعت لبطشه وقمعه على نحو جعل سكان تلك القارة عبيداً لهذا المستعمر الذي صَبَّ عليهم جبروته قتلاً وأسراً وسجناً ونهباً، ولا ينسى الموصلي أن يحدثنا على بقية مظاهر حياتهم حديثاً شائقاً في رحلته التي احتوت الفائدة والمتعة، غير أن هذه الأشياء كانت شذرات متناثرة متفرقة في بطن الكتاب، وهذه الآراء المتفرقة والمتناثرة تحتاج حقاً إلى الجمع والتبويب والترتيب والدراسة والتفصيل؛ لذلك جاء هذا البحث لجمع شتات المتفرق والمتناثر في بوتقة واحدة، وتفصيل المجل، وترتيب المختلط، وإظهاره في دراسة موضوعية مستقلة؛ لأن الموضوع يستحق وقفة متأنية عميقة، إذ لم يعط حقه بدراسة موضوعية شاملة مستقلة، أو رسالة جامعية تجمع شتاته، وتبويب مسائله، وتبين أوضاع هذه القارة العامة.

ويمكن ذكر أهم النقاط التي تمنح هذا البحث أهميته، وهي:

أولاً: رسم صورة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في القارة الأمريكية في المرحلة الممتدة بين (١٦٦٨-١٦٨٣م).

ثانياً: التعرف على القارة الأمريكية ومسالكها ومدنها وقراها ومناخها وتضاريسها وبحارها وأنهارها ومعابدها وعادات شعوبها وتقاليدهم وأشكالهم، وغير ذلك من مظاهر الثقافة المادية والروحية.

ثالثاً: التعرف بمكونات القارة الأمريكية التي شكلت البنية الاجتماعية لهذا المجتمع، وتبيان أطراف هذا المجتمع، ومعرفة عاداتهم التي توارثوها عن أجدادهم، ولا يزالون محتفظين بها إلى وقتنا الراهن شأنهم شأن أي إنسان يتمسك بترائثه الماضي الذي يشكل نوعاً من الأصالة والعراقة.

رابعاً: الحياة الثقافية في القارة الأمريكية من خلال رحلة الموصلي، وتوضيح خصائصها وسماتها وتشعباتها، ومقارنة هذه الحياة الثقافية بالحياة الثقافية السائدة في ذلك العصر.

خامساً: التعرف على أماكن مناجم وجود الذهب والفضة والزئبق والمياه العذبة الصالحة للشرب، والتعرض إلى ذكر الصلات التجارية بين أوروبا وأمريكا، وتمتاز هذه الرحلة بالوصف الصادق للطرق التجارية.

إشكالية البحث وتساؤلاتها:

تتبع إشكالية البحث من أن رحلة الموصلية حفلت بجملة من المعلومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي جعلتها في كثير من الأحيان ترسم ملامح صادقة وواضحة لهذه القارة، وهذا الأمر أعطى رحلة الموصلية أهمية وجدّة، فمادتها لا تقارن بأي مادة أخرى حتى لدى أولئك الرحالة الذين جاؤوا بعده إلى هذه القارة، كما أنها السّفَرُ الوحيد الذي وجد مكتوباً باللغة العربية عن القارة الأمريكية في تلك المرحلة الزمنية، ويضاف إلى هذا كله أن الرحلات التي تلت هذه الرحلة إلى القارة جاءت بعد قرابة قرنين من الزمن، وفي هذه المرحلة كانت القارة الأمريكية قد أصبحت معروفة مشهورة بين الناس جميعاً، وغدت لها مظاهر حياتية جديدة مختلفة عن الملامح التي دونها الموصلية في رحلته.

ولا يخفى على أحد أن الموصلية وصف الطريق إلى الحجاز وقبرص وإيطاليا وإسبانيا والقارة الأمريكية بدرجة عالية من الدقة، وقد ترك وصفاً للسواحل والجزر ومختلف الموانئ والبلدان وسكانها والمحاصيل والمنتجات وسلع التجارة، كما ثبت أن المعلومات التي أوردها تتميز بالتفصيل والدقة، ولعل الموصلية أول من قدم وصفاً قيماً للطريق التجاري البحري الذي يربط منطقة الخليج العربي بأوروبا بالقارة الأمريكية في نظر كثير من الباحثين ومع ضلوعه وفهمه في علم الجغرافيا عندما اهتم بذكر المسافات بين الموانئ والمدن والمحطات والمراكز التجارية والمسافات بينها، وأوضح أماكن وجود المياه العذبة الصالحة للشرب.

وتمتاز هذه الرحلة بالوصف الصادق للطرق التجارية، ولبعض العادات والنظم الاجتماعية، مع قلة الأساطير والخرافات التي كانت الطابع العام لكل رحالة في ذلك العصر.

وكما هو واضح فإن رحلة الموصلية لفتت أنظار كبار المستشرقين منذ بدايات القرن الثامن عشر، مثل المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي، والمستشرق البريطاني بول لندي، وترجم قسم كبير منها إلى الإنكليزية، وترجمت إلى الفرنسية، ونشرت ترجمة كاملة للرحلة بالإيطالية، وأعيد تحقيقها بمنهجية عالية.^(١)

(١) ينظر في هذا المجال: طلعت شاهين: سيمون الحايك : أول من شاهد أمريكا مورسكي عربي، جريدة في

الحياة، العدد ١٠٩٣٣، كانون الثاني، ١٩٩٩، ص ٤٤.

وسيطر البحث جملة من التساؤلات محاولاً الإجابة عليها في نهاية المطاف، ومن هذه التساؤلات:

أولاً: ما الأسس والمعايير المشهورة بين الرحالة، وما مفهوم هذا المصطلح، وهل هذه الأسس والمعايير عالمية أو دولية أو فردية؟

ثانياً: ما الجماعات البشرية التي كانت تقطن القارة الأمريكية، وما أشكالها، وما تاريخها، وما جذورها وأصولها القديمة؟

ثالثاً: هل تميز الموصل في رحلته بدقته وقدرته على الملاحظة وتسجيل المشاهدات، والمواقف والأحداث التي تعرض لها والأشخاص الذين صادفهم في أسفاره؟

رابعاً: هل كانت رحلة الموصل الأثر العربي الوحيد الذي يتحدث عن القارة الأمريكية والطريق الملاحي إليها على أساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع، وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيرها كما يفعل الجغرافيون والمؤرخون العرب؟

خامساً: ما الأشياء التي ركز الموصل في رحلته على وصفها وصفاً دقيقاً أميناً، وما الأشياء التي ذكرها بشكل موجز، وما الأشياء التي جاءت متفرقة متناثرة في سطور رحلته التي قدمها؟

سادساً: ما هو الهدف الأساسي من وراء رحلة الموصل، وهل هو التعرف على أماكن وجود الذهب والفضة والزئبق، أم أن الهدف من ورائها التعرف على مجاهيل هذه القارة التي لم تكن معروفة بشكل واضح في تلك المرحلة، أم أن الهدف من ورائها مجرد الترفيه والترحال؟

منهج البحث:

سيسلك البحث المنهج التاريخي الاستقرائي الوصفي التحليلي القائم على التعليل والمقارنة؛ لاستنباط وتقصي وجمع النصوص المتصلة بالقارة الأمريكية في القرن التاسع عشر الميلادي من رحلة الموصل وتحليلها، وسوف يتتبع البحث هذه الرحلة من بدايتها حتى نهايتها، ويسعى إلى أن يستخلص من هذه الرحلة صورة أقرب ما تكون لما أرادها صاحب هذه الرحلة، باحثاً عن أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كما رسمها الموصل.

أدوات البحث:

أدوات ومباحث الدراسة مستنبطة من رحلة الموصلية الموسومة بالذهب والعاصفة، إضافة إلى جملة من الآراء والأقوال والشروح والتعقيبات والأبحاث التي انطوت عليها الدراسات التي تناولت القارة الأمريكية، ومن معلومات مستنبطة من مصادر المؤرخين القدماء والمحدثين التي انتهت إلينا، وقد نهج البحث نهجا خاصا في تقديم آراء المؤرخين والدارسين وأقوالهم في المسائل المدروسة، ثم عرجت على رحلة الموصلية أستقرئها، ثم عقت عليها بأقوال العلماء وردودهم، إن وجدت، وبعدها ذكرت آراء المعاصرين في المسألة موجزة أو مسهبة حسب مقتضى الحال.

الدراسات السابقة^(١):

ولم يقف هذا البحث - حسب اطلاعي - على دراسة مستقلة أو جامعية تناولت رحلة الموصلية إلى القارة الأمريكية أو الجوانب التاريخية والجغرافية فيها على وجه التحديد والتدقيق. غير أن هناك دراستين تناولتا الرحلة تناولاً وصفيّاً تاريخياً عرج على الرحلة وصاحبها، والأسباب التي قادت إلى سفره إلى تلك القارة في ذلك الوقت بالتحديد، وهما:

(١) وهناك مقالة لأستاذي الدكتور حسام الناييف بعنوان: دور الرحالة العرب في اكتشاف القارة الأمريكية في القرن السابع عشر، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان: ٨٨ - ٨٩، آذار - حزيران، ٢٠٠٨. تعرض فيها للحديث عن رحلة الموصلية والقارة الأمريكية، وخلص من وراء بحثه إلى جملة من الملاحظات، وهي على النحو الآتي:

- تحفل الرحلة بالأخبار والقصص الواقعية منها والعجيبة، وتكشف عن التقاطعات ذكية، ويتمتع الكاتب بشيء غير قليل من الموضوعية التي جعلته غير راض عما أنزله ديوان التفتيش بالسكان الأصليين من ألوان العقاب الجماعي.
- تكشف رحلة الموصلية عن صور مؤلمة لأوضاع أحفاد المايا والأنكا وغيرهم من الأعراق التي سكنت القارة منذ أقدم الأزمان، وتنقل الرحلة قصصاً حزينة وأخباراً عن المصائر المأساوية التي تسبب بها الاستعمار الإسباني.
- اقتصر وسط الموصلية على رجال الدين والسلطات الإسبانية، وكان ينزل أثناء سفره ضيفاً على رؤساء محاكم التحقيق المحليين أو على حكام النواحي أو الأساقفة.
- روايته على العموم تتميز بالدقة والتفصيل، فهو يسجل باهتمام كل ما يقع أثناء الرحلة بما في ذلك الظواهر الطبيعية.

أولاً: تاريخ الأدب الجغرافي العربي لأغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي^(١)، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، وقام بمراجعته إيغور بلياييف، مطبوعات الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، الطبعة الروسية ١٩٥٧، والطبعة العربية ١٩٦١. الكتاب مؤلفين من جزئين متسلسلي الترقيم، و يقدم مادة علمية غزيرة لكل من الأدب العلمي والأدب الشعبي، ويجتهد صاحبه في أن يلم بأطراف الجغرافيا الرياضية والوصفية كما جهد في الإحاطة بالجغرافيا العامة والإقليمية، وهو لا يهمل قصص الرحلات حتى تلك التي تحمل طابعاً أدبياً صرفاً بل وأسطورياً. فقد بسط الحديث عن رحلة الموصلي إلى القارة الأمريكية ذاكراً جملة من الملاحظات التي ألقت الضوء على هذه الرحلة وصاحبها، بل إنه أول من تنبّه ونبّه إلى هذه الرحلة، ويمكن أن نذكر جملة من الملاحظات وهي:

- لا نستطيع التكهن بصورة دقيقة عن طبيعة الأغراض التي هدف إليها الموصلي من وراء رحلته إلى القارة الأمريكية.
- طبعت الرحلة بالاعتماد على مخطوطة وحيدة موجودة في حلب، وهي تتكون من قسمين مستقلين عن بعضهما بعضاً، يشمل أحدهما الوصف الأساسي للرحلة بعنوان ((السياحة))، في حين يشمل القسم الثاني الحديث عن اكتشاف القارة الأمريكية وتاريخها، ويضم سبعة عشر فصلاً.
- قراءة هذه الرحلة لا تخلو أحياناً من تأثير مؤلم في نفس القارئ، فهي أثر مؤلم من الآثار التي تصور عهد الاستعمار الذي أناخ بكله على أهل البلاد الأصليين، وقام باستغلالهم استغلالاً مشيناً.
- المادة الجغرافية التي تحويها الرحلة تتسم غالباً بالصحة كما أنه يمكن التثبت من أسماء المواضع التي يوردها دون كبير عناء، وعدد المواضع كبير، ويقدم مادة لا بأس فيها عن أحوال ذلك العصر.
- لا يقتصر الموصلي في وصفه للحياة الاجتماعية وأسلوب المعيشة على الإسبان وحدهم، بل يمس السكان المحليين من الهنود الذين لا تختلف نظرة المؤلف إليهم عن نظرة العصر والوسط الذي عاش فيه.

(١) مستشرق روسي ولد سنة ١٨٨٣، وكان منذ نعومة أظفاره شغوفاً بالاستشراق، وتعلم اللغة العربية، مع اهتمامه بتاريخ الجغرافيا العربية، وكانت أبحاثه تدور حول الشعر العربي، وأدب النصارى العرب، وتاريخ الأدب العربي المعاصر. وتوفي سنة ١٩٥١.

تَمْهِيدٌ:

أولاً: الرّحلاتُ تعريفُها، نشأتُها وتطوُّرها وأسبابُها.

أ- الرّحلةُ لغةً.

ب- الرحلة اصطلاحاً.

ج- الرحلات في التراث العربيّ.

د- أسباب الرحلات.

ثانياً: القارّةُ الأمريكيّةُ

ت- المَوْقِعُ والامْتِدَادُ.

ث- التَّسْمِيَةُ أُصُولُها وَمَعَانِيها.

ح- الكُشُوفُ الجُغْرَافِيَّةُ العربيَّةُ للقارّةِ الأمريكيَّةِ.

ذ- الكُشُوفُ الجُغْرَافِيَّةُ الأوروبيَّةُ للقارّةِ الأمريكيَّةِ.

أولاً: الرحلات تعريفها، نشأتها وتطورها وأسبابها.

أ- الرحلة لغة:

يجد الناظر في المعاجم التي تناولت مفهوم الرحلة من الناحية الاصطلاحية أنها جاءت متعددة المعاني، ونذكر منها الانتقال والوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه، و دنو المكان المراد الوصول إليه، أو اقتراب وقت الرحيل، ولهذه المعاني كلها كان لفظ رحلة الذي يطلق على الشخص المتنقل من مكان لآخر، فالرحلة يراد بها السير والضرب في الأرض، ويراد بها أحياناً الارتحال؛ أي الانتقال من مكان إلى آخر، فالرحلة بضم الراء أولُ السفرة، والرحلة الارتحال^(١)، وورد في معجم مقاييس اللغة^(٢): "الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مُضيٍّ في سفر".

وذهب ابن منظور في لسان العرب إلى أن الرحلة: "الرحلة في اللغة الترحيل والارتحال بمعنى الأشخاص والإزعاج، يقال: رَحَلَ الرَّجُلُ إذا سار"^(٣)

أ- الرحلة اصطلاحاً:

يجد الناظر في تعاريف الرحلة قديماً وحديثاً أنها تجمع على أن الرحلة نوعان: جماعية وفردية، فالجماعية هي: انتقال مجموعة متجانسة ذات علاقة معينة من مكانهم المعتاد اليومي إلى مكان آخر غير معتاد، بغية تحقيق أهداف معينة في فترة معينة. وقيل في الرحلة الفردية هي: ذهاب فرد إلى منطقة أخرى بغية تحقيق أهداف معينة الاتجاهات.

والرحلة أدب يقوم على استخدام القصة التي تلجأ إلى سرد الأحداث، ويودع الرحالة هذه الرحلة مشاهداته، وملاحظاته، وانطباعاته، ومقارناته التي وقف عليها خلال رحلته إلى البلدان والمناطق التي ارتحل إليها، أو مرَّ بها واصفاً طبيعة تلك البلاد وجغرافيتها وتاريخها وعاداتها وتقاليدها وأساليب عيشها ودياناتهم ولغاتهم وثقافتهم، وهذه الأمور مجتمعة تجعل من الرحلات مصادر وثائقية مهمة تزود الدارسين بمعلومات في مختلف المجالات الفكرية الأدبية والحياتية^(٤)

(١) ابن قتيبة: أدب الكاتب، تحقيق محمد الفاضلي، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٢٢١.

(٢) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١، مادة (رحل).

(٣) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، مادة(رحل).

(٤)فواز الشعار: الموسوعة الثقافية العامة، الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص ١٩٧، و د.ب.

غالغر: أدب أمريكا الحديث، ترجمة محمد جعفر داود، بغداد، ط٢، ١٩٨٦، ص٥٦.

التي إن استخدمت في ميدان الدراسات المقارنة ستؤدي إلى نتائج علمية مفيدة. ومهما يكن سبب الرحلة والغرض منه فإنها تبقى سلوكاً إنسانياً حضارياً يؤتي ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة بعد الرحلة^(١)، يقول المسعودي: "ليس من لزم وجهة وطنه وقنع بما نهى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار"^(٢).

ثانياً: الرّحلات في التراث العربيّ.

المستقرئ لتاريخ الرحلات يجد أنها قديمة قدم الإنسان الساعي منذ نعومة أظفاره إلى الحركة والتنقل، هذا الإنسان الذي تطلع بعقله الذي يميزه عن سائر المخلوقات للاستكشاف، ساعياً في البداية للبحث عن طعامه وشرابه، أو هارباً من القوى المعادية، سواء أكانت طبيعية كالفيضانات والرعد والعواصف والزلازل والبراكين، والحيوانات الضارية^(٣).

وهكذا طفق الإنسان منذ بزوغ شمسه الأولى على هذه الأرض إلى الحركة والتنقل، واستمر في هذا التنقل والرحلات إلى بعد تعلمه الزراعة، وتوجهه نحو الاستقرار والبناء مؤسساً المجتمعات البشرية ساعياً على مرّ الأيام والعصور إلى التوجه نحو الأفاق البعيدة، وهو لا يكف عن التفكير فيما تضمه من الخلق والموجودات وفيما تحمله من الكنوز والخيرات ولاسيما حين تضيق به الحال، ويجف الماء والضرع، أو تضن الطبيعة عليه بما يملأ بطنه ويسعد قلبه^(٤).

وموضوع الرحلة والترحال والسفر والغربة عن الأهل والأوطان، من الموضوعات التي استغرقت كثيراً من كتب المصنّفين، وقد ولد هذا الأدب عبر تدوين الرحالة قصصهم ومشاهداتهم للبلدان التي زاروها والغرائب التي شاهدها، وتتوّعت أخبارهم، وأهدافهم، ومقاصدهم تبعاً لأغراضهم من الرحلة؛ لذلك تنوع ما كتبوه ودونوه كلّ بحسب دوره. وإن كثيراً من معارفنا وتصوراتنا عن الحياة في بعض البلدان تعتمد على مدونات الرحالة الذين زاروا تلك البلدان. فضلاً عن ذلك تشكّل كتب

(١) فواز الشعار: الموسوعة الثقافية العامة، الأدب العربي، ص ٢١.

(٢) فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتابة، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٢، ص ٢١.

(٣) فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص ١٧.

(٤) فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص ١٧-١٨، ٢٩. وانظر: علي أحمد غانم: تطور الفكر

الجغرافي، دار المسيرة، عمان، ط ١، ٢٠١٣، ٥٨.

أدب الرحلات مصدراً للمعلومات التاريخية التي تحكي الأحداث التي عاصرها الرحالة من تتابع السلاطين والحروب الدائرة أو الأحداث العظيمة التي وقعت آنذاك. واهتم كثير من الرحالة بوصف المناطق التي زاروها، فأسهموا بشكل كبير في رسم الخرائط، كابن خرداذبة، والبكري، والإصطخري، ولكل واحد من هؤلاء الثلاثة كتاب يصف جغرافية البلدان التي شاهدها والطرق التي مرَّ بها^(١).

وهكذا يقدم الرحالة مادةً علميةً قيّمةً في المجالات الاجتماعية والأنثروبولوجيا للباحثين والدارسين. كما أدت الرحلات دورها في الكشف الجغرافي، وحققت الاتصال بين الشعوب واكتساب المعارف والاطلاع على العادات والتقاليد؛ وهذا ما جعل بعض المؤرخين يرى أن تلك الرحلات وضعت الجذور الأولى للأنتوغرافيا التي شكّلت قاعدةً أساسيةً للمقارنة بين أساليب الحياة ومظاهرها اليومية، كالبيئة والملبس والمأكل والطب وغير ذلك من جوانب المقارنة المتصلة بالنظم الاجتماعية والثقافية لدى الشعوب.^(٢)

وقد عرف العرب أدب الرحلات منذ زمن بعيد، ولعلّ من أشهر نماذجه مدونة رحلة سليمان التاجر في المحيط الهندي إلى بلاد الهند والصين في القرن الثالث الهجري التي قدم من خلالها وصفاً دقيقاً في غاية الأهمية لبلاد الهند والصين، ولتفاصيل حياة الشعوب التي تسكن تلك البقاع، وتعد مدونة هذا التاجر من أهم الوثائق التاريخية التي تحدثت عن بلاد الصين في تلك الفترة. ولعل الذي دفع الرحالة العرب إلى المغامرة والتوجّه نحو الصين هو أن حضارة الصين تعدّ من أقدم الحضارات البشرية.^(٣)

وهكذا شكّلت رحلات العرب والمسلمين أثناء الفتوحات العربية الإسلامية التي امتدت من الهند والصين إلى المحيط الأطلسي، وجمال البرناس، ومن التركستان والقوقاز إلى السودان، ومجاهل أفريقيا مشكلة هذه الفتوحات رقعة جغرافية ذات دين واحد لا فرق بين سكانه ولا حواجز، وهذا ما دفع الرحالة إلى جوب هذا البقاع لاكتشافها ووصفها^(٤).

(١) فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص ٢١.

(٢) محمد خكيس الزوكة: الكشف الجغرافية، مطبوعات كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٩، ص: ٦٦.

(٣) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، ١٩٨٦، ص ٢٣.

(٤) داوود سلوم: الشخصية العربية في روايات أمريكا اللاتينية، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩٥، ص ٢٢، وسميرة

ومن هنا توجه الرحالة العرب والمسلمون إلى الرحلات وما فيها من تحمل لمشاق السفر^(١). وغلبت على مؤلفاتهم السمة الجغرافية والتاريخية، بل إن هذه الرحلات كانت صفة خاصة بهم تفردوا بها عن غيرهم من الأقباط^(٢)، وهذا الأمر أدركه الدراسون الغربيون، فهذا المستشرق كراتشوفسكي الذي يعد من أهم المتخصصين بدراسة الحضارة العربية الإسلامية في جوانبها المختلفة يقرُّ بهذه الحقيقة قائلاً: " واستقرت هذه الدراسات في مصادرها العربية كالطبري، وابن الأثير، والمسعودي، وغيرهم الذين اهتموا بتاريخ الأدب الجغرافي العربي في عام ١٩٧٥م، وفيه عرض منظم للجغرافي العربي منذ ظهور التصورات الجغرافية عند العرب والفروع الجغرافية الأخرى عندهم مثل الجغرافية الوصفية، والرحلات، والجغرافية البحرية العامة والإقليمية"^(٣).

ولعل من أهم رواد هذا المجال ابن خرداذبه (ت ٢٧٢هـ) الذي صاغ بأسلوب بديع فني كل ما سبقه من أعمال الجغرافيين السابقين ومؤلفاتهم من مثل النضر بن شميل، والأصمعي، والجاحظ، وأودعها في كتابه الشهير الموسوم بـ "المسالك والممالك"^(٤).

وبعد ذلك توالى الرحلات في المجال نفسه، منها أحمد بن جعفر اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ)، صاحب كتاب ((البلدان))، والمسعودي (ت ٣٤٥هـ) صاحب كتاب ((مروج الذهب ومعادن الجوهر))، وابن حوقل (ت ٣٨٠هـ) صاحب كتاب ((صورة الأرض))، ومحمد المقدسي (ت ٣٩٠هـ)

أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ٣٩-٤٠.

(١) فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص ٣٠، وعيسى علي إبراهيم: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص ٨٥.

(٢) إبراهيم الحسين: بيبليوغرافية تفصيلية في أدب الرحلة. ضمن التراث الشفاهي الهجرة والترحال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠١٠، ص ٣٣، و داوود سلوم: الشخصية العربية في روايات أمريكا اللاتينية، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص ٥٦.

(٣) أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكو فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، وقام بمراجعته إيغور بلبايف، مطبوعات الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، ١٩٦١، القسم الثاني، ص ٢٠٨-٢١٥.

(٤) سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص ٤١. والمسالك والممالك كتاب يتناول وصف البلدان والتقسيمات الإدارية، تناول فيه الإصطخري أقاليم الأرض وممالكها بشكل مجمل، ثم تعرض لأقاليم البلاد الإسلامية مفصلة.

صاحب كتاب ((أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم))^(١).

ولما بزغت شمس القرن الثالث الهجري شهدت الرحلات^(٢) مرحلة جديدة، فقد شرع الرحالة يسطرون أخبار المناطق والبلدان التي زاروها ناقلين إياها للآخرين، وتطالعنا في هذا المجال أهم رحلتين جغرافيتين، وهما: ((نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)) لأبي عبد الله محمد الإدريسي (ت ٥٦٢هـ)، وقد اشتهر الإدريسي ببراعته في رسم الخرائط، وكان ماهراً في علم الجغرافيا^(٣).

وبرز في هذا النوع من الرحلات عدد من الرحالة المغاربة، ونذكر منهم الرحالة محمد العبدري البلسي المتوفى نحو (٧٥٠هـ) صاحب كتاب ((الرحلة المغربية))^(٤).

وشهد أواخر القرن السادس الهجري تحولاً جديداً في تدوين الرحلات التي راحت تكتب بأسلوب سردي يُعنى ببيوميات الرحالة، وسيرهم الذاتية، ومشاعرهم وأفكارهم، واتجاهاتهم الفكرية والروحية، وهكذا غدا أسلوب هذه الرحلات أسلوباً سردياً قصصياً يتسم بالبساطة والسلاسة، وبهذا تكون الرحلات قد فارقت الطابع العلمي سالكة مسالك الطابع الأدبي. وخير مثال على هذا النوع من الرحلات رحلة ابن جبير الأندلسي (ت ٦١٤هـ) الموسومة بـ ((تذكار الأخبار عن اتفاقات الأسفار))^(٥)، وعلي بن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥هـ) صاحب كتاب ((المشرق في حلى المشرق))، وابن رشيد السبتي الأندلسي (ت ٧١١هـ) صاحب رحلة ((ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة)). ويضاف إليهم ابن بطوطة (ت ٧٧٦هـ) صاحب كتاب ((تحفة النصار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)) الذي صاغه بأسلوب أدبي رائع جعله ينتشر في الآفاق^(٦).

(١) صلاح الدين علي الشامي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الدراسة الميدانية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٦٦.

(٢) صلاح الدين علي الشامي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الدراسة الميدانية، ١٩٨٢، ص ٦٦.

(٣) شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٧، ص ٤.

(٤) محمد العبدري البلسي: الرحلة المغربية، تحقيق أسعد بوفلاحة، بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٧-٨.

(٥) سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص ٤٢.

(٦) صلاح الدين علي الشامي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الدراسة الميدانية، ص ٢٣.

ويطالعنا في هذا المجال الرحالة المغربي الشهير ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) صاحب كتاب ((التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً))؛ وهو رحلة قصرها ابن خلدون للحديث عن سيرته الذاتية التي أضاف إليها أخبار تنقلاته وترحاله في المغرب والمشرق^(١). ولما بزغت شمس القرن العشرين الذي وُجِدَتْ فيه حركة فكرية وثقافية عالمية ساعدت على تطورها الرحلات البرية والبحرية التي بلغت ذروتها في القرن التاسع إثر التطور الاقتصادي الأوربي وما أعقبه من نشاط تجاري مع دول العالم الأخرى، وكان الهدف الرئيسي من وراء هذه الرحلات السيطرة على البلدان الأخرى وجعلها سوقاً لتصريف البضائع^(٢). وفي هذا القرن العشرين تسابق الرحالة إلى تدوين رحلاتهم ومشاهداتهم عن هذه الحضارة الجديدة، وكثرت المدارس كثرة واضحة في بلادنا، ودخل إليها الطلاب والمعلمون أفواجا، واستفادت هذه البلاد من منجزات الحضارة الغربية بما فيها من تطور ودقة وموضوعية، ومن هنا كان لزماً على رحالة هذا العصر إعادة النظر في الرحلات وأهدافها، وتقديمها للجيل بأسلوب عصري يتلائم مع حياتهم الحاضرة. ومن أهم هذه الرحلات: رحلة رفاعة الطهطاوي (ت ١٢٨٠هـ - ١٨٧٣م) إلى فرنسا، وهي بعنوان ((تلخيص الإبريز في تلخيص باريز))^(٣). ورحلة أحمد فارس الشدياق^(٤) (١٣٠٥هـ - ١٨٨٧م) في كتابين: ((الواسطة في معرفة أحوال مالطة))، و((كشف المخبأ عن فنون أوروبا)). ورحلة خير الدين التونسي (ت. ١٣٠٨هـ - ١٣٩٠م) التي سماها ((أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك))، ورحلتا سليمان بن صيام، وأحمد ولد قاد المعنوتان ب ((الرحلة الصيامية))، و((الرحلة الفادية في تبصير أهل البادية)). ورحلة محمد لبيب البتوني (ت ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م) المعروف برحلته الحجازية، والشيخ محمد رشيد رضا (ت ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م) ، ورحلة أمين الريحاني (ت ١٩٤٠م).^(٥)

(١) سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص ٤٣.

(٢) حسن محمد فهم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٩، يوليو، العدد ١٣٨، ص ٣٢، و نور الدين حاطوم، تاريخ القرن العشرين، بيروت، ١٩٦٥م، ص ١٢٥.

(٣) شوقي ضيف: الرحلات، ص ٦٨.

(٤) سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص ٤٨.

(٥) صلاح الدين علي الشامي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الدراسة الميدانية، ص ٤٢، و زينب عصمت

ثالثاً- أسباب الرحلات: لا يمكن حصر أسباب الرحلات بشكل دقيق محدد؛ لأنها تختلف من شخص إلى آخر، ومن زمن إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، لكن نستطيع أن نرسم بعض الخطوط العامة لهذه الأسباب، وهي:

الأسباب الدينية: وهي الرحلات التي تشد إلى الأماكن المقدسة تلبية لنداء الله تعالى، وتوبة وتطهيراً للنفس من الذنوب أملاً في المغفرة، ومما له صلة بهذه الأسباب الترحال من أجل التبشير بالدين أو زيارة المقابر والأماكن المقدسة^(١).

الأسباب العلمية أو التعليمية: وهدفها الأساسي طلب العلم، وهذه الرحلات تكون نحو البلدان التي تشهد نهضة علمية، فيقصدها الرحالة طلباً للعلوم^(٢).

الأسباب السياسية: تغلب على هذه الرحلات الصفة الرسمية؛ لأنها وفود وسفارات يرسلها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام الدول الأخرى لتبادل الرأي، وتوطيد العلاقات، أو المناقشة في شؤون الحرب والسلام، أو تمهيد لفتح أو غزو^(٣).

الأسباب الاقتصادية: وهذه الرحلات تكون من أجل التجارة، وتبادل السلع، أو فتح أسواق جديدة لمنتجات محلية، أو لجلب السلع التي تتوافر في بلاد أخرى^(٤).

راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢١٤.

(١) سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص ١٥، صلاح الدين علي الشامي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الدراسة الميدانية، ص ٢٢. وانظر: أحمد محمد عبد العال: الجغرافية على مر العصور، مكتبة جزيرة الورد، ط ١، ٢٠١١، ص ١٢.

(٢) سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص ٢٠، صلاح الدين علي الشامي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الدراسة الميدانية، ص ٢٣.

(٣) سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص ٢٠، صلاح الدين علي الشامي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الدراسة الميدانية، ص ٢٣.

(٤) جورج غريب: أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه، دار الثقافة، بيروت، ط ٣، ١٩٧٩، ص ٢٥.

الأسباب السياحية والثقافية: وهذه الرحلات تكون بدوافع داخلية تحثُ الرحالة على التطواف في الآفاق رغبة في التسلية والترفيه عن النفس، و التنقل، وتغيير الأماكن والمناظر من خلال المشاهدات والترحال والتعرف على الآخر بشرياً وطبيعياً، وإدراك المزيد من العادات والتقاليد والثقافات، وقد تكون لتعرف المعالم الشهيرة كالأثار والمنارات والأبراج و الكهوف والغرائب والعجائب^(١).

الأسباب الصحية: قد تكون الرحلة من أجل التداوي والبحث عن الأطباء الماهرين في البلدان المتطورة في ميدان الطب^(٢).

(١) جورج غريب: أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه، ص ٢٠.

(٢) فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص ٢٠.

ثانياً: القارة الأمريكية

أ- الموقع والامتداد:

يعد مصطلح القارة الأمريكية الجنوبية حديثاً نسبياً، ويطلق على جميع الأراضي والجزر التي تقع إلى الجنوب من حدود الولايات المتحدة مع المكسيك وحتى نهاية القارة الجنوبية في جزيرة أرض النار، وهكذا فإن أمريكا الجنوبية تشمل إضافة إلى قارة أمريكا الجنوبية جزءاً من أمريكا الشمالية، ومجموعة الجزر الممتدة على الحافات الخارجية للبحر الكاريبي التي تسمى بجزر الهند الغربية^(١).

أما امتدادها بين المحيطين فيختلف كثيراً بين شمالها ووسطها وجنوبها؛ إذ يبلغ أقصى ضيق لها في القسم الأوسط منها، في بنما، إذ استغل هذا الضيق هنا ففتحت فيه قناة بنما المشهورة في وصلها المحيطين، بينما يبلغ أقصى عرض لها في أمريكا الجنوبية بين خطي ١١٧° غربي غرينتش وبين الشاطئ الشمالي الغربي لكاليفورنيا على المحيط الباسيفيكي و ساو روك على المحيط الأطلنطي^(٢).

وتقدم هاتان القارتان أهمية جغرافية أسهمت في تشكيل صلة الوصل بين القارتين التي سلكتها الشعوب منذ أقدم العصور، ولا تزال تقدم أيسر موقع للاتصال بين المحيطين الأطلنسي شرقاً والهادي غرباً، ومما زاد هذه الأهمية شق قناة بنما^(٣) أوائل القرن الحالي الذي أضفى عليهما

(١) حسن طه نجم: أمريكا اللاتينية أرضاً وسكاناً - دراسة جغرافية إقليمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ١٩٩٠، ص ٥، وعبد المجيد نعنعي، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣، ٢٥٠.

(٢) حسام جميل النافيف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٩٩٢-١٩٤٥)، مطبوعات جامعة دمشق، ٢٠١٦، ص: ٣٣.

(٣) وتعني بالإسبانية: قشتالة الذهب. وقد اكتشفها بالبوا، فاسكو نونيز دي (١٤٧٥م - ١٥١٩م): مكتشف أسباني، وأول أوروبي شاهد الشاطئ الشرقي للمحيط الهادئ. وقد حفزت اكتشافاته مزيداً من الاستكشافات والفتوحات الإسبانية على امتداد الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية. وُلد بالبوا في جزيرة جبريز دي لوس كاليروس في إسبانيا، لأب فقير من النبلاء. وعمل لدى أحد النبلاء الأغنياء في موجير على الساحل الجنوبي الغربي لإسبانيا. استهوت بالبوا فرص الشهرة والثروة في العالم الجديد، فانضم عام ١٥٠١م إلى حملة استكشافية إلى أمريكا الجنوبية، وفي عام ١٥١٠م اتجه في إحدى السفن إلى مستعمرة سان سبستيان الإسبانية، ثم انتقل منها إلى الجانب

أهمية استراتيجية بالغة، سواء للأغراض السلمية أم للأغراض الحربية، يضاف إلى هذه القناة مضيق ماجلان الذي يشكل همزة وصل بين الشرق والغرب؛ وهو الممر الذي سلكه الرحالة الذي عرف المضيق باسمه أيام جولاته التاريخية المعروفة حول الأرض^(١).

وتمتد القارة الأمريكية عبر ما يقارب ٩٠ دائرة عرض بين الشمال والجنوب بين خطي ٣٣ درجة شمالاً و ٥٦ درجة غرباً؛ أي ما يقارب ١٠٠٠٠ كيلو متراً، وهذا امتداد يزيد حوالي مرتين على أقصى اتساع لها بين الشرق والغرب، وعلى ذلك فللقارة أطول امتداد جنوبي لأي كتلة يابسة على سطح الأرض. وتقسم دول أمريكا اللاتينية إلى ٢٤ دولة ذات سيادة:^(٢)

◆ سبع في أمريكا الوسطى هي: المكسيك، وغواتيمالا، وهندوراس، والسلفادور ونيكاراغوا، وكوستاريكا، وباناما.

◆ وست دول في جزر الأنтил، وهي: كوبا، ويانتو، دومينيغو، وهايتي، وجامايكا وترينيداد وتوباغو، وباربادوس.

◆ وإحدى عشرة دولة في أمريكا الجنوبية هي: غويانا وفينزويلا وكولومبيا والاكوادور والبيرو وبوليفيا والبرازيل والباراغوي والأوروغوي والأرجنتين والشيلي^(٣).

الغربي من خليج يورابا، إذ أسس هناك مدينة دارين وأصبح نائباً لحاكمها.

(١) حسن طه نجم: أمريكا اللاتينية أرضاً وسكاناً - دراسة جغرافية إقليمية، ص ١١ - ١٢.

(٢) دونالدو مونك، أمريكا اللاتينية المعاصرة، ترجمة منيرة محمد بدوي، النشر العلمي والمطابع، الرياض، ٢٠٠٨م، ص ٣٦، وألن نفنز، هنري ستيل كومجر، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ترجمة مصطفى عامر، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٥٦.

(٣) للتفاصيل حول أمريكا اللاتينية انظر: ساطع محلي: أمريكا اللاتينية، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق ١٩٧٤، الفصل الثالث وما بعده، وحسام جميل الناييف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٩٩٢-١٩٤٥)، ص:

ب- التَّسْمِيَةُ أَصُولُهَا وَمَعَانِيهَا: (١)

كل من يتحدث عن أمريكا فإن أول شيء يتبادر إلى ذهنه هو قضية الاسم، فتعبير أمريكا تعبير غير دقيق بصورة واضحة، فما هي أمريكا؟ ولماذا نسميها باللاتينية؟ وهل هنالك أسماء أخرى؟ (٢)

أخطأ الأوروبيون الذين كانوا يبحثون عن طريق إلى قارة آسيا حين اعتقدوا أنهم وصلوا إلى الشرق الأقصى، وأطلقوا على هذه الأراضي اسم الهند (Indias)، وحتى يصوبون هذا الاسم الخطأ، أضافوا إليه كلمة الغربية (Occidental) أو الغربي، والتي يمكن عدها أيضاً صفة خاطئة، وأصبحت تعرف باسم الهند الغربية (Indias Occidental) لكي تتميز عن الهند الشرقية (٣).

وسميت الأراضي التي اكتشفها كولومبس (خطأ أيضاً) باسم أمريكا تكريماً للبحارة الإيطالي أمريكو فيسبوتشي (Américo Vespucio)، وهو أحد الأوائل الذين حددوا معالم هذه الأراضي كجزء لا يتجزأ من العالم الجديد. وفي اللغة الإسبانية نقف على جملة من الأسماء التي استخدمت للتعبير عن هذه المنطقة، ومن أهمها أمريكا الإيبيرية (Ibero-américa)، وأمريكا الإسبانية (américa-Hispano)، وأمريكا الهندية (Indo-américa)، وأمريكا الجنوبية (sud-américa)، وأمريكا اللاتينية (América-latina)، ولو دققنا الملاحظة حول هذه الأسماء لوجدنا فيها أخطاء كثيرة:

♦ فأمريكا الإيبيرية اسم غير دقيق؛ لأنه يستبعد دولتين هما سورينام وهايتي.

♦ أما بالنسبة لأمريكا الإسبانية فهو لا يأخذ بالحسبان الأغلبية الساحقة من الهنود (السكان الأصليين في القارة)، والزنج، والأجناس الأخرى التي تكون اليوم شعوباً تغلب عليها الصفة

(١) أفدت في هذا العنوان من: حسام الناييف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ١٦ وما بعدها.

(٢) دونالدو مونك، أمريكا اللاتينية المعاصرة، ترجمة منيرة محمد بدوي، النشر العلمي والمطابع، الرياض، ٢٠٠٨، ص ٢٥، وانظر: حسام الناييف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ١٦.

(٣) حسام الناييف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ١٩.

السائدة، وهي صفة المهجنين أو الملونين أو ذوي الأصول الهندية الأمريكية أو سكان المستعمرات البرتغالية (البرازيل).

♦ أما بالنسبة للفظ أمريكا الجنوبية فقد استخدم في الأرجنتين منذ انعقاد مؤتمر توكومان (Tucuman)^(١) عام ١٨١٦م، وهذا اللفظ بما يعنيه من ضيق في المساحة لا يتفق مع المساحة الشاسعة للمنطقة.

♦ أما مصطلح أمريكا الهندية فقد دافع عنه بشكل أساسي أصحاب الأرض الأصليين (أو من تبقى منهم)، فقد عدّ المدافعون عن أمريكا الهندية هذا اللفظ يدعو إلى المطالبة بالتفاهل؛ إذ إنه يتضمن كل الهنود والإسبان والبرتغاليين والزنج والملونين، كما يتضمن كل الجماعات العرقية التي أنت من أوروبا وأفريقيا والشرق، كما أن هذا المصطلح لا يعطي استثناءً ولا أولوية لكل ما هو هندي؛ لأن مقطع إندو الذي يدخل على كلمة أمريكا، والذي يعني هندياً، ليس مشتقاً في هذا المقام من كلمة هندي، بل مشتق من اسم القارة الذي كان مستخدماً منذ عام ١٤٩٢م، ولفترة طويلة من الزمن امتدت حتى القرن الثامن عشر. والذين يفضلون إطلاق هذا الاسم إنما يفضلونه لإدراج جميع الأجناس تحته، وكذلك الوقوف على الإسهامات الثقافية المختلفة للفترات التاريخية^(٢).

♦ ونأتي الآن إلى مصطلح أمريكا اللاتينية، فما هي أمريكا اللاتينية؟ ولماذا نسميها اللاتينية؟^(٣)

(١) مؤتمر توكومان (Tucuman): عقد هذا المؤتمر في العاصمة الأرجنتينية بوينس إيرس، وكان الهدف الأساسي من انعقاده إيجاد صيغة مشتركة للقارة الأمريكية المستقلة، وظهرت خلاله خلافات حول تسمية القارة، ومن أهم الأسماء التي ظهرت في هذا المؤتمر هو أمريكا الجنوبية.

(٢) أوكينيو تشانج رودريج: **ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية**، ترجمة عبد الحميد الغلاب وأحمد حشاد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٩-٢٠، وميشال دوفيز، **أوروبا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر**، ١٩٨٠، ص ٢٣٥.

(٣) مصطلح اللاتينية: لو بحثنا عن اللاتينية لوجدنا أنها بدأت في اليسيوم، وهو إقليم صغير مجاور لروما، وأخذت تنمو في دوائر متحدة المركز على طول التاريخ، ضمت أولاً إيطاليا كلها ثم اتسعت بعدها للجزء من أوروبا الذي استعمرته الإمبراطورية الرومانية، لتعود فقطتصر على البلدان والمناطق التي تتحدث بلغات مشتقة من اللاتينية، ثم لتنتقل أخيراً إلى القارة الأمريكية التي كانت الحلقة الرابعة في ذلك التوسع المدهش. لمزيد من التفاصيل

من بين الدول التي حققت اكتشاف القارة الجديدة وغزوها واستعمارها كانت ثلاث دولة منها لاتينية لغوياً، وهي إسبانيا والبرتغال وفرنسا، وعليه فإن أشمل مفهوم تاريخي للإقليم يجب أن يضم كل أراضي القارة الجديدة التي سكنتها تلك القوى، المعارضة في مجموعها لأمريكا الأنغلوسكسونية المتمركزة في الشمال^(١).

ج- الكشف الجغرافية العربية للقارة الأمريكية:

بلغت الدولة العربية الإسلامية مكانة من التطور والقوة والازدهار جعلتها تمتد من أطراف الصين شرقاً إلى مشارف المحيط الأطلسي غرباً، وكانت أساطيلها تطرق أبواب فرنسا وإيطاليا، وكانوا أسياد البحار، تجول سفنهم أينما شاءت بلا خوف أو تردد، هذه السفن التي ساهمت بشكل فعال في الكشف الجغرافية الكبرى التي ساعدت على التعرف على بقاع الأرض المجهولة منها قبل المعروفة، والبعيدة قبل القريبة، ولم يكن العالم الجديد ((القارة الأمريكية)) بمنأى عنهم وعن سفنهم، بل تقفنا مصادره على أنهم وصلوا إليها قبل الأوربيين بزمن بعيد^(٢)، ومن تلك المصادر التي تحدثت عن تلك الكشف: (٣)

١- المسعودي

يتحدث المسعودي في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر عن محاولات عربية أندلسية سعت إلى عبور المحيط باتجاه الأرض الجديدة قام بها شاب عربي أندلسي في أوائل القرن التاسع الميلادي، وهذا الشاب اسمه خشاش القرطبي، وكان برفقته عدد من الفتيان الذين استقلوا مراكب للرحلة، وتوغلوا في المحيط غرباً، ثم عادوا بعد مدة بغنائم واسعة، وهذا الفتى خشاش هو الذي كان

حول هذا الموضوع انظر: مورينوسيزار فرناندث: أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد، سلسلة عالم المعرفة، قسمين، القسم الأول، العدد ١٦٦، آب ١٩٨٧، ص ١٤.

(١) أوخينيو تشانج رودريجت: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ١٤.

(٢) محمود شاكر: الكشف الجغرافية دوافعها - حقيقتها، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ص ٨٩، وأشرف صالح: حركة الكشف الجغرافية - كتاب أصول التاريخ الأوربي الحديث، دار ناشري، الكويت، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٢٣.

(٣) دونالدو مونك، أمريكا اللاتينية المعاصرة، ترجمة منيرة محمد بدوي، النشر العلمي والمطابع، الرياض، ٢٠٠٨م، ص: ٢٩.

يترأس قيادة الأسطول العربي الأندلسي الذي تصدى لغارات النورماندي على سواحل الأندلس، واستمر في حروبه مع النورمان حتى سقط شهيداً سنة ٨٥٩م.^(١)

٢- الإدريسي:

يسطر الإدريسي محاولات عربية من أجل الكشف الجغرافي للعالم الجديد، فيذكر أنه قد قام مجموعة من الشبان المغامرين، وهم أبناء عمومته من مدينة لشبونة صنعوا في القرن العاشر الميلادي مركباً بحرياً مناسباً لرحلتهم الطويلة، وأبحروا في بحر الظلمات (الأطلسي)، وكان هدفهم الأول الاكتشاف، ومعرفة ما في هذا البحر من الأخبار والعجائب، ووصلوا إلى نهاية بحر الظلمات، بعد مسيرة بحرية استغرقت حوالي الشهر، فلاحت لهم جزيرة، وعندما نزلوا فيها وجدوا عمارة وحرثاً، وأثناء وجودهم فيها تمت محاصرتهم، وفي اليوم الرابع من حصارهم قابلوا الملك، وكلموه بواسطة مترجم عربي يعيش في الجزيرة، ثم عادوا بواسطة مساعدة ملك هذه البلاد، ويذهب بعض العلماء إلى أن هؤلاء الفتية المغامرين وصلوا إلى شاطئ إحدى جزر أمريكا الجنوبية، ومن العجيب أنه كان يوجد عرب في هذه الجزيرة قبل الفتية المغامرين، وقبل كولومبوس، بدليل وجود من يترجم لهم بالعربية، ويحتمل من تصرف الملك في سجن الفتية، ووضع العصائب على أعينهم، وبعد المسافة كذلك على أنها الأرض الجديدة ((أمريكا))، كما يدل على ذلك أيضاً أن الملك كان يعرف أن جزيروته مجهولة^(٢).

٣- ابن فضل الله العمري:

يذكر العمري أن جماعة من بني برزال أبحروا في بحر الظلمات، ويرجح أنهم وصلوا إلى مكان ما في الأرض الجديدة، حملت اسم البرازيل نسبة إلى اسمهم، ويرجع بعض العلماء الفضل إلى العرب في اكتشاف البرتغال لأفريقيا، ووصول الأوربيين إلى الهند في مطلع العصور الحديثة^(٣).

(١) يسري عبد الرزاق الجوهري: **الكشوف الجغرافية**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤، ص ٥٦، وانظر: عمر

فروخ: **تاريخ العلوم عند العرب**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٤١-١٤٥.

(٢) فهمي توفيق مقل: **دور العرب والمسلمين في اكتشاف العالم الجديد**، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٦٢-٦٣.

(٣) ابن فضل الله العمري: **مسالك الإبحار في ممالك الأمصار**، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب المصرية، القاهرة،

٤- ابن عربي:

ذكر أبو بكر محمد بن عبد الله (ت ١١٤٨هـ) الذي عاش قبل كولومبوس بأكثر من ثلاثة قرون أن وراء المحيط الأطلنطي أمماً من بني آدم وعمراناً.^(١)

٥- أبو الثناء الأصفهاني:

تحدث أبو الثناء الأصفهاني (١٢٨٥م) الذي عاش قبل كولومبوس بأكثر من مئة وخمسين سنة عن وجود أرض وراء جزر الخالدات (الكناري).^(٢)

٦- ابن الوردي:

استطاع ابن الوردي في كتابه خريدة العجائب وفريدة الغرائب أن يقدم صورة وصفية للعالم الجديد، وتكاد صورة ابن الوردي تطابق صورة الواقع الحالي للقارة الأمريكية الجنوبية تطابقاً يصل إلى حد الانسجام، وقد أبدع ابن الوردي في رسم خريطة عامة للأرض، وقد كان الشيخ عبد القادر المغربي أول من تنبه إلى وصف ابن الوردي للقارة الجديدة، فقد ذكر في إحدى محاضراته أن ابن الوردي ذكر في جغرافيته أنه يوجد وراء جزر الخالدات جزائر عظيمة معمورة بخلق كثير، ويقول الوردي في كتابه هذا متحدثاً عن بحر الظلمة؛ وهو المحيط الغربي: إنه يسمى المظلم لكثرة أهواله، وصعوبة منته، وفي هذا البحر من الجزائر العامرة الخراب ما لا يعلمه إلا الله، وقد وصل (اكتشف) الناس منها سبع عشرة جزيرة، ثم سمى هذه الجزر كل واحدة باسمها، وهكذا يتضح حقاً أن جغرافية ابن الوردي وغيرها من مؤلفات الجغرافيين العرب كانت معروفة في أوربا، ولا يوجد مسوغ واحد يحول دون الاعتراف بأهميتها وفضلها في النهضة الجغرافية في أوربا التي مهدت بدورها للكشوف الأوربية في الدنيا الجديدة.^(٣)

ص: ٤١.

(١) فهمي توفيق مقبل: دور العرب والمسلمين في اكتشاف العالم الجديد، ص ٦٦.

(٢) فهمي توفيق مقبل: دور العرب والمسلمين في اكتشاف العالم الجديد، ص ٦٦.

(٣) فهمي توفيق مقبل: دور العرب والمسلمين في اكتشاف العالم الجديد، ص ٦٦ - ٦٧.

د - الكشف الجغرافية الأوروبية للقارة الأمريكية:

برزت عدة مظاهر رئيسية في عصر النهضة الأوروبية كان من أهمها قيام حركة الكشف الجغرافية الأوروبية أو ما نسميه بحركة الملاحة البحرية في بلاد أوروبا الغربية. وقد نشطت هذه الحركة ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي، ثم تطورت في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر الميلادي، وبلغت أوجها في القرن السادس عشر الميلادي^(١). وكان من أهم أسباب هذا الاندفاع الأوروبي الاستعماري في أفريقيا وآسيا والعالم الجديد التعصب الديني الذي كان سبباً رئيسياً من أسباب حركة التوسع الأوروبي خارج القارة الأوروبية.^(٢)

وكانت النزعة المادية والتعطش الشديد للربح التجاري، واستغلال المواد الخام على اختلاف أنواعها ومصادرها سبباً رئيسياً من أسباب قيام هذه الحركة التي تعد في مفهومها الأوسع حركة استعمارية أوروبية جامحة^(٣).

وتعد الاكتشافات التي حدثت في القرن الخامس عشر الميلادي من أهم النتائج العلمية للنهضة الأوروبية وأعظم مظاهرها، وأهم هذه الاكتشافات اكتشاف العالم الجديد سنة ١٤٥٣ م ، واكتشاف الطريق من أوروبا إلى الهند بحراً حول أفريقيا بعد أن تعذر عليها استعمال طريق الحرير بسبب سيطرة

(١) إريك هوبزباوم، عصر الثورة، أوروبية (١٧٨٩-١٨٤٨)، ترجمة فايز الصايغ، المنظمة العربية للترجمة، ط١، بيروت، ٢٠٠٧، ص٣٣، و جان بيرنجيه، إيف دوران، فيليب كونتامين، فرنسيس راب، موسوعة تاريخ أوروبا العام، ترجمة وجيه البعيني، الجزء الثاني (أوروبا منذ بداية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر)، منشورات عويدات، بيروت، باريس، طبعة أولى، ١٩٩٥، ص٩٨.

(2) Hugo D. BARAGELATA ،Histoire De L'Amérique Espagnole ،Avec 2 cartes dans le texte ،Librairie Armand Colin 103 ،Boulevard Saint-Michel ،Paris 1936,p25/

(٣) عبد الفتاح حسن أبو عليه، تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، دار المريخ-الرياض، ١٩٨٧. ص ١٣-١٤، جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق، بيروت، طبعة أولى، ١٩٨٣، ص: ٥٦.

العثمانيين على القسطنطينية، وهناك عوامل أدت إلى قيام حركة الاكتشافات الجغرافية منها الرغبة في الحصول على الذهب، ومصادر الغنى في دول أخرى^(١).

١- رحلة كريستوفر كولومبوس:

كان كولومبوس أشهر من توجه بسفنه نحو أمريكا، وتكررت رحلاته إليها أربع مرات، لكنه لم يتمكن من التغلغل في غاباتها، واكتشاف أنحائها وأرجائها خلال فترة عمله كمستكشف وتاجر^(٢).

ويرى الأوروبيون كريستوف كولومبوس الرحالة الإيطالي أول من اكتشف العالم الجديد، غير أن الحقيقة على خلاف ذلك؛ لأن أمريكا كانت معروفة منذ زمن بعيد، وهذا ما وضحته الباحثة الألمانية هاينكه زودهوف في كتابها ((معذرة كولومبوس، لست أول من اكتشف أمريكا))؛ إذ قالت: "معذرة يا كولومبوس، أنت لم تكن الأول، ولم تكن أمريكا تنتظر بكراً غير مكتشفة، بل عرفت شواطئها قبلك بعضاً من بحارة العالم القديم، إنها النجوم نفسها التي اهتمت بها ونفس التيارات البحرية التي استخدمتها، ونفس الرياح التي قادتك عبر الأطلسي؛ هي نقلت قبلك بزمن بعيد بحارة لم تكن سفنهم أقل شأناً في البحر من سفينتك سانتا ماريا"^(٣).

وكانت رحلة كولومبوس نتيجة طبيعية للرغبة الأوروبية العارمة الطامحة منذ القرن الخامس عشر إلى الوصول إلى الشرق الساحر المليء بالذهب والتوابل. وطمعاً بالوعد الذي قطعه كولومبوس للبلاط عن رغبته في الإبحار إلى "مناطق يستخرج الذهب من أرضها كما يستخرج الحديد دون الحاجة إلى شرائه بالمال"^(٤). وطبقاً للأسطورة الشهيرة فقد قامت الملكة إيزابيلا برهن

(١) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث (من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، الجزء الأول، ص ٢٣٤. وانظر: خليل علي مراد، جاسم محمد حسن، عبد الجبار قادر غفور، دراسات في التاريخ الأوروبي المعاصر، بغداد، ١٩٨٨.

(٢) كولومبوس: بداية الحلم أم ذروة المأساة، دراسة مركز أبحاث مجلة العربي، مجلة العربي، العدد ٤٠٠، آذار ١٩٩٢، ص ١٤٤-١٥٦، وساطع محلي: أمريكا اللاتينية، ص ٢٧-٢٨.

(٣) زودهوف، هاينكه: معذرة كولومبوس، لست أول من اكتشف أمريكا، ترجمة حسين عمران، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠١م، ص ٧، سيمون الحايك، والعرب شاركوا في الاكتشاف أو كريستوف كلمبس، لبنان، ١٩٩١م، ص: ١٢٤.

(٤) أوكينيو تشانج رودريجت، ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ٨٥. وانظر: سيمون الحايك: والعرب شاركوا في الاكتشاف أو كريستوف كلمبس، لبنان، ١٩٩١، ص ٢٥٢.

مجوهراتها، لكي تتفق على هذه الحملة الجريئة. وبعد الحصول على موافقة الملكة الإسبانية ومباركة زوجها الملك فرديناند اللذين منحاه لقب حاكم على الأراضي المكتشفة، زوداه أيضاً بثلاثة سفن صغيرة، بدأ البحار الجنوبي حملة استكشافية بحرية إلى المحيط الأطلسي انطلقت من ميناء بالوس في الثالث من آب عام ١٤٩٢ حاملاً معه تسعين ملاحاً، متوجهاً نحو الغرب قاصداً الهند دون أن يعرف أن هناك قارة لا بد من اجتيازها قبل الوصول إلى آسيا. سار كولومبوس وبعثته وسفنه في المحيط شهرين وتسعة أيام ولاقى الجميع فيها الأمرين قبل أن يصل إلى الأرض، تلك الأرض التي تعرف بجزر الباهاما التي أطلق عليها اسم سان سلفادور^(١)، معتقداً أنه وصل جزر الهند الشرقية (جزر الأرخبيل الياباني على شاطئ آسيا الشرقية)^(٢)، ومع أنه لم يجد أثراً للتوابل. ومن الباهاما توجه إلى شاطئ كوبا الشمالية وجزيرة هاييتي التي أسماها بإسبانيا الصغيرة. ثم عاد في آذار ١٤٩٣ إلى إسبانيا يحمل معه نماذج من النباتات غير المعروفة في أوروبا كالبطاطا والتبغ والذرة والقطن إضافة إلى كميات من الفضة والذهب اللذين جاء من أجلهما، كما حمل معه مجموعة من السكان الأصليين^(٣).

وقام كولومبوس برحلته الثانية في ٢٥ أيلول ١٤٩٤، وفي هذه الرحلة اصطحب معه من إسبانيا كثيراً من الرجال والحيوانات المختلفة والبذور رغبة منه في تأسيس أول مستعمرة إسبانية في جزيرة هاييتي. وقد اتخذت هذه الرحلة طريقاً يقع إلى الجنوب من طريق الرحلة الأولى؛ إذ اكتشف جزر الدومينيكا وعدداً كبيراً من الجزر الأخرى مثل سانتا كروز^(٤)، و سانتا أورسولا، و لا

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليه: تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٧، ص ١٢.

(٢) محمد محمد الخطابي: وصول كولومبوس إلى العالم الجديد تصادف مع سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام في إسبانيا، جريدة الشرق الأوسط، العدد: ٤٩١٥، ١٣ أيار، ١٩٩٢، ص ٥٢، وساطع محلي: أمريكا اللاتينية، ص ٢٩.

(٣) محمد مخزوم: مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٨٣، ص ٩١.

(٤) وتمكن كابرال من استكشاف أحد السواحل في هذه المنطقة لحساب بلاط لشبونة، وأسماء ساحل الصليب المقدس "سانتا كروز". وكانت هذه المنطقة هي التي تزود العالم بخشب الموجونو. وتحولت سانتا كروز فيما بعد إلى البرازيل واكتشف فيها أحد الغزاة في شهر كانون الثاني ١٥٣١ خليجاً جميلاً. انظر: روز براون، البرازيل شعبها وأرضها، ترجمة محمد عيد الفتاح إبراهيم، مراجعة عز الدين فريد، مؤسسة فرانكلين للطباعة

ريدوندا، وسانتا ماريا، كما مر على جزيرة بورتيريكو، وعندما وصل إلى إسبانيولا (جزيرة هاييتي) قام بتأسيس بلدة إيزابيلا بمساعدة ١٣١٠ من الإسبان. وتعد هذه المدينة أولى المدن التي شيدت في العالم الجديد^(١).

وبعد ذلك أبحر إلى الساحل الجنوبي ومن ثم إلى جامايكا حيث اكتشف ساحلها الشمالي ثم عاد ثانياً لإتمام اكتشاف بقية الساحل الجنوبي لكوبا وللتأكد من أنها جزء من القارة الآسيوية؛ وتبع ذلك ذهابه إلى مدينة إيزابيلا ثم رحيله إلى إسبانيا، بعد أن عين أخاه بارتلومي كولومبوس حاكماً على المستعمرات الجديدة، حاملاً معه كميات من الذهب، وبعض أنواع الطيور والفاكهة والنباتات الجديدة التي على رأسها الذرة، كما حمل معه عدداً كبيراً من السكان الأصليين للبلاد بعد أن حولهم إلى عبيد. وبعد غياب دام قرابة ثلاث سنوات وصل كولومبوس أخيراً إلى إسبانيا وحط رحاله في ميناء قادش في ١١ حزيران من عام ١٤٩٥^(٢).

وبعد ثلاث سنوات قام كولومبوس بتجهيز أسطوله لرحلة جديدة، وفي ٣٠ أيار ١٤٩٨ غادر كولومبوس ميناء قادش مع ستة مراكب، وأكثر من ٦٠٠ بحار. وفي هذه الرحلة اتجه إلى الرأس الأخضر بغية متابعة سيره غرباً. وبعد سنتين من الإبحار وصل إلى جزيرة ترينيداد وعند مغادرته هذه الجزيرة وفي طريق عودته على طول ساحل فنزويلا شاهد كميات هائلة من المياه تتدفق من خليج أورنيوكيو فكتب إلى الملك الإسباني يقول: "بأنه مقتنع بأن هذه الأرض كبيرة جداً تشبه في اتساعها قارة جديدة"^(٣)، وخلال هذه الفترة نجحت جهود الحاقدين عليه في البلاط الإسباني في تصويره بمظهر المكتشف الأفاق الذي أضاع أموال إسبانيا في رحلات لم تستفد منها الدولة إلا قليلاً، ولم تتوصل بعد إلى مركز تجارة التوابل التي يحلم بها الجميع. وكان من جراء ذلك أن وجهت له تهمة خيانة البلاط الإسباني وتم استدعاءه إلى سانتو دومينغو ليحقق معه مع ثلاثة من إخوته القاضي فرانسيسكو بوديديا ممثل الملك الإسباني، و تم إرساله وإخوته مكبلين بالأغلال

والنشر، القاهرة، نيويورك، ١٩٦٩، ص ٦٩.

(1) Hugo D. BARAGELATA ،Op. Cit ،p 22.

وانظر أيضاً: أوخينيو تشانج رودريجت: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ٨٥.

(2) Hugo D. BARAGELATA ،Op. Cit ،p 22-25

(3) Ibid. ،p 29.

إلى إسبانيا حيث بقي أكثر من ١٨ شهراً يدافع عن رحلاته وكشوفه، وأخيراً صدر العفو عنه، وتم تعيينه نائباً للملك في المستعمرات الجديدة^(١).

وفي رحلته الرابعة والأخيرة انطلق كولومبوس يرافقه ١٤٠ بحاراً على متن ثلاث سفن كبيرة ورابعة أصغر حجماً في ١١ أيار ١٥٠٢ من ميناء قادش الإسباني. واستمرت رحلته الأخيرة ما يقارب السنتين والشهرين شهد خلالها مصاعب كبيرة، وفقد خلالها سفينتين من أسطوله، وعدداً كبيراً من الرجال، وعاد أخيراً إلى إسبانيا في ٧ تشرين الثاني ١٥٠٤ دون أن تسفر رحلته عن كشف عظيمة سوى التوصل إلى معرفة ساحل أمريكا الوسطى^(٢).

ولابد من الإشارة إلى أن كولومبوس الذي كرم في حياته ومنح الكثير من التقدير توفي فقيراً معوزاً في ٢٠ أيار من عام ١٥٠٦ في بلد الوليد بإسبانيا، ولم يعرف أن الأراضي التي اكتشفها تنسب إلى نصف الكرة الغربي التي كانت في ذلك الوقت مجهولة بالنسبة لمعاصريه الأوروبيين^(٣). وقد نتج عن رحلات كولومبوس عدة نتائج من أبرزها:

- ◆ أثارت رحلاته موجة عارمة من روح المغامرة البحرية إلى حد كبير لدى البحارة البرتغاليين الذين داروا حول القارة الإفريقية، ووصلوا إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، ولدى غيرهم من الأوروبيين.
- ◆ بدا الملوك الكاثوليك يثبتون استعمارهم وملكيتهم على الأراضي المكتشفة جديداً.
- ◆ شجعت الإسبان أنفسهم على الاستمرار في عمليات الكشف الاستعماري والتوغل في القارة الجديدة في الجزء الجنوبي منها^(٤).

(١) Ibid. p. 27-29.

(٢) Ibid. p 32-35.

(٣) أوخينيو تشانج رودريجت: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ٨٦.

(٤) عبد الفتاح حسن أبو عليه: تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، ص ١٣.

٢- رحلة البحارة كابرال بيدرو ألفاريز ^(١) :

أبحر كابرال بأسطوله المكون من ١٣ سفينة من بيليم قرب لشبونة في التاسع من آذار ١٥٠٠م واتجه نحو الهند، وخطط لاتباع المسار الذي أبحر صوبه فاسكو دا جاما. وقد أبحر الأسطول في اتجاه الجنوب الغربي، ومرّ بجزر الكناري والرأس الأخضر. وأمل البحارة في هبوب رياح تحملهم حول رأس الرجاء الصالح في أقصى نقطة جنوبي القارة الإفريقية، ولكن قائد الرحلة أراد تجنب خليج غانا فحاد الأسطول عن مساره وانحرف نحو الجنوب الغربي ^(٢).

وفي الثاني والعشرين من نيسان، رأى البحارة ما يُعرف اليوم بالجنوب الشرقي من البرازيل. وقد أعلن كابرال المنطقة ممتلكات برتغالية. وتقع الأرض ضمن الأملاك البرتغالية كما حددتها معاهدة توردي-سيلاس عام ١٤٩٤م. فقد كابرال واحدة من السفن، وعادت سفينة أخرى إلى البرتغال لتتقل الأنباء عن رسو السفن. وبقيت السفن الأخرى في البرازيل لمدة ثمانية أيام ثم تابعت الرحلة إلى الهند.

وفي الرابع والعشرين من أيار، هبّت عاصفة وفرقت الأسطول. وفقدت أربع سفن، ولكن إحداها وصلت مدغشقر. أما السفن الست الأخرى فقد تلاقت في الموزمبيق، وتابعت إبحارها بمحاذاة الشاطئ الإفريقي شمالاً، واجتاز الأسطول المحيط الهندي ووصل إلى كلكتا بالهند في ١٣ أيلول، وهناك قُتل عدد من بحارته في معركة مع مجموعة من التجار العرب. ثم أبحر أسطول كابرال إلى مدينتي كوشين وکانانور في الهند حيث حملت السفن بالبهارات.

(١) كابرال بيدرو ألفاريز (1528 – 1467 م): رحالة برتغالي وُلدَ بالقرب من كُوفيلها في البرتغال، وتلقى تعليمه في البلاط الملكي وأصبح عضواً في مجلس الملك. وقد عينه الملك عمانوئيل الأول عام ١٤٩٩م قائداً للأسطول لمتابعة العمل الذي بدأه المكتشف البرتغالي فاسكو دا جاما. أبحر إلى البرازيل عام 1500 م، وأعلنها مملكة من الممتلكات البرتغالية. وقد ساعدت رحلته إلى البرتغال على إقامة إمبراطورية ضخمة خارج حدودها في القرن السادس عشر الميلادي. انظر: جورج أطلس: تاريخ البرازيل، ترجمة جورج أطلس، سان باولو البرازيل، ١٩١٧، ص ١٢٤.

(٢) عمر عبد العزيز عمر: دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية

وعاد الأسطول إلى لشبونة في ٢٣ تموز عام ١٥٠١م. وقد نظر الملك عمانويل الأول في تعيين كابرال قائداً لرحلة كشفية أخرى إلى الهند، ولكنه اختار دا جاما بدلاً منه. وقد تقاعد كابرال بعد ذلك من الخدمة في البلاط الملكي.

بعد أن استطاع كابرال الوصول إلى شواطئ البرازيل، قرر الملك البرتغالي عمانويل الأول إرسال حملات كشفية إلى هذه البلاد الجديدة، ووقع اختياره على الرحالة أمريكيو فيسبوتشي^(١).

وجلب كولومبوس منتجات التبغ والأناناس والأراجيح من جزر هايتي وكوبا. وكان هذا شيئاً جديداً بالنسبة إلى الأوروبيين.

(١)فرانكلين أشر، موجز تاريخ الولايات المتحدة، ترجمة مهيبة المالكي، دار الثقافة، بيروت، ص ٥٦، وانظر: عمر عبد العزيز عمر: دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٢، ص ٨٨-٨٩.

٣- رحلة البحارة الفلورنسي أمريكو فيسبوتشي^(١):

وفي سنة ١٤٩٩ رافق مغامر فلورنسي اسمه أميريكو فسبوتشي إحدى الرحلات الإسبانية اللاحقة إلى الأراضي التي اكتشفها كولومبوس، وأعلن للعالم أن ما وصل إليه كولومبوس عالم جديد يقع بين قارة أوروبا وبلاد البهار في الشرق، وقام هذا البحارة بعدة رحلات نحو الغرب ما بين عامي ١٤٩٧-١٥٠٢، وسلك خلال رحلته طريقاً سار فيها بمحاذاة الشاطئ الشرقي لأمريكا الجنوبية دون أن يصل إلى نهايته^(٢). وتنتج كتابات فيسبوتشي المطولة والتفصيلية تكوين فكرة قريبة عن الطريق الذي اتبعه، فبعد خروجهم من الرأس الأخضر، في أفريقيا أبحروا في عرض البحر ما يزيد عن الشهرين محاطين بالعواصف في الأيام الأربع والأربعين الأخيرة، ووصلوا إلى

(١) أمريكو فيسبوتشي: ولد فسبوتشي في فلورنسا ودرس الملاحة في شبابه. وقضى أعوامه الأولى في خدمة شركة لورنزو دي بيبير فرانسيسكو دي ميدتشى المصرفية في فلورنسا، ثم رحل في عام ١٤٩١م إلى إشبيلية، وهناك التحق بشركة متخصصة في تجهيز السفن للرحلات الطويلة. وادعى فسبوتشي أنه قام بأربع رحلات إلى العالم الجديد. وبعد الرحلة التي ادعى أنها رحلته الأولى صرح بأنه شاهد قارة شاسعة (أمريكا الجنوبية). شارك فسبوتشي في عامي ١٤٩٩ و ١٥٠٠م في حملة قادها المكتشف الونسو دي أوجيدا. أبحرت سفينة فسبوتشي، خلال هذه الرحلة على امتداد ساحل فنزويلا. وعاد فسبوتشي للإبحار في عامي ١٥٠١ و ١٥٠٢م، ومرة أخرى في عامي ١٥٠٣ و ١٥٠٤م، وكان في كل هذه المرات مع أسطول الكابتن البرتغالي جويكالو كولهو. واكتشفت هاتان الحملتان ساحل البرازيل الجنوبي. وترجع شهرة فسبوتشي بدرجة كبيرة إلى خطاب كان كتبه إلى لورنزو دي بيبير فرانسيسكو دي ميدتشى في عام ١٥٠٢ أو ١٥٠٣م أخبر فسبوتشي لورنزو في هذا الخطاب عن اكتشافه لقارة جديدة، وضمن خطابه وصفاً مفصلاً بالحيوية للأرض الجديدة وسكانها. ونشر الخطاب في عام ١٥٠٣ أو ١٥٠٤م تحت عنوان العالم الجديد. اكتسب الخطاب شهرة واسعة، وأعيد نشره في عدة طبعات، وترجم إلى عدة لغات. ورسخ الخطاب مكانة فسبوتشي باعتباره مكتشفاً مشهوراً. وحصل فسبوتشي على الجنسية الإسبانية في عام ١٥٠٥م، والتحق بوكالة حكومية تعنى بالروابط التجارية مع العالم الجديد، وشغل منصب كبير الملاحين في هذه الوكالة من عام 1508م وحتى وفاته، مناقشة دعوى اكتشاف أمريكا. ما إن مات فسبوتشي حتى احتدم الجدل بين الدارسين حول صحة ادعائه باكتشافه للعالم الجديد؛ لأنه لم يقدم الحجج والبراهين الكافية والدامغة لدعم تقريره الذي ادعى فيه أنه قام برحلة في عام 1497م. وادعى فسبوتشي أنه قاد كل الحملات، ولكنه في حقيقة الأمر لم يكن سوى ملاح أو قائد لإحدى السفن. ومع مرور الوقت أصبح كريستوفر كولومبس معروفاً بأنه هو المكتشف الأوروبي للعالم الجديد. انظر: حسام الناييف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ٧٠.

(٢) ساطع محلي: أمريكا اللاتينية، ص ٣٠.

الشواطئ الأطلسية قريباً من مدينة ريسيبي الحالية في البرازيل، وبعد إقامة قصيرة هناك عادوا إلى البحر ثانية، ووصلوا أخيراً إلى قطب انتصاف النهار^(١). وتأتي أهمية الرحلات التي قام بها هذا البحارة بنشره بعد عودته نبأ رحلاته بالكتابة عنها وعن الأشياء التي وجدها أثناء هذه الرحلات، فقد أعلن أن البلاد التي وصل إليها هي بلاد جديدة ليست الصين أو اليابان أو الهند، وإنما هي أرض جديدة مختلفة عنها^(٢). وقد بعث إلى إسبانية برسالة في ١٠ آذار ١٥٠٣ م يبشر بوجوده أمام قارة جديدة^(٣) غير القارة الآسيوية^(٤). واستند في إعلانه على ملاحظته أبراج النجوم المجهولة، وانقلاب الفصول في القطب الجنوبي؛ إذ يسود الشتاء خلال أشهر الصيف الأوروبي^(٥).

ونشر في عام ١٥٠٤ التقرير الذي وضعه أمريكو عن البر الجديد في سان دييغو في الفوج، فبدأ اهتمام الأوروبيين بالبلاد الجديدة، وطلب أمير اللورين ريني الثاني مشجع الجغرافيين في ذلك الزمان من عالم الجغرافية والرياضيات الألماني والدمولار بأن يضع خريطة مناسبة عن العالم الجديد لتضم إلى تقرير أمريكو مقترحاً تسمية البر الجديد فيها بأمريكا نسبة إلى أمريكو أول المتحدثين عنه^(٦). وهكذا أطلق الجغرافيون وواضعو الخرائط اسم أمريكو فيسبوتشي على القارة المكتشفة، وصارت منذ ذلك الوقت تسمى بأمريكا نسبة إليه^(٧).

(١) لاوريت سيجورنه: أمريكا اللاتينية الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية، ترجمة صالح علماني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٢٦.

(٢) عبد الفتاح حسن أبو عليه، تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، ص ١٣.

(٣) لقد تنبأ الفلكي الإيطالي بطرس مارتور برسالة بعث بها إلى الكاردينال أسكانيوس سفورزا في الأول من تشرين الثاني ١٤٩٣، بأن كولومبس قد اكتشف عالماً جديداً لا عالم معروف وشاطئ آسيوي لبر قديم. انظر: ساطع محلي: أمريكا اللاتينية، ص ٣٠.

(٤) ساطع محلي: أمريكا اللاتينية، ص ٣٠.

(٥) لاوريت سيجورنه: أمريكا اللاتينية الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية، ص ٢٥.

(٦) ساطع محلي: أمريكا اللاتينية، ص ٣٠.

(٧) عبد الفتاح حسن أبو عليه، تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، ص ١٣.

٤- رحلة فايكنغي ليف أريكسون:

يمكن القول: إن كولومبوس ما كان أول أوروبي يكتشف أمريكا، ولكن هناك أدلة على أن فايكنغي ليف أريكسون قام بذلك في عام ٩٠٠ م؛ أي ٥٠٠ سنة قبل كولومبوس.

٥- ماجلان^(١) وأول دوران حول العالم:

حفلت حركة الكشوف الجغرافية الإسبانية في عهد شارل الأول، خليفة فرديناند وملك إسبانيا والإمبراطورية الجرمانية المقدسة، بتنفيذ أعظم مشروع جغرافي. وهو الدوران حول العالم بالانطلاق من نقطة في اتجاه واحد والوصول إليها. ويقتزن هذا المشروع باسم ماجلان الذي رأى أنه يستطيع الوصول إلى جزر التوابل في الهند الشرقية عن طريق الغرب بالطواف حول الطرف الجنوبي لأمريكا؛ لأن كشفه لجزر جديدة على هذا الطريق سيجعل البرتغال في الوقت نفسه

(١) فرديناند ماجلان (١٤٨٠ - ١٥٢١م): قبطان برتغالي، قاد أول حملة قامت بالإبحار حول العالم. كانت رحلته أول برهان عملي على كروية الأرض. والواقع أن ماجلان لم يعيش حتى يكمل رحلته، ولكن تخطيطه المبدع وقيادته الشجاعة جعلتا إكمال تلك الرحلة أمراً ممكناً، ويعد كثير من العلماء تلك الرحلة من أفضل الأعمال الملاحية في التاريخ. ولد ماجلان في شمالي البرتغال عام ١٤٨٠م تقريباً. عمل في البلاط الملكي وصيفاً للملكة ليونور وعمره حينئذ اثنا عشر عاماً. وفي البلاط الملكي سمع ماجلان عن رحلات أولئك المكتشفين مثل كريستوفر كولومبوس الإيطالي، وفاسكو داجاما البرتغالي. كانت أولى رحلاته في البحر عام ١٥٠٥م عندما أبحر إلى الهند مع أسطول فرانسيسكو دي ألميدا نائب ملك البرتغال على تلك البلاد. في عام ١٥٠٩م أبحر ماجلان مع أسطول برتغالي إلى ملقا. وفي عام ١٥١١م شارك في حملة قامت باحتلال ملقا، ومن ثم عاد إلى البرتغال عام ١٥١٣م، ومن هناك اشترك في حملة عسكرية ضد المغرب. وبعد أن عاد إلى البرتغال من المغرب، التمس المساعدة من الملك مانويل الأول للقيام برحلة إلى جزر التوابل، ولكن مانويل كان يكرهه فرفض مساندته للقيام بتلك الرحلة. وبعد ذلك درس ماجلان علم الفلك والملاحة لمدة عامين تقريباً في مدينة بورتو الواقعة في شمالي البرتغال. وقد استخلص ماجلان من دراساته تلك أن جزر التوابل تقع في أراضٍ مُنحت لأسبانيا عام ١٤٩٤م. ولهذا السبب قرر ماجلان أن يلتزم المساعدة من ملك إسبانيا لدعم خطته. وفي عام ١٥١٧م سافر ماجلان إلى إسبانيا، وهناك قدّم اقتراحه بزيارة جزر التوابل جزءاً من عملية إبحار حول الأرض من ناحية الغرب. هذا وقد وعد الملك أن يعطي ماجلان خمس الأرباح التي سيجنيها من تلك الرحلة، بالإضافة إلى مرتب يصرف له. انظر: حسام الناييف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢ - ١٩٤٥)، ص: ٧٢.

تتخلى عن ادعائها في ملكية هذه الجزر؛ لأنها تقع فعلاً إلى الغرب من الخط الوهمي الذي حدده مرسوم البابا^(١).

في عام ١٥١٩، أبحر البرتغالي فيرناندو ماجلان للعثور على الطريق البحري للوصول إلى جنوب آسيا، وحصل على دعم من الملك الإسباني؛ لأن الملك البرتغالي لم يرغب في دعم مشروع ماجلان المجنون، و في ذلك الوقت كان البرتغاليون يسيطرون على الطريق البحري في جميع أنحاء أفريقيا؛ لذلك تم إغراء الملك الإسباني من قبل ماجلان حيث قدم له عرضاً بالعثور على طريق بديل عبر جنوب أمريكا. الأمر يتعلق بكسب المال بواسطة التوابل وغيرها من السلع الآسيوية، كالقرفة، والفلفل، والثوم.

وبعد أن فشل ماجلان في إقناع ملك البرتغال بمشروعه توجه إلى الملك الإسباني شارل الأول، ورحب الملك الإسباني بهذا المشروع، وفي ٢٢ آذار ١٥١٨ وقّع شارل الأول العقد المبرم بين التاج الإسباني من جهة وبين ماجلان من ناحية أخرى. وكان من بين النقاط التي تم الاتفاق عليها إعطاء ماجلان حق الاستيلاء على جزء من عشرين من دخل البلدان التي يكتشفها وجزيرتين إذا تجاوز عدد الجزر المكتشفة ستاً^(٢).

وأقلعت حملة ماجلان المؤلفة من خمس سفن من ميناء سان لوكار، واتجهت في المحيط الأطلسي جنوباً ثم عرجت في اتجاه الجنوب الغربي وصولاً إلى شاطئ البرازيل عند ريو دي جانيرو ثم إلى مصب نهر لابلاتا ثم دار حول أمريكا الجنوبية، ووصل إلى خط عرض ٥٢ درجة جنوباً. فاكتشف ممراً مائياً عميقاً محصوراً بين جبلين أطلق عليه فيما بعد اسم مضيق ماجلان^(٣).

وفي عام ١٥٢٠ دخلت السفن محيطاً كبيراً أطلق عليه ماجلان اسم المحيط الهادئ (الباسيفيكي)؛ لأنه قليل الأعاصير. ووصلت بعدها السفن إلى جزر ماريانا والفيليبين (نسبة

(١) محمد مخزوم: مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨٣، ص ٩٣.

(٢) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص ٩٣-٩٤.

(٣) مضيق ماجلان: هو المضيق الواصل بين المحيطين الأطلسي والهادئ في أقصى جنوب القارة الأمريكية، أطلق عليه ماجلان عندما اكتشفه عام ١٥٢٠ اسم "مضيق جميع القديسين"، ولكن المضيق عرف فيما بعد باسم مكتشفه. انظر: لاوريت سيجورنه: أمريكا اللاتينية الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية، هامش ص ٢٨.

إلى الملك فيليب الثاني ولي عهد إسبانيا) التي اعتقد ماجلان خطأ بأنها جزر التوابل^(١). وفي الفلبين اشتبك ماجلان مع الأهالي وقتل في الاشتباكات، و في تلك الفترة انتشرت أمراض وأوبئة كثيرة أودت بحياة الكثير من الطاقم الأصلي مما اضطر البقية إلى مغادرة السفينة، وعلى طول الطريق إلى المحيط الهندي، وفي نهاية المطاف فقدت أربع سفن بينما نجت سفينة واحدة فقط في الحملة، وهي فيكتوريا التي عادت إلى إسبانيا. وكان ذلك عام ١٥٢٢.

ولكن أحد رجاله المسمى **ديانكو** ترأس البحارة، وسار بهم باتجاه رأس الرجاء الصالح، وعبره وسار في المحيط الأطلسي حتى وصل إلى إسبانيا في المكان الذي خرجت منه الرحلة في أيلول ١٥٢٢. وكان من أهم نتائج هذه الرحلة:

- ◆ أثبتت رحلة ماجلان كروية الأرض؛ لأنه دار حول الكرة الأرضية في ثلاث سنوات.
- ◆ هدمت جميع النظريات الخاطئة والإشاعات والخرافات القائلة عن حجم الأرض وشكلها.
- ◆ برهنت على أن الأرض أكبر بكثير مما كان يعتقد كولومبوس وغيره من الرحالة.
- ◆ نبهت إلى أن هناك قارة بين أوروبا وآسيا، وأن هناك محيطاً مترامي الأطراف لم يكن معروفاً من قبل.
- ◆ عرفت حدود العالم الجديد من جنوبه إلى شماله.
- ◆ شجعت الكثير من الرحالة على القيام برحلات استكشافية جديدة^(٢).

٦- الملاح الإيطالي كابوت .

قام كابوت مع أبناءه الثلاثة بمهمة الكشف الجغرافي، فقد انطلق كابوت من بريستول في ٢ أيار ١٤٩٧، ووصل إلى **نيوفاندلاند** ثم عاد إلى بريستول في آب من العام نفسه. وفي عام ١٤٩٨ أبحر كابوت ثانية من بريستول إلى أيسلندا، ثم إلى غرينلاند، ومنها إلى الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية، ووصل إلى نيوانجلند جنوباً. وفي عام ١٥٠٩ قام ابنه **سبستيان** برحلة إلى سواحل لابرادور، وعثر على مدخل خليج هدسون، ووصل إلى خط عرض ٦٧ شمالاً.

(١) محمد مخزوم: مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، ص ٩٣-٩٤.

(٢) عبد الفتاح حسن أبو عليه: تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، ص ١٥.

٧- رحلات هوكنز إلى البرازيل.

وفي عام ١٥٣٠ أبحر هوكنز إلى ساحل غينيا من أجل الذهب والرقيق. وفي عام ١٥٧٨ منحت الملكة إليزابيث السير جليبرت امتيازاً تضمن احتلال جميع الأراضي البعيدة الوثنية التي لا يملكها مسيحي. وبدأ رحلته عام ١٥٨٣ باتجاه الغرب، ووصل إلى نيوفاندلاند وبدأ باستعمارها، لكنه غرق في طريق العودة.

٨- رحلة السير رالي:

منحت الملكة إليزابيث في عام ١٥٨٤ السير رالي امتيازاً باستكشاف واستيطان المنطقة الساحلية الممتدة من نهر سانت لورانس شمالاً إلى فلوريدا جنوباً. فأرسل بين عامي ١٥٨٤-١٥٨٦ خمس رحلات إلى العالم الجديد انتهت بإقامة مستعمرة على جزيرة رونوك بفرجينيا، لكنها لم تستمر طويلاً بسبب صعوبة وصول الإمدادات ومقاومة الهنود الحمر للمستعمرين الأوروبيين.

٩- البحار الفرنسي جاك كارتية

ويعود السبق الأول في مضمار الكشف الجغرافي إلى البحار الفرنسي جاك كارتية الذي عهد له الملك فرانسوا الأول بالقيام برحلة كشفية يعبر فيها المحيط الأطلسي في اتجاه الغرب نحو العالم الجديد. وقد وصل كارتية جزيرة نيوفاندلاند المقابلة لكندا، واستطاع كشف مصب نهر سانت لورانس عام ١٥٣٤م، والتوغل داخل الأراضي الأمريكية الشمالية، فوصل إلى مونتريال وكوبيك الحاليين، وزار مستوطنة الهنود الحمر في ستاداكونا "Stadacona". ولقد بلغت رحلات كارتية في هذه المناطق أربع رحلات كشفية^(١).

١٠- رحلة دي لا سال :

في سنة ١٦٨٢ نجح دي لا سال "De la Sall" في كشف نهر الميسيسيبي، ثم خليج المكسيك. ونشأت هناك مستعمرة لويزيانا الفرنسية نسبة إلى الملك لويس الرابع عشر. وأسسوا في سنة ١٧١٨ مدينة نيو أورليانز. وهكذا احتل الفرنسيون كندا، وحوض الميسيسيبي، ومنطقة سانت لورانس. إلا أن فرنسا ظلت في هذه المناطق ضعيفة أمام النفوذ الإنجليزي؛ لأنها استعمرت أراضي

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليه: تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، ص ٢٤.

واسعة، ولم ترسل لها أيدي فرنسية كثيرة، ولم تستطع وضع جيش قوي في هذه المناطق للمحافظة عليها من الداخل ومن حركة التنافس الأوروبي.

٦- رحلة الدنماركي بيرينغ:

كلّف البحار الدانيماركي بيرينغ في عهد بطرس الأكبر بالتحقق من صدق ما يشاع عن وجود ممر بحري يفصل بين روسيا وأمريكا الشمالية، وقد نجح بيرينغ في اكتشاف الممر وسمي باسمه.

الفصل الأول

إلياس الموصلي

ورحلته الذهب والعاصفة

أولاً: الرحالة إلياس الموصلي.

ثانياً: وصف مطبوعة الرحلة.

ثالثاً: مسار الرحلة.

رابعاً: أسباب الرحلة.

خامساً: أهداف الرحلة.

سادساً: أهمية الرحلة.

سابعاً: الجوانب التاريخية لرحلة الذهب والعاصفة.

٤ - الأحداث التاريخية قبل الرحلة إلى القارة الأمريكية.

٥ - الأحداث التاريخية في القارة الأمريكية.

٦ - الدول الأوربية المتنافسة في القارة الأمريكية وممارساتها.

أولاً: الرحالة إلياس الموصلي.

١ - حياته:

جميع المعلومات التي وصلت إلينا عن الموصلي ورحلته كان مصدرها الأساسي والوحيد هو المستشرق الروسي كراتشكوفسكي الذي بذل جهداً طيباً مشكوراً بالتعريف بالموصلي ورحلته، وإن كانت معلوماته غير كافية لا تقدم تصوراً واضحاً عن السيرة الذاتية للموصلي، ولا تشبع فضول القارئ الساعي لمعرفة شخصيته.^(١)

هو الرحالة إلياس حنا الموصلي الكلداني، ويعود نسبه إلى أسرة عمودة حسب ما ذكر أنطوان رباط^(٢)، أو إلى أسرة عمون حسب ما ذكر كراتشكوفسكي، ولم نقف على أي معلومات أخرى عن الرجل سواء عن تاريخ ميلاده، أم أبيه، أم أمه، أم أخوته، أم تعليمه، أم المدارس التي تعلم فيها، أم وفاته، أم مكان دفنه، وإن رجح كراتشكوفسكي أنه مات ودفن في روما، فهذه المعلومات تكاد تكون واحدة عند كل من كتب عن الموصلي^(٣).

وذكر الموصلي خلال رحلته أن له أخاً اسمه يونان درس في روما، وبعد أن أكمل دراسته عاد إلى حلب سنة ١٦٧٠^(٤).

ويذكر كراتشكوفسكي أن للموصلي أخوة أدوا أدواراً مهمة في الحياة الدينية والاجتماعية في مدينتي حلب والموصل دون أن يذكر المصدر الذي استقى منه معلوماته هذه. ويرى أن هذه الأسرة قدمت للحياة الروحية الدينية عدداً من البطارقة النساطرة، وكان لهذا البيت ارتباط وثيق مع الفاتيكان منذ سنة ١٥٥٣، كما تمتعت هذه العائلة بروابط قوية مع مختلف الطوائف الدينية المسيحية في الشرق والغرب.^(٥)

(١) أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكو فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، القسم الثاني، ص: ٧٠١ - ٧٠٢.

(٢) الذهب والعاصفة: ١٦.

(٣) أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكو فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، القسم الثاني، ص: ٧٠٢.

(٤) الذهب والعاصفة: ٤١.

(٥) أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكو فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٧٠٢.

٢- مناصبه وألقابه:

حمل الموصللي جملة من الألقاب التي قدمت له من قبل أشخاص ذوي شأن في ذلك الوقت، ومن هذه الألقاب: بروتونو تاريو رسولي، وحامل صليب ما بطرس، وكونت بالاتينو، وكاهن كنيسة ملك إسبانيا، ومشرف كنيسة بغداد الكاثوليكية الذي منحته إياه الملكة^(١).

٣- علاقاته:

تمتع الموصللي بعلاقات دينية ودنيوية مع عدد كبير من الشخصيات المهمة في زمنه في روما، وباريس، ومدريد، ولشبونة، وبغداد، وأمريكا، فقد استقبل من قبل ملك فرنسا لويس الرابع عشر، وأخيه أورليانوس، وأم كارلوس الثاني ملك البرتغال الملقبة بحنة النمساوية، والتقى ملكة إسبانيا أكثر من مرة، والبابا إنوسنت الحادي عشر، وقدم له الموصللي هدية أحضرها معه من أمريكا. وهذا يدل على أن الرجل أقام علاقاته مع رجال السلطة كالحكام والوزراء والمشرفين على إدارة المستعمرات، أو رجال الدين الذين كانوا يعملون رؤساء لديوان التفنيش الكاثوليكي الإسباني^(٢). ونص الموصللي في رحلته على أنه ما كان ينزل أثناء ترحاله إلا ضيفاً على رؤساء محاكم التحقيق، وحكام النواحي والأساقفة. ولم يذكر أبداً أنه نزل ضيفاً على أحد السكان المحليين، أو أنه بنى علاقات صداقة مع أحدهم^(٣).

وذكر الرحالة الإيطالي فنشيسو مارية دي سانتا كاترينا سيينا في كتابه (رحلة إلى الهند الشرقية) أنه التقى بالموصللي أثناء رحلته إلى العراق في النصف الثاني من القرن السابع عشر سنة ١٦٥٦، وأن الموصللي كان يرغب بالترحال إلى روما. ^(٤)

(١) استقيت هذه الألقاب من رحلة الموصللي.

(٢) الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ١٨.

(٣) الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ١٩.

(٤) الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ١٨-١٩.

ثانياً: وَصْفُ مَطْبُوعَةِ الرَّحْلَةِ.

جاءت الرحلة تحت عنوان ((صياحت الخوري إلياس الموصلي)) هذا هو عنوان الرحلة الأصلي الذي وجد في مكتبة مطرانية السريان بحلب، ولا يعرف السبب الذي كان وراء إحضار هذه الرحلة إلى حلب^(١)، وللرحلة نسخة وحيدة يتيمة موجودة في حلب، ونقلت عنها نسخة أخرى موجودة في بيروت. وللرحلة أربع نشرات:

الأولى كانت على يد الأب أنطوان رباط اليسوعي، وحملت عنوان " رحلة أول سائح شرقي إلى أمريكا" ، ونشرها في البداية في مجلة المشرق في الاعداد ١٨ - ٢٤ ببيروت سنة ١٩٠٥. ثم أعاد نشر الرحلة مرة أخرى في كتاب سماه بـ " رحلة أول شرقي إلى أمركة، وطبع في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٠٦^(٢).

والثانية من قبل الباحثة العراقية ابتهاج عمر الراضي بعنوان : رحلة المواطن العراقي إلياس يوحنا الموصلي، أول سائح عربي يصل الأمريكيتين، ونشرته في مجلة المورد ، العدد ٢، بغداد، سنة ١٩٧٥^(٣).

والثالثة من قبل سامي سعيد الأحمد ، وكانت باللغة الإنكليزية ، وحملت عنوان " رحلات الكاردينال العراقي إلياس يوحنا إلى الأمريكيتين، وطبعها في بغداد سنة ١٩٨٢^(٤).

والرابعة للباحث العراقي نوري الجراح، وحملت عنوان " الذهب والعاصفة رحلة إلياس الموصلي إلى أميركا، أو رحلة شرقية إلى العالم الجديد ١٦٦٨ - ١٦٨٣، صدرت عن دار السويدي ، بغداد ، سنة ٢٠٠١. وهي موضوع بحثنا هذا.

الرحلة تتألف من قسمين مستقلين عن بعضهما، أحدهما يشمل الوصف الأساسي للرحلة،

(١) لاسو آدمون: من أعلام السريان رحلة إيليا أبونا، مجلة دراسات، العدد: ٦٧٦٠، سنة ٢٠١٠، ص ٧٢. وقد ذكر أن سبب وجود الرحلة في حلب يعود إلى قدم العلاقات ومتانتها بين المدينتين اللتين شهدتا مبادلات تجارية وتبشيرية واسعة في تلك المرحلة.

(٢) الأب أنطوان رباط اليسوعي: رحلة أو سائح شرقي إلى أمركة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط ١، ١٩٠٦.

(٣) ابتهاج عمر الراضي: رحلة المواطن العراقي إلياس يوحنا الموصلي، أول سائح عربي يصل الأمريكيتين، مجلة المورد ، العدد ٢، بغداد، سنة ١٩٧٥ .

(٤) الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ١٨ - ٢٠.

ويحمل عنوان (السياحة)، والآخر يتحدث عن اكتشاف أمريكا وتاريخها. ويصف الأب أنطوان رباط اليسوعي المخطوطة بأنها كتاب مجلد تجليداً قديماً طول الوجه ٢١ سنتيمتراً، وعرضه ١٥ سنتيمتراً، وفي كل وجه ٢١ سطراً، وهو مكتوب بخط جلي غير متقن يحتوي ٢٦٩ صفحة، من الصفحة ١ - ١٠٠ رحلة المؤلف، ومن ١٠١ - ٢١٤ سبعة عشر فصلاً نقل فيها الرحالة تاريخ افتتاح أمريكا وأخبار ولايتها وشعوبها، ومن ٢١٥ - ٢٦٩ رحلة سعيد باشا سفير الدولة العثمانية إلى فرنسا. (١)

وعثر الأب أنطوان رباط اليسوعي على الرحلة بين المخطوطات المحفوظة في مطرانية السريان بحلب سنة ١٩٠٥، وكانت تحمل عنوان (سياحة الخوري إلياس الموصلي)، فطلب من الأب ديونيسيوس أفرام نقاشه مطران السريان الكاثوليك في حلب الشهباء أن يأذن له بنسخها، فوافق، فقام الأب أنطوان رباط بنشر القسم الأول من الرحلة، وبذل عناية كبيرة في شرح وتفصيل أسماء الأعلام، وزودها بتعليقات مختلفة، أما القسم الثاني فوجده رباط غير ذي قيمة علمية كبيرة فنشر منه الفصل الحادي عشر فقط الذي يتحدث عن الآثار النصرانية في أمريكا الوسطى والجنوبية. (٢)

وذكر كراتشكوفسكي أن هناك مخطوطات للرحلة في الموصل، وبغداد، والقاهرة، ومكتبة ديوان الهند، ويبدو أن هذه المخطوطات هي منسوخة عن الأصل الموجود في مكتبة حلب؛ لأنه لو كانت هناك زيادة في هذه النسخ لرأينا أحداً يعاود تحقيقها أو ينص على هذه الزيادات. (٣)

ويذكر نوري الجراح - وهو من المهتمين بالرحلات - أن صديقه منذر العكلي أول من نبهه لهذه الرحلة، وذكر له أنها منشورة في مجلة المورد العراقية، وقد زودت بمقدمة للباحثة العراقية ابتهاج الراضي، وقد ذكرت الباحثة أن زوجها الدكتور سامي سعيد الأحمد أول من ترجم رحلة الموصلي إلى الإنكليزية عن النص الذي حققه الأب أنطوان. (٤)

(١) الأب أنطوان رباط اليسوعي: رحلة أو سائح شرقي إلى أمركه، المشرق، المجلد الثامن، سنة ١٩٠٥، ص ٨٢١.

(٢) الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ١٨ - ٢٠.

(٣) أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكو فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٧٠٨.

(٤) الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ١٣.

وبعد قراءة نوري الجراح للرحلة تبين له أنها نشرت قبل نشرة ابتهاج بسبعين عاماً في دورية المشرق التي كان يحررها الأب أنطوان رباط، ونص نوري الجراح على أن الباحثة المذكورة أهملت مقدمة الأب رباط، وأبقت على الهوامش التي وضعها للكتاب، بعد ذلك شرع الجراح بالبحث عن نسخة أخرى للمخطوط وجمع معلومات عن الموصلي، فسأل عنهما المحقق الفذ فؤاد سيزكين، لكنه لم يكن يعرف شيئاً عنهما، وأثناء بحثه في مكتبة كلية الدراسات الشرقية الإفريقية soas في جامعة لندن برفقة الأستاذة وبين تشن أويانغ وقع في هامش لكتاب جغرافي على اسم الموصلي وذكر لرحلته وللأب رباط فسألها عنه فأجابته: أنه لا معلومات لديها عنه.^(١)

وذكر الجراح أن الشخص الذي وجد لديه معلومات عن الرحلة وصاحبها هو المستشرق البريطاني بول لندي من كامبردج الذي جمعه به لقاء مطول في سياق عملهما المشترك على موضوعات جغرافية في إطار مشروع the golden web، فعندما فاتحه بهذه الرحلة قال له: "فرغت لتوي من ترجمة النص نفسه إلى الإنكليزية". وبعد ذلك شرع الجراح في قراءتها، وتحريرها معتمداً على النسخ المتوفرة بين يديه، وخلص إلى هذه النسخة التي اعتمدها في هذه الدراسة؛ لأنها نسخة قامت على النسخ السابقة، وأفادت مما فيها من معلومات وتفاصيل وإضافات.^(٢)

(١)الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ١٤-١٥.

(٢)الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ١٤-١٥.

ثالثاً: مسار الرحلة.

بدأ الموصلي رحلته سنة ١٦٦٨ من بغداد، وتوجه في البداية إلى زيارة الأماكن المقدسة برفقة الطوبجي باشي القبرص ميخائيل كوندوليو مدير الطوبخانات الشاهانية (المدفعية) في السلطنة العثمانية، فمر بدمشق، ومنها توجه إلى القدس التي وصلها في يوم عيد القيامة، وبعد أداء فريضة الحج رجع قافلاً فمر بحلب، ومنها توجه إلى ميناء إسكندرونه، ومن هذا الميناء ركب مركباً إنكليزياً قاصداً قبرص، وهناك زار قبر اليعازر في مدينة لارنكا، وبعدها توجه نحو البندقية ماراً بجزيرة كريت وزانتي في البحر المتوسط، وأمضى سبعة أيام في البحر قبل بلوغه مدينة البندقية.

ويمكن القول: إنه من مدينة البندقية أخذ يفصل في رحلته، فذكر الأماكن والأشخاص والقصص والأحداث، ففي روما تشرف بزيارة البابا كلمنت التاسع (Clemens)^(١)، ثم أبحر من جنوه قاصداً مرسيليا، وأقام وقتاً قصيراً في فرنسا وإسبانيا، ثم قفل راجعاً إلى إيطاليا لأسباب مادية، ومن أجل هذه الأسباب توجه إلى صقلية، ومنها إلى إسبانيا، ومنها إلى البرتغال، ومنها سافر إلى مدريد، ثم قادش التي كانت نقطة الانطلاق باتجاه العالم الجديد أمريكا سنة ١٦٧٥، فمروا بجزر الكناري قاصدين كراكاس في فنزويلا، وبعد سفر خمسة وخمسين يوماً وصلوا قرطجنة (كرتاخينا) بكولومبيا التي أمضى فيها وقتاً قصيراً، ثم تابع رحلته سائراً على ساحل أمريكا الجنوبية الغربي، فزار بنما، وبعدها توجه إلى كولومبيا، ثم إلى الإكوادور، وأقام مدة طويلة في مدينة كيتو، وبعدها توجه إلى البيرو (بلاد البيروه)، وأقام في عاصمتها ليما سنة ونصف، وبعدها زار بوليفيا والأرجنتين وتشيلي، وقد أورد ذكر البرازيل ومدينتي توكومان، وبوينس آيرس، ويبدو أنه لم يمر بهما بعدما استقى معلوماته عنهما من الآخرين.

وعاد سنة ١٦٨٠ إلى مدينة ليما التي بدأ فيها بكتابة رحلاته وأسفاره في هذه البلاد، ثم زار أمريكا الوسطى التي كانت تسمى يومئذ ينكي دنيا؛ أي الدنيا الجديدة، ويراد بهذه التسمية بدقة المكسيك (ميخيكو)، ثم غادر ميناء كلخو (الكلواو) الكائب في البيرو في ٢١ سبتمبر ١٦٨١، ومر خلال عودته بمناطق بنما، وكوستاريكا، ونيكاراغوا، وهوندوراس، وغواتيمالا، سالكا طريق المكسيك من ميناء فيراكروز (ويراكروس) إلى هافانا (لاوانا)، ووصل إلى قادش، ثم زار إشبيلية لأغراض

(١) هو جوليو روسبيليوس، حاز الدكتوراه من جامعة بيزا، ودرّس علم اللاهوت بها، وكان بابا الكنيسة الكاثوليكية

من ١٦٦٧ - حتى سنة وفاته ١٦٦٩.

مالية تجارية، وبعدها توجه إلى روما سنة ١٦٨٣، ويذكر كراتشكوفسكي أن الموصلية أمضى بقية حياته هناك^(١).

مسار الرحلة. طاف الموصلية في رحلته أقاليم عديدة، وكان رائداً في استكشاف الأمكنة والكتابة عنها وعن ناسها، وعاداتهم وتقاليدهم، وأسماء الدول والأماكن التي زارها أو مرّ موثقاً مشاهداته، واصفاً القارة الأمريكية، وقسمت رحلته إلى أربعة أجزاء:^(٢)

الجزء الأول: الرحلة الأوربية: من بغداد إلى البندقية.

كانت رحلة الموصلية سنة ١٦٦٨ وانطلقت من بغداد، قاصداً الأماكن المقدسة برفقة الطوبجي باشي القبرص ميخائيل كوندوليو مدير الطوبخانات الشاهانية (المدفعية) في السلطنة العثمانية، فزار بدمشق، وبعدها مضى نحو القدس التي وكان قدومه عليها يوم عيد القيامة، وفي القدس أدى فريضة الحج، ثم عاد إلى حلب، ومنها قصد ميناء إسكندرونة، ومن هذا الميناء أبحر في قارب إنكليزي متوجهاً نحو قبرص التي توقف فيها لزيارة قبر اليعازر الواقع مدينة لارنكا، وبعدها قصد نحو البندقية ماراً بجزيرة كريت وزانتي في البحر المتوسط، وأمضى سبعة أيام في البحر قبل بلوغه مدينة البندقية. ومن مدينة البندقية أخذ يفصل في رحلته، فذكر الأماكن والأشخاص والقصص والأحداث، ففي روما تشرف بزيارة البابا كلمنت التاسع، ثم أبحر من جنوه قاصداً مرسيليا، وأقام وقتاً قصيراً في فرنسا وإسبانيا، ثم قفل راجعاً إلى إيطاليا لأسباب مادية، ومن أجل هذه الأسباب توجه إلى صقلية، ومنها إلى إسبانيا، ومنها إلى البرتغال.^(٣)

(١) أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٧٠٢.

(٢) هذا التقسيم ذكره نوري الجراح في: الذهب والعاصفة: ٢١ - ٢٢.

(٣) الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ٢٠.

الجزء الثاني: الرحلة الأمريكية: من مدريد إلى كراكاس^(١).

بعد وصول الموصلي البرتغال سافر منها متوجهاً إلى مدريد، ومن مدريد قصد قادش التي كانت نقطة الانطلاق باتجاه العالم الجديد أمريكا سنة ١٦٧٥، فمر بجزر الكناري (الخالدات)^(٢) قاصداً كراكاس في فنزويلا

الجزء الثالث: الرحلة المكسيكية: من تابوكا إلى مكسيكو.

الجزء الرابع: رحلة العودة: من مكسيكو إلى روما.

وعاد سنة ١٦٨٠ إلى مدينة ليما التي بدأ فيها بكتابة رحلاته وأسفاره في هذه البلاد، ثم زار أمريكا الوسطى التي كانت تسمى يومئذ ينكي دنيا؛ أي الدنيا الجديدة، ويراد بهذه التسمية بدقة المكسيك (ميخيكو) التي غادرها إلى أسكلة ويراكروس، ومنها توجه إلى جزيرة لاوانا (هافانا) ثم غادر ميناء كلخو (الكلياو) الكائب في البيرو في ٢١ سبتمبر ١٦٨١، ومر خلال عودته بمناطق بنما، وكوستاريكا، ونيكاراغوا، وهوندوراس، وغواتيمالا، سالكاً طريق المكسيك من ميناء فيراكروز (ويراكروس) إلى هافانا (لاوانا)، ووصل إلى قادش، ثم زار إشبيلية لأغراض مالية تجارية، وبعدها توجه إلى روما سنة ١٦٨٣.^(٣)

(١) تم تأسيس مدينة كراكاس في عام ١٥٦٠ على يد خوان بيريث دي تولوسا، وأصبحت فنزويلا مستعمرة مؤكدة للإمبراطورية الاستعمارية الإسبانية. انظر: رودريجت أوخينيو تشانج: **ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية**، ترجمة عبد الحميد الغلاب وأحمد حشاد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧، ص ٩٥-٩٦.

(٢) مجموعة من الجزر عددها أربعة تتبع إسبانيا، وتسمى في المحيط الأطلسي وتقسم في إسبانيا إلى مقاطعتين: مقاطعة سانتا كورث، ومقاطعة لاس بالماس.

(٣) الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ٢١.

رابعاً: أسباب الرحلة.

لا يخفى على أحد أن الرحلات يكون وراؤها دوافع وأسباب مختلفة سياسية، أو دينية، أو رسمية، أو اقتصادية، أو ترفيهية، أو مجرد مغامرة شخصية، غير أن الناظر في رحلة الموصلية لا يقف على ذكر سبب لهذه الرحلة، كما أن المؤلف لم يشر أي إشارة إلى أسباب الرحلة، ولم يترك أي إشارة يتمكن من خلالها معرفة- أو تتبؤ - أسباب هذه الرحلة، ومع ذلك سنورد بعض الأسباب من باب المقاربة والاستقراء اللذين توصلنا إليها خلال قراءة الرحلة، وهي:

قد يكون السبب من وراء هذه الرحلة دينياً بأمر من بابا الكنيسة أو من ديوان النفتيش من أجل نشر المسيحية في أرجاء القارة الأمريكية الوثنية في تلك الأيام، وهنا يتبادر السؤال إلى الأذهان: إذا كان السبب دينياً، فما هي طبيعة هذا التكليف؟ ولماذا وقع الاختيار على الموصلية ابن الكنيسة الشرقية للنهوض بهذه الرحلة؟ ولماذا لم يقع الاختيار على شخص آخر ذي أصول أوربية؟

ولعل السبب يكمن في شخصية الموصلية وما تميزت به من كفاءة وذكاء وخبرة، إضافة إلى قوة العلاقة التي تربط أسرته بالفاتيكان عاصمة الكاثوليك الرسمية التي ترى نفسها جامعة مانعة فوق الأقوام والجنسيات والجغرافيات.

وقد تكون تدخلات الموصلية الرامية إلى حل النزاعات والخلافات الدائرة بين الشخصيات السياسية والدينية سبباً في اختياره لهذه المهمة؛ لأن الكنيسة وجدت فيه الشخصية المناسبة لعكس صورة الكاثوليك البعيدة عن الصراعات الساعية إلى حلّ النزاعات بالطرق السلمية سواء بين الإسبان أنفسهم، أم بين الإسبان والإنكليز والهولنديين والفرنسيين والبرتغاليين، أم بين الإسبان والسكان الأصليين.

وقد يكون السبب وراء تجشم الموصلية عناء هذه الرحلة رغبته في الحصول على الأموال، وجمع التبرعات لكنيستته الكاثوليكية الشرقية كما ذكر كراتشكوفسكي.

وقد يكون حبُّ الاطلاع واكتشاف المجهول سبباً وراء هذه الرحلة، ولاسيما أن الموصلية كان مترفاً ذا عيشة راغدة.^(١)

ومهما كانت دوافع وأسباب هذه الرحلة، فنحن أما شخصية واعية تهوى المغامرة، وتحب العلم

(١) ذكر بعض هذه الأسباب : أغناطيوس بوليا نوفتش كراتشكو فسكي،: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٧٠٢،

والذهب والعاصفة، ص ٢٣.

والمعرفة، ولا تخاف من السفر وراء المجهول، بل تعد له العدة العلمية المناسبة نفسياً ومادياً وجسدياً بحذر فطري وحيطة تتم عن تعقل وروية وحسن تدبير، لهذا وجدناه يسعى من بداية الرحلة إلى الحصول مجموعة من التصاريح الرسمية من الشخصيات الرسمية آنذاك من أجل تسهيل رحلته، كما أنه أقام علاقات ودّ وصداقة مع المسؤولين عن تلك البلاد، وأقام في بعض الأحيان علاقات مع السكان الأصليين، وإن كانت قليلة جداً لا يعرف سبب قلتها هل هو الخوف؟ أو عدم معرفة لغتهم؟ أو التعالي؟ أو النظرة الدونية لهؤلاء السكان؟ أو هو سبب ديني ولاسيما إذا ما عرفنا أنه كثيراً ما كانت ينتعت سكان القارة بالهنود الكفرة^(١).

(١) يذهب الدكتور حسام النايف إلى أن استعمال الموصلية لعبارة الهنود الكفرة عائد إلى أنها كانت شائعة كثيرة الاستخدام بين الناس في تلك الفترة. انظر: حسام جميل النايف: دور الرحالة العرب في اكتشاف القارة الأمريكية في القرن السابع عشر - رحلة إلياس الموصلية نموذجاً، ص: ١١.

خامساً: أهدافُ الرّحلة.

لا نستطيع حصر أهداف الرحلات بشكل دقيق محدد؛ لأنها تختلف من شخص إلى آخر، ومن زمن إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، لكن نستطيع أن نرسم بعض الخطوط العامة لأهداف رحلة الموصلي في العالم الجديد، وهي: (١)

الأهداف الدينية: وتتمثل برغبة نشر تعاليم المسيحية في هذه البلاد الوثنية؛ لهذا تعين اختيار طائفة من المبشرين ذوي الشخصية الفذة، والأسلوب المؤثر للقيام بهذه المهمة، والموصلي حسب الأخبار التي انتهت إلينا عنه كان شخصية مناسبة لهذه الغاية، ولاسيما أنه يمثل التيار الكاثوليكي الذي كان متبعاً في إسبانيا، ويمكن إضافة الهدف الذي ذكره كراتشكوفسكي من وراء تجشم الموصلي عناء هذه الرحلة الكائن في رغبته في الحصول على الأموال، وجمع التبرعات لكنيستته الكاثوليكية الشرقية كما ذكر كراتشكوفسكي (٢)

الأهداف العلمية: عكست رحلة الموصلي وصفاً دقيقاً في غاية الأهمية للقارة الأمريكية، ولتفاصيل حياة شعوبها، مصوراً القرى المدن والبلدات التي زارها، واصفاً الطرق والقصور والجبال والأنهار، راسماً صورة الناس في تلك البقاع مشيراً إلى طرائق عيشهم وطباعهم وصفاتهم الخلقية والخلقية مقدماً وصفاً حياً دقيقاً للنباتات والحيوانات، وتحدث أيضاً عن طرقها ومناخها وتضاريسها ومعابدها التي تعكس ثقافة البلدان التي مرّ بها وأخبارها التاريخية وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والبيئية، وهذا ما جعل الرحلة من أهم الوثائق التاريخية التي تحدثت عن القارة الأمريكية في القرن السابع عشر قديماً وحديثاً؛ لهذا شكلت كشفاً جغرافياً وتاريخياً اجتماعياً وتجربة إنسانية فريدة تمتزج فيها المتعة بالمشقة. وهكذا كانت رحلة الموصلي تنقيفاً له وللقارئ، فاخترته وحياته مع سكان القارة، وسعيه إلى دراسة أخلاقهم وطباعهم وعاداتهم، ومعرفة ديانتهم، وأنظمة الحكم لديهم قدمت فرصة سانحة لعقد مقارنة بين سكان القارة والسكان الآخرين. (٣)

(١) استخرجت هذه الأهداف من رحلة الموصلي ، ومقدمة محقق الرحلة نوري الجراح، و أغناطيوس بوليا نوفتش

كراتشكو فسكي؛ وكانت الأهداف متناثرة في غير موضع من هذه الكتب؛ لهذا لم أورد أرقام الصفحات.

(٢) أغناطيوس بوليا نوفتش كراتشكو فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٧٠٢-٧٠٥.

(٣) الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ٢٠-٢٣.

الأهداف السياسية: وتتمثل في مد نفوذ الإسبان في هذه القارة ليجعلوا منها مستعمرات لهم، وسوقاً لتصرف منتجاتهم، ويستفيدون من ثروات هذه البلاد الباطنية، والزراعية، والصناعية.^(١)

الأهداف الاقتصادية: السيطرة على مناجم الذهب والفضة والزئبق وغيرها من المعادن النفيسة التي كانت موجودة بكثرة في هذه القارة، ولا يخفى على أحد أن هذه الثروات ستكون دفعاً اقتصادياً للاقتصاد الإسباني الذي سيسهم غير شك في دعم صراعها مع بقية الدول الأوروبية الطامعة في خيرات هذه القارة ولا سيما فرنسا وهولندا وإيطاليا والبرتغال.^(٢)

الأهداف السياحية والثقافية: كثيراً ما استهوت السياحة الأشخاص، وكانت القارة الأمريكية من البلدان التي استوقفت الموصلي، ولفتت انتباهه، وأثارت لديه حب الاطلاع على هذه القارة ومعرفة أسرارها ومجاهليها، ولا سيما أنها ليست عالمًا خاصًا، بل عوالم متميزة، تختلف عن باقي أصقاع الأرض الأخرى بسحر الطبيعة وتنوع التضاريس والمناخات، وتختص بتاريخ متواصل شديد الثراء من الناحية الثقافية، من هنا رغب الموصلي في الرحلة إلى هذه القارة في محاولة منه لتقديم صورة صادقة معبرة عن تطور الحضارة الإنسانية في هذه القارة منذ بدايتها وانتهاءً بالحضارة الحديثة.^(٣)

(١)الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ٢٠-٢٣.

(٢)الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ٢٢-٢٣.

(٣)الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ٢٣.

سادساً: أهمية الرحلة:

طاف الموصلي أصقاع القارة الأمريكية الجنوبية مدوناً مشاهداته التي وقف عليها في جزر الكناري (الخالدات) وصولاً إلى جزيرة كاراكاس فجزيرة مرغيتا، فكرتاخينا، وبورتوبيلو في فنزويلا، ثم إلى باناما مروراً بمئات المدن والقرى والجزر، وتجول في البيرو وغواتيمالا، وكولومبيا، والتشيلي، وبوليفيا، ووصل إلى مناطق خط الاستواء، وزار مناجم الفضة والذهب والزئبق في المستعمرات. (١)

الأهمية السياسية تصور العلاقات القوية في تلك الفترة بين ناسطرة المشرق والكنيسة الكاثوليكية في الفاتكان؛ أي أنها تصور حسن العلاقات في تلك المرحلة بين الشرق والغرب هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى صورت هذه الرحلة القارة الأمريكية في النصف الثاني من القرن السابع عشر، هذا القرن الذي شهدت فيه القارة الأمريكية حمى بناء المستوطنات، وانتشار العبودية، ونشاط ديوان التفتيش الكاثوليكي، وعمليات التنصير، والتعذيب، والإبادة الجماعية التي قام بها الإسبان ضد سكان القارة الأصليين تلك الممارسات التي أفضت إلى مصائر مأساوية، وشهدت أوج الصراع الأوربي من أجل الوصول إلى مناجم الذهب والفضة (٢).

وتتبع **الأهمية التاريخية** للرحلة من كونها جاءت مفعمة بالأخبار الواقعية عن تلك القارة، وما كان سائداً فيها من عادات وتقاليد، وما رسمته من صورة صادقة لحضارة تلك البلاد العريقة التي كانت معاصرة لحضارة حوض الرافدين، وما حوته من معادن نفسية كالذهب والفضة والزئبق هذه المعادن التي جعلت الدول الأوربية ولاسيما إسبانيا تتسابق للسيطرة عليها، ونهب خيراتها، منزلين بأهلها أشد ألوان العقاب الجماعي الذي تعرض له أحفاد حضارة المايا والإنكا وغيرهم من أبناء هذه القارة، ولاسيما تلك الجرائم البشعة التي كانت نتيجة للتحالف بين الاستغلاليين الاقتصادي والديني

(١) الذهب والعاصف: مقدمة المحقق: ٢١.

(٢) الذهب والعاصفة: ٦٠. وانظر: بطرس بطرس غالي، ومحمود خيربي عيسى، المدخل في علم السياسة، القاهرة، ١٩٧٤م، ص: ١٢٥، عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٥٦، و برتولومي دي لاس كازاس، المسيحية والسياف- وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الإسبان (رواية شاهد عيان)، ترجمة سميرة عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، ص: ٥٦.

الذي وقع سكان القارة تحت وطأته، وما نتج عن هذا الاستغلال من تمييز ديني وعرقي ولوني^(١). أما **الأهمية الجغرافية** للرحلة فتتبع من صحة ودقة المعلومات التي أوردها الموصلي، ويستطيع المرء بسهولة تحديد أسماء الأماكن التي أوردها الموصلي، وعدد هذه الأماكن لا بأس به، ويقدم مادة جغرافية كبيرة عن أحوال ذلك العصر، كما أنه كان دقيقاً في تحديد المسافات بين الأماكن مستخدماً الفرسخ مقياساً لتلك المسافات، وتمكن الموصلي من رسم الطريق الواصل بين بغداد وأوروبا والقارة الأمريكية رسماً مطابقاً للواقع الحالي في الأعم الأغلب، ويكفي أنها كانت أول رحلة كشف جغرافي للقارة الأمريكية في القرن السابع عشر^(٢).

والأهمية الاجتماعية تأتي من وصفه للحياة الاجتماعية، وأسلوب المعيشة الذي لم يكن حكرًا على الطبقات العليا للإسبان وحدهم، بل تناول السكان المحليين من الهنود، والعادات والتقاليد السائدة في تلك البلاد، ومراسم الموت، والزفاف، والأعياد، وعادات الطعام والشراب، ولم يقتصر الموصلي في رحلته على الإسبان، بل تطرق أيضاً إلى السكان المحليين الهنود، وكانت نظرة الموصلي لا تختلف عن نظرة الآخرين إليهم، فقد عدوهم شعباً همجياً متخلفاً لا يعرف شيئاً عن الحضارة والتمدن، وكثيراً ما كان يصفهم الموصلي بعبارة الهنود الكفرة^(٣).

وتأتي **الأهمية الأدبية** للرحلة - حسب كراتشكوفسكي - من كونها رحلة، يضاف إلى ذلك أنها كانت مفعمة بالقصص الحقيقية والخيالية والعجيبة التي كانت متداولة بين سكان القارة، كما أنها كانت حافلة بالمرويات والوقائع التي تشد القارئ بأسلوب بسيط سهل لا تعقيد فيه ولا تنميق للعبارات^(٤).

(١) حسام جميل الناييف: دور الرحالة العرب في اكتشاف القارة الأمريكية في القرن السابع عشر - رحلة إلياس

الموصلي نموذجاً، ص: ١١.

(٢) الذهب والعاصفة: ٢٣.

(٣) حسام جميل الناييف: دور الرحالة العرب في اكتشاف القارة الأمريكية في القرن السابع عشر - رحلة إلياس

الموصلي نموذجاً، ص: ١١.

(٤) أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكو فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٧٠٥، وجورج فضلو حوراني:

العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة

الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ص: ١٢١.

سابعاً: الأحداث التاريخية في رحلة الذهب والعاصفة.

يقول نعوم تشومسكي: "يُعدُّ اكتشاف القارة الأمريكية وطريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح أعظم وأهم حدثين في تاريخ البشرية الحديث. ولم تكن حكمة البشر تستطيع أن تتنبأ بأية فوائد أو بأية مصائب للبشرية ستنتج عن هذين الحدثين العظيمين من الآن فصاعداً. فقد قدّم اكتشاف أمريكا مساعدة جوهرية لوضع أوروبا، فاتحاً سوقاً جديدة لا تُستنفذ، أدت إلى توسع ضخّم للقوى المنتجة وللدخل الحقيقي والثروة"^(١).

وفي فوائد الرحلة يقول ابن خلدون: "إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة. . . تارة علماً وتعليماً وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمشاهدة. إلا أن حصول الملكات عن المباشر والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"^(٢).

وجاءت رحلة الموصلي لتؤكد هذه الحقيقة؛ إذ تعد الرحلات من أكثر مظاهر التوثيق التاريخي مصداقية وواقعية، واتسعت تلك الرحلة في القارة الأمريكية لتصف أخبارها التاريخية وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية. لقد كان أمراً طبيعياً ومنطقياً أن يبدأ غزو أمريكا الإسبانية واستعمارها من المستعمرة الأولى التي أنشأها الفاتحون في سانتو دومينجو^(٣).

لقد انتهت عملية الغزو كلها في مدة خمسين سنة، قام خلالها الغزاة الأوروبيون بالاستيلاء على إمبراطوريتي الأزتيك والأنكا، وبإخضاع القبائل، واحتلال ثلثي سواحل القارة. ومهما كان الوصول إلى أمريكا سهلاً ومهماً، وكانت وسائل البيض متفرقة إلا أن نجاحهم كان عجيباً؛ لأن بضعة آلاف من الرجال قد تمكنوا من الانتصار على ثلاثين مليون من الهنود الحمر، كما انتصروا على البعوض والزواحف والحميات وثلوج الجبال وشمس المناطق الاستوائية ووحوش الغابات. ولاشك في أنهم كانوا قد تمرنوا على المتاعب الجسدية، وشحنوا همهم وهزائمهم في حروبهم

(١) نعوم تشومسكي: ٥٠١ سنة الغزو مستمر، دار المدى، طبعة ثانية، دمشق ١٩٩٩، ص ١١.

(٢) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. ط: ٩. بيروت: دار القلم، ٩٤، ١٩٨٨ ص ٤٠٦-٤٠٧.

(٣) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ترجمة محمد مصطفى زيادة، أربعة أجزاء، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة-نيويورك، ١٩٦٣، الجزء الرابع، ص ١٢٨٦، ١٢٨٩.

المتصلة ضد المغاربة في الأندلس، كما شحذوا بشعورهم بالتفوق الحضاري والجنسي على غيرهم ولذلك فإنهم كانوا يسمحون لأنفسهم بكل شيء وبدون تردد^(١).

وكانت الدوافع التي أوجت لملك قشتالة وملكتها بخلق إمبراطورية مترامية الأطراف في القارة الأمريكية هي الرغبة في الاستحواذ على ممتلكات أوسع كثيراً مما كانا يمتلكان، ونشر الدين المسيحي، والحصول على إيرادات كبيرة. أما الفاتحون الإسبان الأولون فكانت تحركهم دوافع عدة، اختلفت قوة باختلاف الأفراد، والزمن، والمكان. فمنهم من دفعته الرغبة في الظفر بالثروة والمكانة، ومنهم من عمل لرفعة مقام عرش قشتالة ومجده، أو لنشر المسيحية، ومنهم من أغواه حب المغامرة.

وقد تمت أهم الفتوح الأولى دون أن يتحمل التاج أي تكاليف مباشرة، فإن قواد الحملات كانوا أفراداً فتحوا ما فتحوا من أراض على نفقتهم الخاصة، وبدوافع من أنفسهم، أو باسم الجالس على العرش، أو بمقتضى مراسيم ملكية، في رجاء الحصول على إيرادات الأراضي التي وقعت في قبضتهم، أو منحهم حق حكمها وإدارتها. وعلى هذا الهدى فتح كورتيس المكسيك، وألفارادو جواتيمالا، وبيثارو بيرو، وبمينيس دي كيسادا غرناطة الجديدة، ومنتهيهو يوكاتان^(٢).

وكان مشروعهم للاستعمار مشروعاً عاماً وخاصاً في نفس الوقت؛ لأنهم كانوا مزودين بمرسوم ملكي، وكانوا يحاربون وينتصرون باسم ملك إسبانيا ولحسابه، ولكنهم كانوا ينظمون حملاتهم على نفقتهم الخاصة أو لحساب أصحاب رؤوس الأموال المستعدين لتمويل مثل هذه المغامرات، وفي الحالة الأخيرة كانت هناك عقود موثقة تحدد نصيب وحقوق كل من الأطراف المساهمة. وكان هدفهم هو اكتشاف أراضي جديدة، والإقامة فيها بأحقية وأولوية الوصول إليها وحكمها، واستغلال الأراضي والمعادن النفيسة، والمعيشة بألقاب طنانة وبمجد يثير الغيرة والحسد لأكبر سادة قشتالة في هذا الوقت^(٣).

(١) نوار عبد العزيز، جمال الدين، محمود محمد: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٥٣، وانظر: جلال يحيى: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، ج ٤، ص ٢١٦.

(٢) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ص ١٢٨٧.

(٣) جلال يحيى: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، ج ٤، ص ٢١٦-٢١٧.

وما مضى إلا وقت قصير حتى كان لعرش قشتالة سيطرة مباشرة مطلقة على إمبراطوريته
الفسيحة الأطراف، كما حققت الكنيسة التي كانت تحت رعاية التاج تنظيمًا كاملاً لهذه الممتلكات،
وممارسة نفوذاً عظيماً فيها^(١).

وقد عرف العرب القارة الأمريكية منذ زمن بعيد، ولعلّ من أشهر نماذجه رحلة الموصلي التي
أودعها جملة من الأحداث التاريخية التي عاصرها ومرّ بها، وهذا الأحداث تقسم إلى قسمين: الأول
قبل ذهابه إلى القارة الأمريكية، والثاني بعد ذهابه إليها.

(١) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ص ١٢٨٩.

١- الأحداث التاريخية قبل الرحلة إلى القارة الأمريكية.

تشكل كتب أدب الرحلات مصدراً للمعلومات التاريخية التي تحكي الأحداث التي عاصرها الرحالة من تتابع السلاطين والحروب الدائرة أو الأحداث العظيمة التي وقعت آنذاك. وغير ذلك من مظاهر الثقافة التي تعكس في مجملها ثقافة البلدان التي مروا بها وأخبارها التاريخية وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والبيئية. ومن ذلك حديث الموصلي عن مدينة البندقية التي كان ذائعة الصيت مشهورة في جميع أصقاع الأرض في تلك الأيام.^(١)

ويذكر أيضاً أن باريس كانت في تلك الأيام مدينة لا نظير لها في جمال المناظر، وعدالة الحكام، وسيطرة القوانين والأنظمة، وحب أهلها للغرباء، ووجد الموصلي فيها شيئاً كثيراً من الخيرات والإحسان الذي يستحق المدح، فهناك مجموعة من النساء العذارى والأرامل اللاتي تزهدن في الحياة، وتركن كل نفذهن في الشركة المباركة المسماة شاريتها، وهي مجمع خيري قديم، وجميع الأموال الموجودة في هذه الشركة مؤمنة لدى المصارف، ولها أرباح سنوية تقدر بمليون لييرة، وتجمع هؤلاء النسوة النقود كل جمعة، ويقسم النقود على الفقراء، والمحتاجين، والكنائس، والأديرة، والمرضى، والغرباء، والدعاة إلى المسيحية، ويجهزن الفتيات الفقيرات، ويزوجهن من هذه النقود.^(٢) ويذكر الموصلي أنه أثناء وجوده في باريس في تلك الفترة جاء سليمان آغا رسولاً من السلطان الأعظم محمد خان إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، وذلك في ٤ آب سنة ١٦٦٩، وكان موكب هذا الرسول كبيراً جداً، وقابل المسيو دي ليون وزير الملك، وقابل الملك في حفلة كبيرة، وأمضى مدة طويلة في باريس عند صديقه المسيو دارفيه.^(٣)

وأشار الموصلي أثناء زيارته لمدينة بورديوس الإسبانية إلى عمل الملك لويس الرابع عشر الذي قطع الجبال جاعلاً بينها مكاناً لعبور السفن من بحر الأوقيانوس وبحرين أرضيين.^(٤) ولما زار مدينة مدريد كانت تحكمها الملكة حنة النمساوية زوجة الملك فيليبس الرابع المتوفى سنة ١٦٦٥م؛ لأنه توفى وخلفه ابنه صغيراً يسمى كارلوا الثاني، وكان عمره يومئذ أربع

(١) الذهب والعاصفة: ٣٤.

(٢) الذهب والعاصفة: ٣٨.

(٣) الذهب والعاصفة: ٣٨ - ٣٩.

(٤) الذهب والعاصفة: ٣٩.

سنوات، فأقيمت أمه على إدارة المملكة، غير أن جوان أخذ منها الحكم عنوة، وبعد وفاته عاد الحكم إليها، واستمرت فيه حتى بلغ ابنها أشده. وقد سلمها الموصلية مكاتيب البابا أكلمنندوس التاسع، فأمرت بإعطائه ألف غرش من حاكم سيسيليه، وألف غرش من حاكم نابولي، وزودته بكتاب إليهما^(١). ومرَّ الرحالة بالبرتغال وكان حاكمها يومئذ موجوداً في جزيرة تسمى إيزلا ترسييرا، ولم يكن له أولاد مع أنه كان متزوجاً منذ ثلاث سنين.^(٢)

ولم يكن الإسبان يسمحون للغرباء بالسفر إلى القارة الأمريكية يومئذ، ولا يحق لأحد أن يسافر إليها إذا لم يكن معه موافقة من الملك، وقد تمكن الموصلية بفضل منصبه الديني من الحصول على هذه الموافقة بعد وساطة من مربية الملك ميركزا ده لوزوبلس، فقد قدّس أمام الملك وأمامها، وبعد هذا القداس أشارت إليه مربية الملك أن يطلب ما يريد، فنصحه بعض أصدقائه أن يطلب منها إجازة وأمراً حتى يتمكن من الذهاب إلى القارة الأمريكية، وكان له ما أراد^(٣).

(١) الذهب والعاصفة: ٤٠.

(٢) الذهب والعاصفة: ٤٢.

(٣) الذهب والعاصفة: ٤٥.

٢ - الأَحْدَاثُ التَّارِيخِيَّةُ فِي الْقَارَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ.

أرخ الموصلي تاريخ ومكان انطلاق رحلته من أوروبا إلى أمريكا التي كانت من مدينة قادش في اليوم الثاني عشر من شباط سنة ١٦٧٥م، فصعد إلى السفينة بعد أن قدم إجازة الملك إلى جنيرال السفن الدون نيقلاس ده كوردوا الذي استقبله استقبلاً حافلاً، فرحب به، وأكرمه، ومنحه غرفة في السفينة، وكان عدد السفن المسافرة إلى أمريكا ست عشرة سفينة. (١)

ويذكر الموصلي أن الإسبان فتحوا القارة الأمريكية في أيام الملك كارلوس الخامس، وهو من ملوك إسبانيا وبلاد المجر (٢). وأيام الفتح كان يحكم هذه البلاد أخوان أحدهما يسمى وزاوليا، والآخر يسمى واسكارانكا، وكانت الحرب دائرة بينهما، وكانت أدوات الحرب عندهم يومئذ الأقوس، والسهام، والرماح، والمقاليع المستخدمة لقذف الحجارة (٣). وقد كان واسكارانكا حاكماً على بلدة شينكاوي، وله فيها قصر كبير، وحين جاء الإسبان وسعوا هذا القصر مع بستانه جاعلين منه ديراً لهم (٤).

وفي تلك الأيام كانت الحرب دائرة بين إسبانيا وفرنسا، وأثناء مرور السفن الإسبانية بجزيرة تريتوكا وجدوا مركباً فرنسياً صغيراً، فلاذ الفرنسيون بالفرار تاركين ورائهم المركب بما فيه، وحين سيطر عليه الإسبان وجدوه محملاً بالسلاحف المملحة التي كانت تستخدم للأكل (٥).

ويصف الموصلي مدينة باناما الجديدة التي كانت تسمى قبل عام من تاريخ زيارته لها باناما القديمة، وسبب هذه التسمية أن القراصنة الإنكليز أغاروا عليها بقيادة زعيمهم مورغان سنة ١٨٧٠م، فنهبوا خيراتها، وأحرقوا منازلها، وشردوا أهلها، ثم استعادها منهم الإسبان، فأعادوا بنائها على نحو جديد غير مألوف (٦).

(١) الذهب والعاصفة: ٤٧.

(٢) الذهب والعاصفة: ٤٧.

(٣) الذهب والعاصفة: ٧١.

(٤) الذهب والعاصفة: ٧٨.

(٥) الذهب والعاصفة: ٤٩.

(٦) الذهب والعاصفة: ٥٥.

ويذكر الموصلي أن الإسبان لم يتمكنوا من السيطرة على القارة كلها، فهناك بعض المناطق ظلت بيد السكان الأصليين، فمدينة بوكر تنبر التي كانت حداً فاصلاً بين الإسبان والأمريكيين الذين كانوا يناصبون الإسبان العداء ويهاجمونهم بين الحين والآخر^(١).

ويذكر الموصلي أن الأهالي رضوا أن يخضعوا لحكم الغزاة، إذ لم تكن لديهم الوسائل الكافية للصمود أمامهم، أو للدفاع عن أنفسهم. فقد كان الإسبان مزودين بالخيول، ومهروا في ركوبها حتى أصبح الفارس، وكأنه مربوط بفرسه، وكانوا مزودين بالبارود الذي يقتل عن بعد ويرعد مثل البراكين ويجعل الأهالي ينظرون إليهم كآلهة. وهكذا تفتحت أمريكا للغزو الإسباني بسهولة، وكان ساحلها الشرقي مملوءاً بآلاف الخلجان وآلاف المصبات والأنهار الصغيرة. وإذا كانت أوروبا قد نظرت إلى العالم الجديد كعقبة في سبيل الوصول إلى الهند، فإن هذه النظرة لا تمنع من كون أمريكا عقبة سهلة، بل ومحطة متوسطة يمكن عبورها والوصول منها إليها إلى الهند^(٢).

ويتحدث الموصلي عن الحرب التي دارت بين الإسبان والأمريكيين في بلدة جكويت، فقد تحصن الأمريكيون في الجبل الأحمر، وكانت لديهم الرماح والسهام والمقاليع، فلم يتمكن الإسبان منهم، وكانوا يخرجون إلى البر ويأسرون الإسبان، وينهبون مواشيهم، وأمام هذه التصرفات قام الوزير بجمع حكام القرى في تلك المنطقة، فجمعوا جيشاً بلغ عدده أربعة آلاف جندي، وصنعوا أربعين سفينة، وحملوها بأكياس مملوءة بالتراب، وبعض الخيول، وقطعوا البحيرة قاصدين الأمريكيين، فلما اقتربوا من الجزيرة دارت بينهم معركة كبيرة، استخدم فيها الإسبان الرصاص، ففر الأمريكيون، وألقى الإسبان الأكياس في الماء؛ لأن تلك الأرض كانت شديدة الطين، وعبروا فوقها بالخيول، فطاردوا الأمريكيين وقتلوا منهم ستمئة رجل، وأسروا ثلاثمئة آخرين غير النساء والأطفال، ونقلوا الأسرى إلى بلدة الكوسكو، وطلب الوزير من أسقف هذه البلدة أن يعلمهم المسيحية، ثم يوزعون على البلاد^(٣).

وذكر الموصلي أن الإسبان قبل خمسين سنة من قدومهم إلى القارة الأمريكية اكتشفوا جزيرة قريبة من فليباس، وفتحوها، وكان سكانها أمريكيان يعبدون الأصنام، وأطلق الإسبان على هذه

(١) الذهب والعاصفة: ٨٠.

(٢) الذهب والعاصفة: ٨٢-٨٣.

(٣) الذهب والعاصفة: ٨٤.

الجزيرة اسم الملكة زوجة الملك فليب الرابع ماريانا ده أوو ستريا، وهي أم الملك كارلوس الثاني، وهي أخت الملك الأمبارادور ليوبولد، وجعلوا اسم تلك الجزيرة إيزلا ده ماريا ناس. (١)

وظلت الحرب دائرة طلية رحلة الموصلية بين الإسبان والفرنسيين، فبعد أن انتهت رحلة الموصلية رجع قافلاً إلى إسبانية، وحين وصل ميناء قادس ألقى السفن الحربية الإسبانية والفرنسية راسية في هذا الميناء بانتظار ساعة الصفر (٢).

وهكذا يمضي الموصلية ذاكراً في رحلته جملة من الأحداث التاريخية التي وقف عليها في ذلك العصر، فدونها كما هي بصدق وأمانة علمية غير خاضعة للرقابة والسلطة السياسية التي تحول دون تسطير الأحداث كما هي، فكان شاهد عيان على تاريخ تلك المرحلة من خلال وقوفه على المفاصل الكبرى التي شكلت ذلك التاريخ، كدخول الإسبان والفرنسيين والبرتغال والهولنديين طرفاً في الصراع على صعيد التاريخ السياسي، وتسلم الإسبان زمام الأمور في القارة الأمريكية، كما أشار إلى بدايات انتشار الفكر الأوربي المسيحي في القارة الأمريكية.

(١)الذهب والعاصفة: ١١٦.

(٢)الذهب والعاصفة: ١٢٣، وانظر: هريرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، ترجمة زينب عصمت راشد، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٥٦.

٣- الدول الأوربية المتنافسة في القارة الأمريكية وممارساتها.

كل من يقلّب صفحات الذهب والعاصفة سيقف على إشارات تاريخية ترسم تاريخ هذا الجزء الذي شهد تصارعاً وتسارعاً للسيطرة عليها من قبل الدول الأوربية: إسبانيا، وفرنسا، وإنكلترا، وهولندا، والبرتغال، والاستفادة من خيراتها وثرواتها، فكانت هذه الرحلة صورة صادقة معبرة عن الحقبة التاريخية في تلك الفترة بما فيها من صراعات ونزاعات، وتنافس دولي.

فقد نصّت معاهدة توردي-سيلاس التي وقعت عام ١٤٩٤ بين كل من الملوك الكاثوليك الإسبان خوان الثاني ملك البرتغال على إقامة خط وهمي فاصل لتحديد ممتلكات هذه الدول في الأراضي المكتشفة، وطبقاً لهذه المعاهدة فإن كل الأراضي التي كانت تقع غرب هذا الخط الوهمي امتلكتها إسبانيا ووقعت تحت سيطرتها، أما الأراضي التي كانت تقع شرق هذا الخط فقد امتلكتها البرتغال. وقد منحت هذه المعاهدة البرتغال ساحل البرازيل حتى قبل أن يتم اكتشاف هذه الدولة. وسواء أكان هذا الحدث متعمداً أم من قبيل الصدفة فإن بدرو الفاريز كابرال حينما نزل إلى الأراضي الأمريكية في عام ١٥٠١ سرعان ما أعلن أنها أملاك برتغالية^(١).

وكان أمراً طبيعياً ومنطقياً أن يبدأ غزو أمريكا الإسبانية واستعمارها من المستعمرة الأولى التي أنشأها الفاتحون في سانتو دومينجو، وعلى هذا الهدى فتح كورتيس المكسيك، وألفارادو جواتيمالا، وبيثارو بيرو، وبمينيس دي كيسادا غرناطة الجديدة، ومنتهيهو يوكاتان^(٢).

وكانت الدوافع التي أوحى لملك قشتالة وملكتها بخلق إمبراطورية مترامية الأطراف في القارة الأمريكية هي الرغبة في الاستحواذ على ممتلكات أوسع مما كانا يمتلكانه، ونشر الدين المسيحي، والحصول على إيرادات كبيرة. أما الفاتحون الإسبان الأولون فكانت تحركهم دوافع عدة، اختلفت قوة باختلاف الأفراد، والزمن، والمكان. فمنهم من دفعته الرغبة في الظفر بالثروة والمكانة،

(١) أوخينيو تشانج رودريجت: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ١٣٥، وعمار فاضل حمزة، أمريكا اللاتينية:

تاريخ من الظلم المتواصل، ص ٣٢.

(٢) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ترجمة محمد مصطفى زيادة، أربعة أجزاء، مؤسسة فرانكلين للطباعة

والنشر، القاهرة-نيويورك، ١٩٦٣، الجزء الرابع، ص ١٢٨٧.

ومنهم من عمل لرفعة مقام عرش قشتالة ومجده، أو لنشر المسيحية، ومنهم من أغواه حب المغامرة.^(١)

فالإسبان جعلوا هذه القارة مستعمرة لهم، وسوقاً لتصريف بضائعهم، وخزاناً لتزويدهم بالذهب والفضة والزئبق، وغيرها من الخيرات التي كانت مليئة بها هذه القارة؛ لذلك لا يسمحون لأي شخص غير الإسبان بالسفر إلى تلك البلاد حتى وإن كان تاجراً أو كاهناً، ولا يستثنى من هذا القانون إلا من يحمل إجازة وتصريحاً من الملك.^(٢)

ويذكر أن الإسبان قاموا بقتل ملك الهنود اينكارسوف الذي كان يسكن في بلدة خامار الواقعة على رأس جبل، وقد قتلوه؛ لأنه كان محباً لشعبه يدافع عن حقوقهم، ويساعد الفقراء والمحتاجين، ولا يسمح لأحد أن يمسهم بأي مكروه.^(٣) وقاموا أيضاً بقتل الملك الهندي أنيكا^(٤)

وقد كان السكان المحليون يتعرضون لظلم الوزراء والحكام، ولا سيما إن كانوا من أصحاب الأموال كما حدث من دون خوسيف سلسيدو صاحب معدن بونو الذي تعرض للظلم من قبل وزير بلدو بو قرتنبو الذي ألقى القبض عليهم، وصادر أمواله، وقتل بعض أصحابه، ووضعهم في السجن، وقام بقتله في النهاية بأسلوب بشع، كل هذا من أجل نهب أموال هذا الرجل الغني الذي كان محباً للفقراء والمساكين والأرامل عطوفاً عليهم مساعداً لهم.^(٥)

وكل من يقاوم الإسبان، ويقف في وجههم تكون عقوبته النفي خارج منطقته، مثل ما حصل لسكان جبال جزيرة تيتيكاكا الواقعة في بلدة جكويت الذين كانوا يهاجمون الإسبان، ويقتلون منهم، وينهبون ما لديهم من أشياء، فجهز الإسبان حملة كبيرة، وهاجموهم في جزيرتهم، فقتلوا خلقاً كثيراً منهم، وأسروا البقية مع النساء والأطفال، وقادوهم إلى بلدة الكوسكو، وأمر الوزير أن يعلمونهم الديانة المسيحية، ثم يوزعون على البلاد.^(٦)

(١) محمد مظفر الأدهمي، أوروبا في القرن التاسع عشر دراسة في التاريخ والفلسفة، الرباط ١٩٨٥.

(٢) الذهب والعاصفة: ٤٧.

(٣) الذهب والعاصفة: ٦٩.

(٤) الذهب والعاصفة: ٨٤.

(٥) الذهب والعاصفة: ٨١.

(٦) الذهب والعاصفة: ٨٤ - ٨٥.

وقد وضع الإسبان أيديهم على كل المعادن الموجودة في هذه القارة جاعلين منها ملكاً لملكهم وحده، وقد وضع الملك نواباً عنه لاستخراج هذه المعادن، ودفع أجورها، وكل من يجدون عنده معدناً دون تصريح يسجن، وتصادر أمواله، ويعرض للغرامة^(١).

وعلى السكان المحليين العمل في استخراج الذهب والفضة، وقد أصدر الملك مرسوماً ينص على أن تقدم كل قرية من قرى الهنود خمسة رجال لقطع المعادن كي يعملوا مع وكلاء الملك في استخراج المعادن، ويجمع هؤلاء الهنود في بلدة برتوسي، ويقوم الحاكم بتوزيعهم على المعادن، وإذا لم يرسلهم حكام القرى، فالوزير يحاسبهم، ويعزلهم.^(٢)

ويبين الموصلي سبب كره أهالي بلدة ميسكي للإسبان الذين قتلوا ملوكهم وآباءهم حين دخلوا القارة، فراح الآباء يحكون تلك المجازر والفضائع لأبنائهم حتى لا ينسوا ممارسات هذا المحتل الإسباني^(٣).

ويصور أيضاً معاملة الإسبان الوحشية ضد أصحاب المعادن من خلال قصة صاحب المعدن الذي التقى به في بلدة بوتوسي، فسأله الموصلي: لماذا يعمل باستخراج الفضة سراً، ولا يخبر عنها حتى يكرمه الملك هو وأهله، ويكون ذا مكانة مرموقة في المجتمع، فأخبره الرجل عن عدد من أصحاب المعادن الذين أخبروا الوزراء والحكام عن معادنتهم، فكانت نهايتهم الموت تعذيباً على أيدي الإسبان وحكامهم، فصدق الموصلي كلامه، ولا سيما أنه كان يشاهد بأم عينه الظلم الذي كان يقع السكان المحليين^(٤).

وصادف الموصلي في جزيرة كنارياس مركباً إنكليزياً محملاً عبيداً سوداً عددهم سبعمئة عبد، جاء بهم الإنكليز من البرازيل حتى يبيعوهم للإسبان في تلك البلاد^(٥)، فهذه إشارة تاريخية من الموصلي إلى أن الإنكليز كانوا موجودين في القارة الأمريكية، وكانت سفنهم تجول البحار دون أن يعترضها أحد، وفيها إشارة أخرى إلى ما عاناه سكان تلك البلاد من رق وعبودية على أيدي تلك

(١)الذهب والعاصفة: ٧٤.

(٢)الذهب والعاصفة: ٨٨.

(٣)الذهب والعاصفة: ٩٣.

(٤)الذهب والعاصفة: ٩٤.

(٥) الذهب والعاصفة: ٤٧.

الدول الأوربية الطامعة بخيرات تلك البلاد المادية والطبيعية والبشرية. وذكر الموصلي أن البرازيل كانت في تلك الحقبة التاريخية تحت حكم البرتغاليين^(١) الذين لم يقوموا بحماية مستعمرتهم التي كانت سوقاً للعبيد الذين يباعون في المناطق الأخرى، ولا سيما القارة الأمريكية.^(٢) وذكر أيضاً أن الهولنديين كانوا موجودين في تلك القارة، وذلك أثناء مروره بجزيرة كوراصون التي كانت تحت سيطرتهم، وذكر أن حاكمها الهولندي أرسل إليهم زورقاً مملوءاً بالفواكه والخمرة، وأطلق لهم من قلعتة سبعة مدافع، وردوا عليه أيضاً بسبعة مدافع.^(٣) وكانت الحرب في تلك المرحلة دائرة بين الإسبان والفرنسيين الذين كانوا منافسين للإسبان للسيطرة على هذه القارة، وقد صادف في جزيرة تروتوكا مركباً فرنسياً صغيراً، وأحاطوا به، فترك الفرنسيون المركب ولاذوا بالهرب، ولما أخذ الإسبان المركب وجدوه محملاً سلاحاً مملحاً^(٤). هكذا يجد الناظر في أقوال الموصلي أن هذه الدول الأوربية كان في تنافس وصراع ليس ضمن القارة الأوربية، بل انتقل هذا الصراع إلى القارة الأمريكية ذات الثروات الباطنية المتعددة المتنوعة التي كانت محط أطماع وأنظار هذه الدولة التي راحت تتسارع في بسط نفوذها على هذه القارة، وإن كان الإسبان أصحاب الحظ الأوفى والأكبر في هذه القارة التي عانى أهلها أشد أنواع الظلم والقهر من هؤلاء المستعمرين الذين نهبوا خيراتهم، وحولهم إلى عبيد وعمال وفلاحين، وكل من وقف في وجههم كان العذاب والموت مصيره.^(٥)

(١) الذهب والعاصفة: ٤٧.

(٢) جورج أطلس، تاريخ البرازيل، ترجمة جورج أطلس، سان باولو البرازيل، ١٩١٧، ص ص ٢٥-٣٠.

(٣) الذهب والعاصفة: ٤٩.

(٤) الذهب والعاصفة: ٤٩.

(٥) وانظر في الموضوع نفسه: عمار فاضل حمزة، أمريكا اللاتينية: تاريخ من الظلم المتواصل، د.ت.ص: ٢٤-

الفصلُ الثاني

الجوانبُ الاقتصاديَّةُ في القارَّةِ الأمريكيَّةِ الجنوبيَّةِ

أولاً: مَنَاجِمُ الذَّهَبِ، طريقةُ استخراجِه، أماكنُه.

ثانياً: مَنَاجِمُ الفِضَّةِ، طريقةُ استخراجِها، أماكنُها.

ثالثاً: الرُّنْبِق.

رابعاً: الزُّمُرْد، البونو، القليوما، المرمَر، والجواهر.

خامساً: الصَّنَاعَاتُ.

سادساً: الأسعارُ والمقاييسُ والأوزانُ.

سابعاً: خَزِينَةُ المَلِكِ الإسباني.

ثامناً: المَبَادِلَاتُ التِّجَارِيَّةُ والبَضَائِعُ والسِّلَعُ.

أولاً: مَنَاجِمُ الذَّهَبِ، طَرِيقَةُ اسْتِخْرَاجِهِ، أَمَاكُنُهُ.

بعد أن انتهت خرافات الخان الأعظم، أو الخاقان، وخرافات يوحنا الراعي، ظهرت خرافات جديدة، اتصلت بالعالم الجديد. فنجد أن أحد رجال بيزارو، ويسمى أوربياتوا، قد سمع بعض الهنود يتحدثون عن مملكة مليئة بالذهب، وأن ملكها كان يغطي نفسه بالتبر، وأنه الملك الذهبي "الإلدورادو" الذي قد ورث الإنكا، وأسس إمبراطورية جديدة في داخل القارة. وانتقلت هذه الخرافة من فم لأذن، حتى أصبحت وكأنها حقيقية. وأضاف كل فرد إليها قليلاً حتى ذكرت وجود أسدين مقيدتين بسلاسل من الذهب لحراسة القصر الإمبراطوري، وأن الأنايب التي توصل الماء إلى النوافير كانت من الذهب، وأن جبلاً من الذهب الخالص كان يشرف على الإقليم. وقام المستكشفون بالبحث عن "الإلدورادو" العجيب مدة قرنين، وبحثوا عنها في كل مكان دون أن يعثروا عليه. ولكن ذلك البحث سمح لهم بالتوغل داخل القارة، وبالسيطرة على مناطق أوسع، وبنهب ما تصل إليه أيديهم^(١).

وعند وصول دي بالبوا للمرة إلى شاطئ المحيط الجديد سمع كلاماً عن مملكة الذهب الخرافية، الموجودة في البيرو التي سيتجهون إليها، والتي ستكون منذ ذلك الحين مشروع كل المغامرين وحلمهم، وفي تلك اللحظة عرف الإسبان كذلك أن المياه المحيطة بالجزر الصغيرة في خليج بنما تحتوي على احتياطي لا ينضب من اللؤلؤ.

ويقف الناظر في صفحات رحلة الموصلي على ما ناله الذهب في هذه القارة من أهمية جعلت الدول الأوروبية تسارع إلى مدّ نفوذها على هذه البلاد من أجل الحصول عليه، فقد شهد ذهب هذه القارة أوج الصراع الأوربي للوصول إلى المناجم، ولاسيما بين الإسبان والفرنسيين والهولنديين والإيطاليين، فقد مارس الإسبان من أجل هذا الذهب أبشع صور الاستغلال والعبودية والإبادة ضد سكان القارة الأصليين.

وذكر الموصلي أن الذهب موجود في منطقة تبعد عن بلدة جكيكواه أربعة وعشرين فرسخاً؛ إذ يوجد هناك نهر خارج من الجبال، وهذا النهر عندما تزيد مياهه يرمي على الأرض من قلب

(١) جلال يحيى: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، المكتب الجامعي الحديث،

الإسكندرية، ص ٢٢٠-٢٢١، و محمد قاسم، أحمد نجيب هاشم، التاريخ الحديث والمعاصر، دار المعارف،

مصر، ١٩٦٥، ص ٢٥٣.

الجبل رملاً مخلوطاً بالذهب، والناس هناك يعرفون متى تتخفّض مياه النهر، فيذهبون ويغريلون النهر ويعزلونه من الذهب، وقد كان الموصلّي راغباً في مشاهدة هذا النهر، لكنهم نصّوحه بعدم الذهاب؛ لأن السير في تلك الدرب صعبة وشاقة، فعدل عن الفكرة مكتفياً بشراء الذهب من بلد كيتو^(١).

ويصف الموصلّي كيفية استخراج الذهب عند حديثه عن الذهب الموجود في قرية صارونا الواقعة على رأس الجبل، وتنتشر حولها المعادن الذهبية، قائلاً: "أولاً يطلعون الحجارة من المعدن ويسحقونها بطاحون الماء، وحينئذ يغسلون ذلك التراب المسحوق ويقطعون منه الذهب بتصويله في الماء، ثم يذوّبونه ويسكبونه أقراصاً"^(٢).

ويروي الموصلّي قصة عن مغارة الذهب الواقعة في بلدة بيوره، فيذكر أنه قد كان فيها رجل هندي غني، وهو من أشرف الهنود، وقد كانت له بنت وحيدة، وفي يوم من الأيام سافر أبوها إلى بلدة أخرى، فصادفت البنت رجلاً فقيراً، فقررت مساعدته بعد أن أخذت منه عهداً أن يكتّم السر، فواعدته ليلاً في مكان خارج القرية، فلما جاء الليل قدمت إليه وغطت عيونه، وقادته إلى مغارة الذهب، ولما وصلوا المغارة حملته من أقراص الذهب ما قدر أن يحمله، ثم عادا، وفكت الرباط عن عيونه في مكان قريب من البلدة، وعندما رجع أبوها من السفر ذهب إلى المغارة، ووجد على أبوابها آثار أقدام، وعرف أن هذه آثار أقدام ابنته، فسقاها سمّاً فماتت، وبعد فترة مات الأب أيضاً، ومنذ ذلك الوقت والناس يبحثون عن المغارة ولم يعثروا عليها.^(٣) فهذه القصة وإن كانت أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع فهي دليل على أن الذهب كان موجوداً في تلك القارة وبكثرة أيضاً.

ويذكر الموصلّي قصة أخرى لوجود الذهب في جزيرة إيزلاده لوس لدرون التي كانت تسمى جزيرة اللصوص، فيروي أن مركباً سافر في هذا البحر إلى ينكي دنيا، فأصابته ريح مخالفة فرمته في جزيرة الرمل، ثم سكنت الريح بعد يومين، وجعل البحارة يعمرّون بعض أشياء في مطبخ

(١) الذهب والعاصفة: ٦٢. و سيباستيان دي بن الكاثر هو الذي قام بغزو مملكة كيتو وضمها إلى البيرو؛ حيث دخل مدينة كيتو في شهر كانون الأول ١٥٣٣، وزحف إلى الشمال وتوغّل في أراضي كولومبيا الحالية، وأسس مدينة بويابان، وتجوّل في وادي كاوكا إلى أن وصل إلى هضبة بوجاتا.

(٢) الذهب والعاصفة: ٦٤.

(٣) الذهب والعاصفة: ٦٧.

المركب التي تهدمت من كثرة الرياح التي صادفتهم في البحر، فطلعوا إلى الجزيرة، و أحضروا رملاً ليملؤوا الحوض الذي يطبخون عليه، ثم سافروا من تلك الجزيرة، وفي اليوم الثاني طبخ لهم الطباخ مثل العادة، فأراد أن يحرك النار فرأى الرمل كالحجر فقلعه فإذا هو قرص ذهب فلما علموا بتلك الحادثة أرادوا الرجوع إلى الجزيرة فما استطاعوا؛ لأنهم لم يكونوا قد أكدوها، ولا وزنوا قيراطات الشمس. (١)

ويعقب الموصلي على هذه القصة قائلاً: " وهذه الجزيرة كانت تسمى في كتب القدماء أيسلاده سلامون؛ يعني جزيرة سليمان، ويقولون بأن سليمان لما عمر البيت كان يحضر الذهب من هذه الجزيرة، والآن السبنيولية ما لهم نشاط واتفاق وحرارة طبيعة حتى يفتشوا على هذه الجزيرة"(٢). وذكر الموصلي أماكن أخرى لوجود الذهب مثل مدينة الذهب(٣)، وبلدة ميخيكو(٤)، ويذكر أيضاً أن توكرمان؛ وهو أكبر أقاليم أمريكا الثلاثة غني بالذهب والفضة والجواهر(٥)، ويذكر أن أسقف بلدة جيانا دون الونصو براوو قد أهداه جنزيراً من ذهب يساوي مئتي غرش، والسبب وراء هذه الهدية أن الموصلي أصلح بين هذا الأسقف ورئيس رهبان مار عبد الأحد واسمه برونسيال(٦). ويروي الموصلي تلك القصة عن جنزير ذهب الملك التي سمعها في بلدة جكويت، ويذكر أن الهنود ألقوا في بحيرة هذه البلدة جنزيراً من الذهب كان يخص الملك أنيكا المذكور لما قتله الإسبان، وذلك الجنزير كان يحمله أربعة آلاف رجل، وعندما كان يعمل الملك لعباً كانوا يمدون

(١) الذهب والعاصفة: ١٠٢.

(٢) الذهب والعاصفة: ١٠٢ .

(٣) الذهب والعاصفة: ٦٠.

(٤) الذهب والعاصفة: ١١١. ويُعدُّ فرانسيسكو أرنانديث دي كوردبا أول إسباني طاف بساحل شبه جزيرة يوكوتان عام ١٥١٧. واكتشفت في العام التالي حملة خوان دي جريخالبا ساحل الجزيرة نفسها، وأدركوا وجود إمبراطورية كبيرة للهنود هناك. ولقد تحمس لهذه الأنباء السعيدة (دييجوا بلاثكيث) حاكم كوبا الذي ما لبث أن قام بتعيين الشاب هرنان كورتيس (١٤٨٥-١٥٤٧) قائداً على رأس حملة عسكرية عام ١٥١٩، التي أسند إليها مهمة غزو ذلك البلد الهندي الغني الذي جلب لهم أخباره (جريخالبا). انظر: أوخينيو تشانج رودريجت: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ٨٨.

(٥) الذهب والعاصفة: ٩٢.

(٦)الذهب والعاصفة: ١٠٧.

هذا الجنزير على الأرض فيحيط بالبلدة، فكان يدخل كبار البلدة ويلعبون، ومن يقع منهم على الجنزير أو خارجه يضحكون عليه، والآن لا يعلم الإسبان في أي جانب من هذه البحيرة ألقوه. (١) ولا تخفى العناصر الخيالية في هذه القصة على القارئ، وهل يعقل أنه يوجد جنزير من الذهب بهذا الحجم الذي يلف بلدة كاملة، وإن كان موجوداً فعلاً لماذا لم يعثر عليه في البحيرة؟ وهو بهذا الحجم الكبير؟

ويذكر الموصلي أنه لما كان في بلاد ينكي دنيا ((المكسيك)) جاء مركب محملاً بالذهب، وكانت حمولته اثني عشر مليوناً، وأن هذا المركب كان يعرف بمركب الذهب، ويرافق هذا المركب مركبان آخران لحمايته من لصوص البحر. (٢)

هذا هو وصف الذهب وأماكن وجوده وطريقة استخراجها، وهو حسب وصف الموصلي كان واسع الانتشار في القارة الأمريكية، وطريقة استخراجها بدائية بسيطة لا تحتاج جهداً وعناء، وقد كان متداولاً في القصص الخيالية والواقعية الدائرة بين الناس، غير أن هذا الذهب الذي منيت به القارة الأمريكية لم يكن نعمة عليها، بل كان نقمة جاءت بالاحتلال الإسباني الذي مارس أبشع أنواع الاستغلال والعبودية والقتل ضد سكان هذه القارة من أجل الحصول على هذا الذهب.

(١) الذهب والعاصفة: ٨٤.

(٢) الذهب والعاصفة: ٩٨.

ثانياً: مَنَاجِمُ الفِضَّةِ، طريقةُ استخراجها، أماكنُها: (١)

كانت القارة الأمريكية متعددة المعادن والثروات المعدنية التي لم تقتصر على الذهب، بل شملت الفضة، والجواهر، والزمرد، وغيرها من المعادن التي كانت منتشرة في ربوع هذه القارة، والمستقرى لرحلة الموصلية يجد أن الفضة كانت منتشرة ومتداولة بين الناس أكثر من الذهب والمعادن الأخرى، وقد طاف الموصلية خلال رحلته القارة الأمريكية ذاكراً أماكن وجود الفضة، وآلية استخراجها مخلفاً ثروة معرفية عن هذا المعدن.

ويحدثنا عن معدن الفضة المسمى في تلك البلاد قندونوما، ويمضي واصفاً طريقة استخراج هذا المعدن، فيقول: "وفيها تفرجنا على إخراج الفضة، وكيف يطحنون الحجارة مثل التراب ويجعلونها في الماء كالطين، وبعد ذلك يمزجون فيه الزئبق وطوال النهار يحركونه مقدار عشرة أيام أو اثني عشر يوماً، والزئبق يجمع الفضة ويلتصق بها، ومن بعد الأيام المذكورة يغسلونه في حوض مجلد بجلود البقر، والماء يأخذ التراب ويودييه، والفضة ترسخ (ترسب) إلى أسفل. وهذه الصنعة تفرجت عليها عياناً" (٢)

ويحدثنا الموصلية عن سبك الفضة الذي كان يتم في بلدة جكوبيت التي كان حاكمها آنذاك

(١) وخير مثال على كثرة هذه الفضة قصة ملك الأنكا "أتوالابا" الأسير الذي شعر أن هؤلاء الغزاة الغرباء الإسبان لا يهتمهم سوى شيء واحد هو الحصول على الذهب والفضة، وفكر أنه يستطيع أن يفدي نفسه بفضة كبيرة من هذه المعادن الثمينة، فعرض على أسريه أن يطلقوا سراحه مقابل أن يملأ إحدى حجرات القصر بالذهب والفضة مرتين. وأجابه الغزاة إلى طلبه. وبعد الترتيبات اللازمة سرعان ما بدأت قوافل حيوان اللاما تخرج من كل شعاب المملكة وتقطع الطرق الملتوية الضيقة عبر جبال الأنديز متجهة إلى "كاجاماركا" حيث الملك السجين. وكانت هذه القوافل تحمل أطناناً من الكنوز المعدنية الثمينة التي برع فيها شعب الأنكا. تماثيل رجال وحيوان وطيور وكؤوس ذهبية وفضية، ومجوهرات ومصاغ وموائد قرابين ذهبية، وأوعية ضخمة مصنوعة من الذهب الخالص والفضة النقية، بالإضافة إلى ٧٠٠ من الصفائح الذهبية الكبيرة التي كانت تزين جدران معبد الشمس في العاصمة "كوشكو". وجيء بهذه الكنوز إلى الإسبان فدية للملك أتوالابا. وكل هذه الأشياء الرائعة الثمينة سحقت دون رحمة، وصهرت في قذور ضخمة لتحويلها إلى سبائك معدنية بواسطة الغزاة المتوحشين. وقد أرسلت بعض هذه التحف إلى إسبانية، ولكنها هناك لم تنتج من المصير نفسه، إذ أمر ملك الإسبان بصهرها أيضاً لسك العملة الإسبانية التي تحمل صورته. انظر: محمد العزب موسى، حضارات مفقودة، الدار المصرية اللبنانية، ط ٢، ١٩٩٢، ص ١٢٦-١٢٩.

(٢) الذهب والعاصفة: ٨١.

دون تتدريس ده برناجيا من بلاد بسكايا، وفي هذه البلدة بيت لسبك الفضة، ومعلمون ووكلاء من جانبه لجمع الفضة التي تخرج من المعدن المحيط بهذه البلدة، فهم يأتون بالفضة ويذیبونها ويسكبونها ويعملونها بارات ويدمغونها بختم الملك، وإن حمل أحد حمل فضة رميلة ما دَخَلَتْ إلى بيت المسبك تضبط وتودع في بيت المال^(١). وهذا النص يعكس مدى عناية الإسبان بالفضة، وحرصهم الشديد عليها لدرجة أنهم جعلوا بيتاً لسبك الفضة، وخصصوا لها معلمين، وجعلوا لهم وكلاء لجمع الفضة من القارة، وكل من يحمل الفضة الرميلة دون تصريح تصدر ويُعَرَّضُ للسجن والغرامة بعد مصادرة الفضة.

ويتحدث الموصلي عن الفضة التي كانت موجودة في بلدة أورورو التي يحكمها دن الوصو ديل كورال، فخارج هذه المدينة بثلاثة فراسخ يوجد معدن فضة غني جداً، وهذه الفضة يستخرجونها من غير زئبق، وذلك ضد القانون في جميع المعادن، ولا يوجد أحسن من هذه الفضة، وقد اشترى الموصلي من هذه الفضة بمبلغ خمسمئة غرش.^(٢)

ونلاحظ في هذا النص أن الموصلي قام بشراء الفضة، وقد مر قبل قليل أن كل من يشتري الفضة دون تصريح تصدر، ويعرض للسجن والغرامة بعد مصادرة الفضة، وقد نص الموصلي صراحة على هذه القوانين في قوله: "والفضة الرملية التي كانت معي لو تكون بيد غيري لكانوا أخذوها للملك"^(٣). وهذا دليل على أن الرجل كان يتمتع بنفوذ سياسي قوي في رحلته، ولا عجب في ذلك فهو الذي أخذ تصريحاً خطياً من الوصية على العرش الملكة أم الملك كارلوس الرابع، وهذا التصريح بمثابة أمر قاطع يجيز له العبور إلى أميركا أو بلاد هند الغرب^(٤)، أضف إلى ذلك علاقاته الطيبة مع الوزراء والحكام ورؤساء ديوان التفتيش ورجال الدين.

ويصف الموصلي جبل الفضة الموجود في بلدة برتوسي، ويذهب إلى أنه جبل معروف في كل الدنيا لزيادة غناه؛ لأنهم قد أخرجوا منه أمولاً لا يحصى عددها منذ مئة وأربعين عاماً من أطرافه الأربعة، وقد أحاطوه، وحفروه، وانحدروا إلى أسفله ليخرجوا الفضة، وقد جعلوا لهذا الجبل

(١)الذهب والعاصفة: ٨٣.

(٢)الذهب والعاصفة: ٨٧.

(٣)الذهب والعاصفة: ٩٤.

(٤) الذهب والعاصفة: ٤٥.

عواميد من خشب سنداً من كل جانب لئلاً يسقط الجبل؛ لأنه من الخارج يبدو صحيحاً، لكنه من الداخل فارغ، ويشتغل في باطنه في قطع الأحجار سبعمئة هندي مع أشخاص اشتروا لهم حصة من الملك؛ لأن لكل معدنجي بعض هنود معيّنين يشتغلوا في معدنه، وقد أصدر الملك مرسوماً بأن يعطوا من كل قرى الهنود رجالاً لقطع المعادن، والقانون هو من كل خمسة رجال يطلع واحد للشغل المذكور، وإذا لم يوافق حكام القرى على إرسالهم، فالوزير يغرمهم ويعزلهم^(١).

ويتحدث الموصلي عن طواحين الفضة في هذه البلدة واصفاً طريقة استخراج الفضة مرة ثانية، وإن تحدث عنها قبل قليل، فيقول: " وفي هذه البلدة سبعة وثلاثون طاحوناً يطحنون فيها حجارة الفضة ليلاً ونهاراً ما عدا أيام الآحاد والأعياد، وبعدما يطحنون الحجارة ناعماً يأخذون ذلك التراب مقدار خمسين قنطاراً ويجعلونه كومة ثم يجبلونه بالماء، ويحركونه بالمجارف عدة مرات، وإن طلب زيبقاً أزيد فيطعمونه حتى يكمل، فإن كانت طبيعته باردة فيخلطون فيه نحاساً حتى يسخن، وإن كانت طبيعته ساخنة فيضيفون إليه الرصاص حتى يبرد، والواسطة التي يفرقون بها هل هو سخن أم بارد هو أنهم يأخون منه في شقف فخار ويغسلونه بالماء حتى يروح الطين فتبقى الفضة والزيبق فيملسه (يدلكه) بإصبعه على شقف الفخار المذكور فإذا تفرط (تفرط) فهو سخن، وإذا انطلس (الصق) فهو بارد، وإذا كان مطبوخاً ومعتدلاً كاملاً فيجيء ممتداً على الفخار ومبرقاً، ثم يجعلونه في حوض ماء، والماء جارٍ عليه يحركونه بالماء بصنعة، فالفضة مع الزيبق يرسخان إلى أسفل، والتراب يأخذه الماء إلى خارج، فلما يكملون غسل تلك الجبلية كلها يسدون ويقطعون الماء الفائض عليه، وينظفون الحوض من الماء، ويستخرجون تلك الفضة والزيبق الراكنين جميعاً، ثم يجعلونه في أكياس من جنفاص يعلقونها، وتحت هذه الأكياس صناديق مجلدة من جلود البقر، فيهرب الزيبق من الأكياس، ويقع في تلك الصناديق الجلدة، وتبقى الفضة خالصة فقط في الأكياس مثل قوالب رؤوس السكر، وجميع هذه البضائع اللازمة لعمل استخراج الفضة تدور دواليبها بالماء مثل الطواحين وغيرها"^(٢)

ويذكر الموصلي قصة خيالة حَدَّثَهُ بها صديق له نقلاً عن والده، وهي أنه كان لوالده معدن

(١) الذهب والعاصفة: ٨٨.

(٢) الذهب والعاصفة: ٨٨-٨٩. وللتوسع في طريقة استخراج الزئبق انظر: مورييس كروزيه، تاريخ الحضارات

العام، ج ٥، ص ٥٠٦.

في هذا الجبل، لكنه قليل الفضة، فأمر العمال الهنود أن يردموه، ويسدوه بتلك الحجارة التي أخرجوها منه، ففعلوا كما أمرهم، وسدوه، وبدأوا يشتغلون في غير جانب، فمن بعد سبع وثلاثين سنة راح صاحبي هذا المذكور، وفتح ذلك المعدن فوجد أن تلك الحجارة التي كانت غير نافعة قد تحولت وتبدلت في تلك الأيام، واستوت كالثمرة، فأخرجوها وأخذوا فضتها، فأعطت كل واحدة ثلاثين؛ لأن إقليم هذا الجبل مسلط عليه نجم يسمى عطار، وهذا النجم يطبخ الفضة^(١).

مما سبق نلاحظ مدى انتشار الفضة في رحاب القارة الأمريكية، ونلاحظ مدى اهتمام الناس بها هذا الاهتمام الذي فاق اهتمامهم بالذهب، فهي أكثر عمالاً، وأدق صناعة واستخراجاً، وأكثر وجوداً، بل إنه يذكر أنه شاهد في بلدة واحدة سبعة وثلاثين طاحونة يطحنون فيها حجارة الفضة ليلاً ونهاراً، والعمل يكون طلية أيام الأسبوع ما عدا أيام الآحاد والأعياد، ولعل السبب في ذلك عائد إلى سعة انتشار هذا المعدن أكثر من انتشار الذهب.

كما صور الموصلي مدى عناية الإسبان بالفضة وحرصهم الشديد عليها لدرجة أنهم جعلوا بيتاً لسبك الفضة، وخصصوا لها معلمين، وجعلوا لهم وكلاء لجمع الفضة من القارة، وأصدر الملك قانوناً ينص على أن لكل معدنجي بعض هنود معينين يشتغلون في معدنه، وأصدر الملك مرسوماً ينص أن يعطوا من كل قرى الهنود رجالاً لقطع المعادن، والقانون هو من كل خمسة رجال يطلع واحد للعمل في الفضة، وإذا لم يوافق حكام القرى على إرسالهم، فالوزير يغرمهم ويعزلهم، وكل من يحمل الفضة الرميثة دون تصريح تصادر ويعرض للسجن والغرامة بعد مصادرة الفضة.

(١)الذهب والعاصفة: ٨٩.

ثالثاً: الزئبق.

وجد الإسبانين مناجم للزئبق في البيرو، فتزايدت كميات الإنتاج الأمريكية بشكل مذهل. وكانت المناجم ملكاً للتاج الملكي الذي يمنحها للمستغلين، والذين يتعهدون بتسليم الملك جزءاً من الإنتاج، يصل إلى النصف أو الثلث في أول الأمر، ثم إلى الخمس فيما بعد ذلك. وكان هذا المعدن ينقل بحراً من البيرو إلى بنما، ثم على ظهر البغال لعبور البرزخ، ولشحنه من جديد على سفن إسبانية متسعة وبطيئة^(١).

وذكر الموصلي أن بلدة خوان كاباليكا الصغيرة الحجم تحتوي على جبل فيه معدن الزئبق الذي كان كثير الانتشار في هذه المنطقة، وذكر أن أهلها كثيرو المرض بسبب هبوب الرياح من هذا الجبل المليء بالزئبق.

وكان الزئبق كثير الاستعمال في استخراج الفضة وقد ذكر الموصلي هذا الأمر غير مرة في رحلته^(٢). كما ذكر أنهم كانوا يستخدمون النحاس والرصاص أيضاً في استخراج الفضة من الحجارة^(٣).

ووصف طريقة استخراج الزئبق، حيث يقطع العمال الحجارة ويخرجونها من تحت الأرض إلى فوق، ويأخذونه إلى بيت جعلوا أرضه ثقوباً ملصوقة ببعضها موضوعاً في كل منها برنج ((خابية نحاس))، والبرانج مصفوفة ومنصوبة صفوفاً صفوفاً، ولها فم واحد منصوب إلى فوق، والفم الأسفل مسدود وغير مفتوح كمثل أجران، فيضعون حجارة الزئبق بصنعة مصطفة فوق البرنج كمثل عمل الفاخوري في أفران الخزف، وكذلك يضعون الحجارة على البرانج، وهذا البيت له سقف مغطى، لكنه قوي عال، وفيه ثقوب لأجل منفذ الدخان، ثم يضعون الحطب فوق تلك الحجارة، ويضرمون به النار فيشعل وتسخن الحجارة سخونة قوية، ويجري منها الزئبق هارباً ومنحدرًا داخل تلك البرانج، فعند ذلك يفهم معلمو الزئبق فيهدئون النار، ويخلونه يوماً وليلة حتى يبرد وبعده يرفعون الحجارة والرماد ويلقونه خارجاً، ويخرجون الزئبق من تلك البرانج^(٤).

(١) جلال يحيى، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، ج٤، ص ٢٣٩.

(٢) الذهب والعاصفة: ٨١، ٨٨.

(٣) الذهب والعاصفة: ٨٨.

(٤) الذهب والعاصفة: ٧٣ - ٧٤. وانظر أيضاً: موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، ج٥، ص ٥٠٦.

وقد حظي الزئبق باهتمام الملك الذي كان يعين وكيلاً من قبله لضبط الكميات المستخرجة منه، وكان يعطي لكل قنطار اثنين وخمسين غرشاً، ويبيع وكيل الملك القنطار للذين يستخرجون الفضة بتسعين قنطار؛ لأنهم يستخدمونه في استخراج الفضة من الحجارة أيضاً. وقد أصدر الملك أمراً ينص على أنه لا يقدر أحد من أصحاب المعادن أن يبيع زئبقاً أو يشتريه، وإن تجاوز أحد هذه الشروط يذهب ماله ويحلون قتله^(١).

ويذكر الموصلي أن أصحاب الزئبق في بلدة خوان كاباليكا- الذين صنعوا هيكلاً لهم من المعدن طلبوا منه أن يقدس معادنها ويبارك عليها- قدموا له خمسين قنطاراً من الزئبق، وقالوا له: اصبر حتى نستخرج الزئبق من الحجارة ونعطيك منها، لكنه رفض ذلك؛ لأنه خاف أن يصاب بالمرض نتيجة تقلب الرياح في هذه البلدة، غير أنه ترك وكيلاً عنه ليستلم له الزئبق الذي وعد به^(٢).

(١) الذهب والعاصفة: ٧٤. ويذكر نوري الجراح أنه قرأ في كتاب الأب فولين المرسل الفرنسي في البيرو، وهو من معاصري الموصلي وصفاً مسهباً لهذه المناجم، قال: إن مناجم الزئبق في كل أمركة الجنوبية محفورة في جبل واسع بالقرب من غوانكافاليكا، وهي ممتدة تحت جبل حفرت فيه منازل ودروب ومعبد، والمناجم مضاءة بعدد لا يحصى من الشموع، ثم وصف استخراج المعدن وصفاً لا يكاد يفترق عما جاء في متن رحلتنا سوى أنه قال: إن سعر القنطار ثمانين غرشاً. انظر: الذهب والعاصفة: ٧٤، الحاشية (٦٨)، وموريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، ج ٥، ص ٥٠٦.

(٢) الذهب والعاصفة: ٧٤.

رابعاً: الزُّمرد، ، البونو، القليوما، المرمر، والجواهر.

مع بقاء الكنز الملكي الأمريكي طي الكتمان، فإن سجل الحملة الإسبانية يسجل دخول ثروات متزايدة الأهمية، وسرعان ما سيطر الغزاة المعتدون على البلاد وقادهم جشعهم في البحث عن المعادن إلى اقتراف أشنع الجرائم، فقد وصل بهم الأمر إلى انتزاع الزمرد والجواهر والذهب الذي تقضي الطقوس بدفنه في بطون الموتى. وعلموا أن الهنود في منطقة نييكا يستخرجون ذهباً شديد النقاء من الأرض، كما بلغهم وجود منجم زمرد مبهـر، فتفاقت صراعات حكام الإسبان وقادتهم للسيطرة على أرض الرخاء تلك^(١).

وتبين خلال رحلة الموصلي أن القارة الأمريكية كانت مليئة بالمعادن المتعددة المتنوعة، وقد ذكر الموصلي كل هذه المعادن، ووصف طرق استخراجها، وأماكن وجودها، وذكر أيضاً أن سكان القارة عنوا عناية فائقة بمعادنها حتى إنهم خلعوا عليها طابعاً دينياً، فكانوا يصنعوا هيكلاً في مناجم استخراج المعادن، وكانوا يقيمون طقوساً دينية من أجلها.

وذكر الموصلي أن بلاد سانتافه^(٢) مليئة بالحجارة التي يستخرجون منها الزمرد، وهو من بلدة كرتاخينا يسافرون في النهر صاعدين إلى هذه الأرض التي تكثر فيها الحجارة التي يستخرج منها الزمرد أيضاً^(٣)، كما يكثر وجود الزمرد في ناحية سانتافه^(٤). ويكثر الزمرد في بلدة تسمى جوكز، وهي من أوسع أقاليم القارة الأمريكية، وهذا الإقليم كان معروفاً بغناه بالزمرد.^(٥)

ويتحدث الموصلي عن معدن آخر زاره أثناء مروره بقرية تسمى لانبا، وهذا المعدن يسمى بونو، وصاحب هذا المعدن رجل غني اسمه دون خوسيف، ويذكر الموصلي أن هذا الرجل كان يخرج من هذا المعدن كل يوم ستة آلاف غرش، فحسده بعض أعدائه وأقاموا عليه بهتاناً وشهدوا زوراً قائلين: إن هذا اتفق مع أناس بيض، ويريد أن يصبح حاكماً على هذه البلدة، فأخبروا الوزير بذلك، فجاء الوزير إلى جبل يسمى معادن بونا، حيث يسكن صاحب هذا المعدن، فأمسكه وأخذه

(١) حسام النافيف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ١٠٥.

(٢) عاصمة: بلاد غرناطة الجديدة أو غرنادا، والآن عاصمة كولومبيا.

(٣) الذهب والعاصفة: ٥٢.

(٤) الذهب والعاصفة: ٥٢.

(٥) الذهب والعاصفة: ٩٢.

معه إلى بلد ليما، وشنق بعض أصحاب هذا الرجل، وضبط أموالهم، كما ضبط هذا المعدن، وضبط معها حجارة كانوا قد استخرجوها من هذا الجبل من أجل أخذ فضتها التي قدر وزنها بعشرة آلاف قنطار، وهناك أودعه السجن، وأصدر حكماً بقتله، لكن الرجل طلب منهم أن يعرضوا أمره على ملك إسبانيا فإن وافق على قتله يقتلوه، لكن الوزير لم يستجب لطلبه فقام بقتله، ونهبوا أمواله^(١).

ويتحدث الموصلي عن جبل معدن المرمر الذي يبعد عن قرية كوناما بنصف فرسخ، وهو حجر كالبلور، وأراد حاكم تلك القرية أن يصنع من هذا المرمر حماماً مثل قبة صغيرة مركبة من هذه الحجارة، وأراد أن يرسل من هذا الحجر إلى ملك إسبانيا ليستخدمها في البناء، لكن المنية سبقت إلى هذا الحاكم قبل أن ينجز عمله^(٢).

وذكر الموصلي أنه ذهب لمشاهدة معدن آخر اسمه قليوما، وكان موجوداً في بلدة بوقر تنبو، لكنه لم يصف هذا المعدن، ولا ذكر مقابله؛ لهذا لا نعرف ما مراده بهذا المعدن، وما هي خصائصه، ولماذا يستخدم^(٣).

وتوجد الجواهر على نحو كبير في إقليم جوكو؛ وهو إقليم كبير في القارة، ومعروف بكثرة معادنه التي تتوزع في نواحيه^(٤).

وهكذا نجد أن القارة الأمريكية كانت متعددة المعادن والثروات الطبيعية التي كانت متناثرة في ربوعها، وقد وقف الموصلي خلال رحلته على هذه المعادن جميعاً، لكنه لم يتحدث عنها حديثه عن الفضة والذهب، ولعل السبب وراء ذلك عائد إلى قلة انتشارها من ناحية، وإلى كثرة الفضة والذهب من ناحية أخرى، وكثرة المشتغلين في هذين المعدنين مقارنة مع بقية المعادن الأخرى من ناحية ثالثة.

(١) الذهب والعاصفة: ٨١ - ٨٢.

(٢) الذهب والعاصفة: ٨٥.

(٣) الذهب والعاصفة: ٨١.

(٤) الذهب والعاصفة: ٩٢.

خامساً: الصناعاتُ.

حاولت إسبانيا الإشراف على الصناعات الناشئة في الهند دون أن تتمكن من القيام بذلك بطريقة عملية، وكانت المكسيك تنتج الحرير، وبيرو تنتج الأصواف، وكانت هذه السلع منخفضة السعر، وهددت بمنافسة الصناعة الإسبانية. فمنعت مدريد هذه الصناعة، ولكن نواب الملك لم ينفذوا هذه القرارات.

وشملت الصناعات المحلية حفظ الأطعمة، وصناعة الأثاث، والأدوات الزراعية، ولعدم وجود مواد أولية تستبدل بعض الصناعات في مستعمرات نيوانجلند شجع على ازدهار الصناعة في هذه المستعمرات.

يذكر الموصلي أن الصناعات السائدة آنذاك في القارة الأمريكية كان بدائية ذات أدوات بسيطة محدودة، ولم يكن لها انتشار كثير، ولا كان لها إنتاج غزير؛ لأنها صناعات تقوم على تأمين بعض المعدات التي تطلبها الحياة المحلية البسيطة.

وبدأ السكان المحليون يتأثرون في الإسبان، ومقدرتهم الصناعية التي ألفوها شيئاً جديداً عليهم، والسكان المحليون وإن كان أغلبهم يعملون بالزراعة، لكنه بقي جزء منهم يعمل بالتجارة والصناعات اليدوية. وقد شكل هؤلاء تاريخ الصناعة في القارة الأمريكية طيلة الفترات التاريخية، ثم تهيأ لهم المناخ الصناعي الملائم في عهد الإسبان لتكوين صناعة محلية ذات أسس ومعايير محددة.

ويتحدث الموصلي عن زيارته إلى البيت الذي يضرىون فيه الدنانير الذي يسمى ((السكتخانة))، وفيه يصنعون أرباع وأنصاف الدنانير، ويعمل فيه أربعون عبداً، واثنان عشر رجلاً إسبانياً^(١).

والذين يعملون في ضرب النقود هم أربعة رجال أغنياء جداً، وكل أسبوع يشتغل أحدهم في صناعة النقود في الكرخانة، ويقطع في الأسبوع مئتي ألف غرش أو أكثر بقليل، وهم يشترون الفضة من أصحاب المعادن، ويقطعونها غروشاً، والفضة التي يشترونها يكون وزنها مئة مثقال، ويكون سعرها اثني عشر غرشاً ونصفاً، فحين يصكونها تصبح ستة عشر غرشاً^(٢).

(١) الذهب والعاصفة: ٨٧.

(٢) الذهب والعاصفة: ٨٩.

ويصنع الأمريكيون قناديل من الفضة بطريقة غاية في الجمال والفن والروعة، وسعره يكون غالباً جذاً، ويبلغ ألفاً وأربعمئة وخمسين غرشاً، وقد أحضر الموصلي معه قنديلاً، وأهداه إلى البابا، فلما شاهده الكردينالية تعجبوا كثيراً من روعته، وجمال صنعه، ودقة زخرفته. ^(١)

وهم يصنعون في بلادهم جوحاً مثل جوح اللندرا المعروف في فرنسا ولندن ^(٢)، وشاهد الموصلي في ليما المعامل التي يصنعون فيها الجوخ، ^(٣) ويصنعون أحزمة النساء، والثياب، والأغطية من أشجار القطن الموجودة بكثرة في بلادهم ^(٤).

وعندهم نوع من الزوارق يسمى بالصا، وهو عبارة أعواد يابسة مربوطة ببعضها بعضاً، ويضعون فوقها خشبة، ويغطون الخشبة بالحشيش، ويستخدمونها لنقل الناس والأغراض ^(٥)، ويصنعون القبعات من صوف غزال البيكونيا ^(٦).

ويصنعون الصليب من المياه المتحجرة ^(٧)، ويصنعون جنازير الذهب التي يبلغ سعر بعضها مئتي غرش ^(٨)، ويذكر الموصلي أنهم صنعوا للملك الهندي أنيكا جنزيراً من ذهب، وهذا الجنزير يحمله أربعة آلاف رجل، ويمدونه حول البلدة كاملة ^(٩).

(١) الذهب والعاصفة: ١٢٣.

(٢) الذهب والعاصفة: ٦١.

(٣) الذهب والعاصفة: ٦٩.

(٤) الذهب والعاصفة: ٦٨.

(٥) الذهب والعاصفة: ٦٩.

(٦) الذهب والعاصفة: ٧٧.

(٧) الذهب والعاصفة: ٧٥.

(٨) الذهب والعاصفة: ٧٥.

(٩) الذهب والعاصفة: ٨٤.

وعندهم معامل للسكر يعمل فيها العبيد السود^(١)، وتنتج هذه المعامل كل سنة ثلاثين ألف خند كاري من السكر، وتوجد هذه المعامل في بلدة موسكو^(٢). وفي القارة الأمريكية يصنعون المربيات، ويضعونها في علب، وقد اشترى الموصلني أثناء وجوده في جزيرة لاوانا تسعة صناديق من هذه المربيات حتى يقدمها هدايا لأصدقائه وأصحابه^(٣).

وهكذا يورد الموصلني في رحلته بعض الصناعات المحلية، ذاهباً إلى أنهم في بعض الصناعات كانوا أعظم الأمم إحكاماً للصناعات، وأشدّهم إتقاناً ودقة صنعهم.

ويذكر أيضاً ممارسات الإسبان القائمة على الحظر والاحتكار الذي فرض على القارة فاضطرت للنزول عنده والأخذ به، فألزم سكانها الشراء بسعر عال والبيع بسعر متدن منخفض، وهذا الأمر حال إلى حد بعيد دون تطوير مرافق الزراعة والصناعة فيها. ففيه كل المساوئ التي عانت منه البرازيل في النظام البرتغالي، فالطريقة التي يجري عليها الاستثمار لا تساعد قط على توفير ما تحتاج إليه البلاد من رؤوس الأموال واليد العاملة. فإسبانيا والقائمون بأعمال التهريب من قراصنة البر والبحر، يسلبون الإمبراطورية، ما لديها من معادن ثمينة، فيقل النقد من التداول، وتتأخر حركة البيع والشراء والصناعة والزراعة.

(١) لدرجة أن المهاجمين تفرغوا طوال سنوات للنهب وإبادة البشر واصطياد العبيد دون التفكير في المجاعات التي يهيئون لها بمحوهم التام لكل أشكال الحياة. انظر: لاوريت سيجولانه: أمريكا اللاتينية، الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية، ص ٣٢-٣٣.

(٢) الذهب والعاصفة: ٧٨

(٣) الذهب والعاصفة: ١٢٢.

سادساً: الأسعار والمقاييس والأوزان وأجور النقل.

كان وضع الرقيق الأسود في القارة الأمريكية وضعاً مزرئاً، فهم يعملون في المزارع من الفجر إلى الليل، ويشرف عليهم رجل زنجي مثلهم يضربهم بالسوط حال تناقلهم وتباطؤهم عن العمل. وكان يشرف على الجميع رجل أبيض يراقب العمل عن كثب. وكان طعامهم رخيصاً وغير مكلف ولا أجور لهم. وكانوا جهلة ليس من حقهم التعلم ودخول المدارس. ويمارسون عملاً مضنياً وشاقاً و يحضون بعناية قليلة وجهل وتأزم في أحوالهم النفسية، كل هذا سبب هوة واسعة بين الرجل الأبيض والرجل الأسود، أما اليد العاملة فقد وفرها الهنود بأجور زهيدة بلغ من تدنيها أن العمل اليدوي حذر على البيض.

تحدث الموصلي في رحلته كثيراً عن الأوزان والمقاييس والأسعار التي كانت متعارفة بين سكان القارة، ورسم في الوقت نفسه الأجور التي تستخدم في نقل البضائع والأشخاص من مكان إلى آخر، شارحاً كثيراً من تلك الأشياء، وذاكراً ما يقابلها من مسميات في بلاده.

فالسفن تسافر من إسبانيا إلى أمريكا كل ثلاث سنوات مرة، والمسافة بين إسبانيا والقارة الأمريكية ألف وخمسة فرسخ. وقيمة الذهب والفضة التي ترجع به السفن الإسبانية من القارة الأمريكية عشرون أو خمسة وعشرون مليوناً، وكل مليون قدره عشر كرات. ^(١)، وكل كرت تقدر بمئة ألف غرش ^(٢)، وكان تجار البيرو يحضرون من بلادهم ذهباً وفضة تقدر بخمسة وعشرين لكاً ^(٣)، ويستخدم الشبر مقاييساً في هذه القارة ^(٤).

ويذكر الموصلي أن الأسعار في بلدة ليما كانت غالية جداً، فقد كان ثمن الدجاجة غرشاً ونصف ^(٥)، وكان سعر الدجاجة في قرية مادلينا تباع بغرش ونصف، والغنمة تباع بخمسة قروش ^(٦).

(١) الذهب والعاصفة: ٤٧.

(٢) الذهب والعاصفة: ٥٣.

(٣) الذهب والعاصفة: ٥١. والك يساوي عشرة ملايين.

(٤) الذهب والعاصفة: ٥٧.

(٥) الذهب والعاصفة: ٧٢.

(٦) الذهب والعاصفة: ٩٧.

وكانت آجار المنازل في ميخيكو ثلاثمئة وستين غرشاً في السنة، وسعر العربة مع البغال ستمئة وخمسون غرشاً^(١).

ويذكر الموصلي أنه التقى في قرية أمابلا رجلاً إسبانياً قادماً من ينكي دنيا ذاهباً إلى البيرو، وقد باع فرسه ولجامها لرجل هندي بغرشين ونصف؛ لأنه يريد أن يعبر المضيق؛ لذلك باعها بهذا الثمن البخس^(٢)

وكان وكيل الملك يشتري كل قنطار من الزئبق باثنين وخمسين غرشاً، والقنطار في تلك البلاد ستة أمان خند كاري، ويبيع القنطار بتسعين غرشاً للذين يعملون في استخراج الفضة من الحجارة^(٣). ومن الموازين التي ذكرها الموصلي البارة، وكل بارة تساوي ألف وثلاثمئة غرش^(٤)

وكان سعر الغرفة في السفن العائدة من القارة الأمريكية إلى إسبانيا ألف غرش مع الأكل والشرب، والغرفة طولها ذراعان، وعرضها ذراع وثلاث، وارتفاعها ذراع ونصف^(٥).

والنقل بين سكان القارة يكون بوساطة عربة تجرها أربعة بغال ويقودها عبد أسود^(٦)، وكانت أجرة كل بغل ثلاثين غرشاً عن كل حمل^(٧). وإذا ما مروا بنهر أو جسر يقوم الهنود بمهمة نقل البضائع على ظهورهم بين طرفي النهر أو الجسر^(٨).

وكانت الفضة تنقل من باناما إلى بورتو بلو على ألف بغل، ويستغرق النقل شهراً كاملاً، والمسافة ثمانية عشر فرسخاً، وفي منتصف الطريق يوجد نهر؛ لذلك يقومون بنقل البضائع بواسطة زوارق بحرية يسمونها كتاوس^(٩).

(١)الذهب والعاصفة: ١١٠.

(٢)الذهب والعاصفة: ١٠٤.

(٣)الذهب والعاصفة: ٧٤.

(٤)الذهب والعاصفة: ٨٤. والبارة كلمة فارسية تعني القطعة من الشيء.

(٥)الذهب والعاصفة: ١٢١.

(٦)الذهب والعاصفة: ٧٢، ٧٩.

(٧)الذهب والعاصفة: ٥٢.

(٨)الذهب والعاصفة: ٧٦.

(٩)الذهب والعاصفة: ٩٧.

سابعاً: خَزِينَةُ الْمَلِكِ الْإِسْبَانِي.

منذ عام ١٥٠٣م، تأسست في إشبيلية غرفة تجارة الهند التي أشرفت على كل تجارة الهند، وسهرت بصورة خاصة على جمع الحصة الملكية التي حددت بعشرين بالمئة من قيمة المعادن الثمينة. وسلم القباطنة ايصالات بهذه الضريبة^(١).

وفي عام ١٧٦٨ تم نقل مقر غرفة التجارة إلى قádiz، ثم تم إلغاؤها عام ١٧٩١م نتيجة تحرير التجارة في الموانئ الإسبانية عام ١٧٧٨م.

وكان الهدف من إنشائها تنفيذ القوانين ذات الصلة بالتجارة مع المستعمرات في القارة الأمريكية، إذ كانت تسجل السفن الداخلة والخارجة من إسبانية، وتحكم في المنازعات التجارية والجنائية المختلفة التي تنشأ بين التجار في المستعمرات وتجار البلد الأم، وكان من حقها التدخل في حال أن الجرم تم ارتكابه في المستعمرات، أو في طريق العودة، أو الذهاب من وإلى المستعمرات.

وكانت هيئة التجارة هي التي تشرف على عملية التبادل التجاري بين إسبانيا ومستعمراتها، ولها في إشبيلية اختصاصات إدارة الهجرة، وتشرف على مدرسة بحرية، وعلى محكمة تجارية، وغرفة للقناصل. وكانت هذه الهيئة آلة إدارية ثقيلة تخزن البضائع، وتشرف على عمليات الشحن والتفريغ، وتحصل الخمس الخاص بالتاج. وكانت عبارة عن وزارة لتجارة الهند، ويشرف رئيسها على أمن القوافل في المحيط الأطلسي، وتستلم خزائنه الرسوم الجمركية على البضائع، ويستلم حصص ورسوم أصحاب الشركات وأصحاب السفن الخاصة مقابل حمايته لتجارته. وكان هناك موظف عام يعينه القصر، ويشرف على قوافل وأساطيل الهند، ويرسل إلى الإدارات العامة في العالم الجديد كل ما يلزمها من الزئبق اللازم لتنقية المعادن، و الأسلحة اللازمة^(٢).

وكانت هيئة التجارة مؤسسة خاضعة للدولة، وتشرف على العمليات الفردية الخاصة. فكانت تشرف على العملية دون أن تقوم بتنظيمها، بل تترك للموردين والمصدرين في قádiz وإشبيلية اتخاذ القرارات اللازمة لهم.

(1) Pierre CHAUNU, Op. Cit, p 24.

(2) جلال يحيى: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، ج ٤، ص ٢٤١.

وتحدّث الموصلي في رحلته غير مرة عن خزانة الملك، واصفاً إياها بكلمات تتم عن مدى أهميتها، وكبر حجمها، والعناية التي حظيت بها، فلها سفن خاصة، ويتولى أمرها جنرال يكلف من الملك مباشرة، ويكون لها حراس كثيرون، وسفن أخرى ترافقها خوفاً من اللصوص الذين كانوا يطمعون بها؛ لما فيها من ثروات ومعادن كثير.

وتغادر السفن من إسبانيا إلى القارة الأمريكية مرة كل ثلاث سنوات من أجل إحضار خزينة الملك من تلك البلاد، والخزينة مؤلفة من ذهب وفضة بقيمة عشرين أو خمسة وعشرين مليوناً، وكل مليون يساوي عشر كرات من الذهب أو الفضة^(١)، وكل كرة تساوي مئة ألف غرش^(٢)، وقد شاهد الموصلي هذه الخزينة عندما أدخلها الرجال في السفن فوجدها مؤلفة من شيء لا يحصى من الذهب والفضة.^(٣)

وعندما يحضر تجار البيرو^(٤) الذهب والفضة إلى باناما يتم نقل الذهب والفضة على بغال إلى بورتوبلو؛ لأن الدروب في هذه المنطقة وعرة وشديدة الصعوبة، وتبلغ هذه المسافة ثمانية عشر فرسخاً، وتستغرق شهراً كاملاً، وأجرة كل بغل ثلاثين غرشاً، وفي منتصف الطريق يوجد نهر صغير يقطعونه بزوارق يسمونها كتاوس^(٥).

(١)الذهب والعاصفة: ٤٧.

(٢)الذهب والعاصفة: ٥٣.

(٣)الذهب والعاصفة: ٥٢.

(٤) مملكة قشتالة الجديدة: مذ شاعت أول الأخبار عن وجودها عام ١٥١٣، شكّلت البيرو محط اهتمام جميع المغامرين، فهي الأرض الموعودة التي حلموا جميعاً بغزوها، وكانت محركاً للحملات التي أخضعت أمريكا الجنوبية كلها خلال ثلاثين سنة. فبعد أن قطع رأس فاسكو نونيث دي بالبوا، واصل حاكم كاستيلا دل أورو (بنما) مشروع خصمه، دون أن يصيب نجاحاً في البدء: فالقائد الذي بعث به لاستكشاف المحيط الهادئ اكتفى بنهب الشواطئ دون أن يجرؤ على المجازفة بالتوغل إلى الداخل. وفي عام ١٥٢٢ قرر مستوطنان متواضعان أن يضمّا ما معهما من أموال ليمولا حملة جديدة ويقتسما مكاسبهما في حصص متساوية مع حاكم بنما، مقابل إضافته الشرعية على عمليات السلب، ومنحهما رتبة قائد التي لا بد منها للفتح. وهكذا انطلق فرانشيسكو بيثارو ودييغو دي ألماغرو الجنديان المغموران اللذان لا يتقنان القراءة والكتابة نحو مملكة الذهب النائية التي سيدمرانها. انظر: لاوريث سيجولانه: أمريكا اللاتينية الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية، ص ٥٣.

(٥)الذهب والعاصفة: ٩٧.

كما أن أصحاب دار صناعة الدنانير ((السكتخانه)) يعطون كل سنة من هذه المعادن عشوراً للملك تقدر بقيمة مليونين ونصف. (١)

وهذه الخزينة لا تذهب كلها إلى إسبانيا، بل توزع منها الرواتب والأجور على النحو الآتي: أرباب الوظائف، والجنود، وحراس الجزر، وحراس القلاع، والسفن التي تنقل البضائع، والجنود الذين على جبهات القتال. (٢)

وعلى هذا النحو يصور الموصلي الإيديولوجية الإسبانية التي نشأت وتبلورت في ظلّ المجتمع الأمريكي الزراعي التقليدي، والملك في هذا المجتمع ذو طبيعة خاصة؛ إذ إنه يعود إلى ذرية تملك قوة خاصة تنقلها إلى أفرادها بواسطة الإرث، وهو يجسّد دور الوسيط بين الإسبان والأمريكان، ويشكّل بذلك الخط الأوسط أو العمود الذي يصل بينهما، وقد تمثل أثر هذه الأفكار في تمركز السلطة واستبدادها، فلا يفترض أن يكون هناك أكثر من حاكم واحد في المجتمع السياسي، فالملك أو حتى رب الأسرة يملك كلّ شيء، ويتمتع بكل السلطات، وحين يتكلم يكون القرار قد اتخذ وعلى الجميع تنفيذه.

(١)الذهب والعاصفة: ٨٩.

(٢)الذهب والعاصفة: ٥٣.

ثامناً: المُبادلاتِ التَّجاريَّةُ والبضائعُ والسِّلَعُ.

وكان الأزتيك يعرفون الذهب والرصاص والبرونز، ولكنهم كانوا يجهلون الحديد، وكانت تجارتهم بدائية وتعتمد على المبادلة والمقايضة، أو تستخدم بعض قطع القصدير أو النحاس، أو كمية من التبر في أنابيب من ريش الطيور كعملة بدائية. وكانوا لا يعرفون العجلات أو الخيول أو أي دابة من دواب الحمل، فكان الحمالون يحملون كل ما يرغبون في نقله، ويسيروا في ممرات صغيرة وضيقة، شقها المساجين وسط الجبال أو الغابات وكانت الممرات نفسها هي الطرق الوحيدة الموجودة في ذلك العصر التي كان كل من الحجاج والحملات العسكرية تستخدمها. وكان الحج إجبارياً كما كان يسمح بالإشراف على استعباد القبائل المهزومة. وأما الحملات العسكرية فكانت تسهل تموين المعابد بالضحايا البشرية اللازمة لإرضاء الآلهة، وكانت الإمبراطورية تنقسم إلى عدد من الأقاليم، يتمتع كل منها بالاستقلال الذاتي، سواء في الشؤون الإدارية أم السياسية، ولكنه كان يرسل كمية معينة من الضرائب العينية، من ملابس وحبوب وفواكه ونسور حية وعقود من الذهب، كما كان يرسل عدداً معيناً من الرجال للخدمة في جيوش الإمبراطورية. ولقد عاشت إمبراطورية الأزتيك منطوية على نفسها، ولم تتصل بإمبراطورية الأنكا التي نمت إلى الجنوب ولا سيما أن الجبال والبحار والمستنقعات والغابات والمحميات كانت تفصل بينهما^١.

ذكر الموصلي أن السفن الإسبانية كانت تتوجه إلى أكبر ميناء في القارة الأمريكية، فهناك بلدة بوتوسي التي وصفت بأنها أعظم ميناء أمريكي وإليها ينتهي وصول التجار والسفن، ولا تعدلها مدينة في الكبر وكثرة البضائع واجتماع التجار إليها، وكان بين شحنات السفن كميات هائلة من الهدايا والبضائع، إضافة على المؤن واللوازم اليومية كالغذاء، والمياه العذبة، والزيت، والملح، والشاي، والشمع وغيرها. وكان هذا الأسطول يشكل مشهداً رائعاً وهو يشق طريقه بين المياه التي لا حد يفصلها عن السماء، والأمواج تتلاطم كالجبال، ويمخر العباب بملء أشعرته البيضاء ليل نهار بسرعة كأنه يمشي في مسلك هادئ، وتستمر حتى تبلغ القارة الأمريكية التي تتوفر فيها البضائع التي تفوق الحصر، وتباع بأثمان رخيصة من مثل الأقمشة الفاخرة، واللآلئ، والمعادن التي تملأ البلاد.

(١) جلال يحيى: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، ص ٢١١.

وذكر الموصلي أن سفن الإسبان تذهب محملة بالبضائع لكي يبيعوها في تلك البلاد، وتعود حاملة خزينة الملك ^(١) المكونة من الذهب والفضة والزئبق، وغيرها من المعادن التي اشتهرت فيها تلك القارة الأمريكية، ويتم تبادل البضائع في بورتوبلو حيث يجتمع التجار الإسبان مع التجار الأمريكيان، ويتبادلون البضائع مدة أربعين يوماً^(٢).

وللتجار الإسبان شركاء في القارة الأمريكية يتبادلون فيما بينهم البضائع والرسائل عن طريق السفن الإسبانية^(٣).

ولم يكن عند الهنود في ذلك الزمن نقود يتعاملون بها، بل كانوا يستبدلون شيئاً بشيء في عمليات البيع والشراء الدائرة بينهم^(٤).

وهكذا يصور الموصلي حال تلك القارة التي غدت سوق تصريف لبضائع الإسبان، وكانت في الوقت نفسه محزناً لهم، ينهلون منه ما يريدون من ثروات معدنية، وخيرات طبيعية، وقوى بشرية، وغيرها من الأشياء التي كانت كثيرة في تلك القارة التي كان غافلة عما تحتويه أرضها من كنوز وذهب فضة قادرين على تغيير خارطة هذه القارة إذا ما استخدمت بالصورة المثلى.

(١) الذهب والعاصفة: ٤٧.

(٢) الذهب والعاصفة: ٥٠ - ٥١، ٥٣.

(٣) الذهب والعاصفة: ١١٢.

(٤) الذهب والعاصفة: ٨٤.

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية في القارة الأمريكية الجنوبية

أولاً: العادات والتقاليد والأعراف لدى السكان المحليين.

ثانياً: السكان.

ثالثاً: الطعام والشراب.

رابعاً: وصف الأماكن.

خامساً: الأمراض والأوبئة.

أولاً: العادات والتقاليد والأعراف لدى السكّان المحليين.

عاشت عائلات المايا مجتمعة، بما في ذلك الآباء، والأبناء والأجداد يساهم كل فرد من أفراد العائلة في العمل، فالأطفال الكبار والرجال يقومون بالعمل الزراعي، مثل إعداد الحقول وتنقيتها من الأعشاب وزراعة المحاصيل. كما عملوا أيضاً بجانب الزراعة في أعمال القنص والصيد. وتقوم النساء والبنات الشابات بإنتاج ملابس العائلة، وإعداد الطعام، وتربية الأطفال الصغار وتزويد البيت بأخشاب الموقد والماء. ولم يكن للمايا مدارس، فالأطفال كانوا يتعلمون مهارات مختلفة من خلال ملاحظة الكبار ومساعدتهم.

ويورد الموصلي^(١) بعض ما سمعه أو شاهده من عادات أهل أمريكا، فالسكان الأصليون كانت لهم حضارتهم العريقة التي عاصرت حضارات حوض الرافدين، ولم تنقطع الأعراف الاجتماعية والثقافية الخاصة بهم إلا مع دخول الإسبان إلى القارة^(٢). والسرقة في جميع بلاد أمريكا قليلة، في حين أنّ القتل كثير، وطعام أهل أمريكا الحنطة والأرز.

ويشير الموصلي إلى أن الهنود إذا توفي لديهم أحد يدفنونه على وجه الأرض، ويصنعون له قبراً عالياً علوه ذراعان، وطوله ثلاثة أذرع، وعرضه ذراع ونصف، وكانوا يضعون في القبر آلة صنعتها، مع شراب مصنوع من خمر الذرة، وهذه القبور منفردة عن بعضها بعضاً^(٣). ويؤدّي المايا شعائر خاصة عند دفن الموتى؛ فالجثث تُصبغ بالأحمر وبعد ذلك تُغطى بحصير من التبن ويوضع معها بعض الممتلكات الشخصية، ثم تُدفن تحت المنازل. بينما يدفن حكام المايا والشخصيات المهمة الأخرى، مع حليّهم النفيسة في الأهرامات. وكان الخدم يُقتلون ويدفنون معهم، إلى جانب المجوهرات وأدوات المنزل، لاستعمالها في العالم الآخر.

ويتحدث الموصلي عن الكوميديا التي شاهدها في بلدة أكوامانكا، وهذه الكوميديا قائمة على تقديس رجل الله الروماني الذي يسمى باللغة الفرنسية سان أيليسوا، وفي اللغة العربية مار ريشا، وتتحدث هذه الكوميديا عن عمل هذا القديس، وكيف أعطى خاتمه لعروسته، وشق المحيط، وراح

(١) الذهب والعاصفة: ٧٨.

(٢) الذهب والعاصفة: ٢٣.

(٣) الذهب والعاصفة: ٧١، ٧٩.

يجوب أصقاع الأرض^(١). وكانت نساء هذه القارة هي التي تدفع مهراً للرجل الذي يتزوج منها، شأنهم شأن بلاد النصارى؛ إذ تعطى البنت مهراً للرجل حسب أوضاعها المادية، وقد تزوج صديقه حاكم بلدة كوسكو بنتاً من سكان بلدة ليما، وقامت هذه البنت بدفع المهر له.^(٢)

ويصف الموصلي بعض الألعاب التي كانت سائدة لدى سكان القارة في تلك الفترة، ومن ذلك حديثه عن الملك أنيكا الذي صنع جنزيراً من الذهب الخالص ، وهو جنزير كبير جداً يحتاج أربعة آلاف رجل حتى يحملونه، وكانوا يمدونه على أطراف البلدة كاملة بشكل مستدير ، وثم يأتي كبار البلد ويسيرون فوق هذا الجنزير سيراً سريعاً، وكل من يسقط على الجنزير أو خارجه، لا يكمل اللعبة ، يضحكون عليه، وألقى الهنود هذا الجنزير بعد مقتل الملك أنيكا، ولم يعثر عليه أحد بعدها.^(٣) ويحدثنا الموصلي في بلدة بوتوسي عن نبع ماء ساخن، ورائحته كبريتية، اسمه طارابابا، وكان المرضى يأتون من أماكن مختلفة، ويغتسلون بهذا الماء، وبعد اغتسالهم بهذا الماء يشفون من أمراضهم، وكانت هذه العادة كثيرة الانتشار لدى سكان هذه القارة، وسكان هذا المكان^(٤). ويذكر الموصلي أن سكان بلدة بوناس أيرس يزرعون حشيشاً يسمى إيربا بايل كواي، وجميع سكان تلك البلاد يشربون من ذلك الحشيش مغلياً مع سكر بماء ساخن، فإذا شرب أحدهم فنجاناً واحداً منحه نشاطاً وحيوية ودفئاً، وإذا أراد أحدهم أن يتقيأ يشرب أكثر من فنجان فينتقيأ كل ما في جوفه، وذكر الموصلي أن هذا المشروب سائد بين سكان تلك البلاد مثل ما تسود القهوة في بلادنا.^(٥) وسكان هذه القارة لم يكونوا عارفين بالحرب وفنونها قبل مجيء الإسبان، فلما قدم الإسبان دارت معارك بينهم وبين السكان المحليين، فإذا اعتقلوا إسبانياً ذبحوه وشووه وأكلوا لحمه، أما رأسه فيطلعون جمجمته، ويجعلون منها وعاء لشرب النبيذ، وكانوا لا يحبون الإسبان، وهذه صفة توارثها السكان من أجدادهم وآبائهم^(٦).

(١) الذهب والعاصفة: ٧٦.

(٢) الذهب والعاصفة: ٧٨.

(٣) الذهب والعاصفة: ٨٤.

(٤) الذهب والعاصفة: ٨٧.

(٥) الذهب والعاصفة: ٩٢.

(٦) الذهب والعاصفة: ٩٣.

ثانياً: السُّكَّان.

ازدهرت الحياة المستقرة في المنطقة المدارية حيث كانت الأمطار تساعد على نمو النباتات، وحيث كانت الذرة تنبت بالأمطار دون زراعة. وكانت معظم القبائل الأخرى شبه مرتحلة، أو تعمل بالرعي أو الصيد. وكانت هناك بعض مجالس الشيوخ أو الحكماء لإدارة قبائل سكان البميا وغبابات الأمازون ومراعي الشمال، وكانت هذه القبائل تعبد أصناماً معينة أو أنواعاً من الحيوانات، وكانت تأكل لحم الجاموس البري، وتدخل الطباقي، وتعتبر الأنهار في قوارب تتحتها من جذوع الأشجار، كما كانت تستخدم القوس والسهام. وكان الهنود الحمر بصفة عامة لا يتورعون عن قطع رؤوس أعدائهم بعد الانتصار عليهم ويجمعون هذه الرؤوس أو يعلقونها.

وتألف مجتمع الأرتيك من أربع طبقات رئيسية هي: ١- طبقة النبلاء. ٢- طبقة العامة. 3- طبقة الأتباع ٤- طبقة العبيد. ومع هذا التقسيم الطبقي فقد ارتبطت عائلات من طبقة النبلاء بعائلات من طبقة العامة بصلات قرى وثيقة، وانتمت هذه العائلات كلها إلى مجموعات الكالبولي. وامتلك أفراد المجموعة مساحة من الأرض ملكاً مشتركاً. وكان يُسمح لكل عائلة أن تزرع قطعة كبيرة من الأرض تكفي لسد حاجاتها. وبالإضافة إلى أرض الكالبولي كان معظم النبلاء يمتلكون أراضي خاصة بهم أو أراضي قد حصلوا عليها من الحكومة لاستخدامها خلال شغلهم لمناصبهم الحكومية. وشكّل العامة غالبية السكان، وعاش عددٌ كبيرٌ منهم على زراعة أراضي الكالبولي. وعمل الأتباع في الأراضي التي يملكها النبلاء، وكانوا يستمرون فيها وإن انتقلت ملكيتها إلى نبيل جديد. وكان العبيد يُعدّون ملكية خاصة، لكن أولادهم كانوا يولدون أحراراً. وكان عدد كبير من العبيد أسرى حرب، وعدد آخر اشتراه الأرتيك من جماعات أخرى. وهناك عبيد اسْتُرِفُوا؛ لأنهم كانوا مجرمين أو أناساً عجزوا عن دفع ديونهم.^(١)

وأولى الموصلية عناية كبيرة للقارة الأمريكية وعادات شعوبها وتقاليدهم وأشكالهم، وغير ذلك من مظاهر الثقافة المادية والروحية، التي تعكس في مجملها ثقافة هذه القارة التي مرّ. وبعض العادات والنظم الاجتماعية، فكانت رحلته تعريفاً بالأقوام، وتأسيساً على ذلك فلا غرو أن يعدّ هذا النوع من الأدب الوسيلة الأكثر قدرة على رصد مشاهدات الرحالة لحياة السكان، وتوثيقها بالكلمة

(١) حسام الناييف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، مطبوعات جامعة دمشق، ط١، ٢٠١٦،

والوصف من خلال رؤية الرحالة لها، هذه الرؤية التي يفترضُ فيها الحياد نحو الظواهر حين وصفها، ، كما أنَّها توثقُ المواقفَ والعاداتِ والتقاليدَ والأعرافَ التي تبدو عاديةً لدى السكَّان المحليين في حين هي غايةً في الأهمية في دراسة تطوُّر هذه الأنماط الثقافية، وكذلك في الدراساتِ المقارنة لعادات الشعوب وقيمها وتقاليدها وثقافتها.^(١)

فسكان بلدة كرتاخينا أغنياء جداً، وهم محبوبون للغرباء، ولديهم كنائس وأديرة كثيرة، وهم كاثوليك، وهم أسبان حقيقيون.^(٢)

وبعض الأماكن كان سكنها خليطاً من الإسبان والهنود، مثل بلدة غواياكيل^(٣)، وقرية بابا^(٤)، وبلدة كوسكو^(٥)، وبلدة سيكاسيك^(٦)، وبلدة ميسكي^(٧) وبلدة بوقرتنبو التي تشكل الحد الفاصل بين الإسبان والهنود^(٨)، وبلدة لمنايك، والهنود فيها أغنى من الإسبان^(٩)، وبلدة بيوره التي كان سكانها الهنود أغنى من سكانها الإسبان، وعمائرهم مزخرفة ذات بناء رائع يعكس غناهم المادي^(١٠)، ويصف سكان لاتاكونكا بأنهم كرماء، وأغنياء، يحبون الكنائس والأديرة، لكنهم يشربون ماء غير صالح للشرب، فتجد أكثرهم له غدة كبيرة نازلة تحت حلقه، وسكانها مزيج من الإسبان والهنود؟^(١١) وقد أدَّى عدم وجود النساء الإسبانيات، لاسيما في العقود الأولى من الاستعمار، إلى حدوث حالاتٍ كثيرةٍ من الاختلاط. لكن نادراً ما كان يحدث تزاوج بين النبلاء الإسبان والهنديات، نتيجة

(١) جلال يحيى، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د.ت.، ج ٤، ص ٢١٠.

(٢)الذهب والعاصفة: ٥٠.

(٣)الذهب والعاصفة: ٥٨.

(٤)الذهب والعاصفة: ٥٩.

(٥) ٧٦، ٧٨. هذه البلدة هي مكان سكن ملك الهنود المسمى وازواليا، وهو أخو الملك واسارينكا.

(٦)الذهب والعاصفة: ٨٦.

(٧)الذهب والعاصفة: ٩٣.

(٨)الذهب والعاصفة: ٨٠.

(٩)الذهب والعاصفة: ٦٧.

(١٠)الذهب والعاصفة: ٦٧.

(١١)الذهب والعاصفة: ٦١.

تشدد القانون الإسباني بما يتعلق بعدم السماح للنبلاء بالزواج من الطبقات الدنيا. لكن هذا السبب لم يمنع من وجود حالات كثيرة تزوج فيها النبلاء من هندية ينتمون إلى الطبقات الدنيا، وعرف الأولاد الناتجين عن هذا الزواج باسم مستيسو، وهذا النوع تكون أمه هندية، وأبوه إسباني^(١)، ويذكر الموصلي أن هذا النوع ((مستيسو)) يتصف بالغدر والخيانة، ويورد مثلاً على ذلك قصته مع خادمه المستيسو الذي نوى قتله هو وصديقه، وكادا أن يفتكا به لولا خادمه الهندي الذي كان عارفاً باللغة الإسبانية، فسمع تدبيرهما ليلاً، وهرع مسرعاً إلى الموصلي، وأخبره بما يحكيه له هذا المستيسو ورفيقه من غدر وخيانة.^(٢) فاحتاط الموصلي منهما، ولحسن حظه هرب بغل من بغالهم في تلك الليلة، وظل هذا المستيسو يركض وراءه طوال الليل، وعاد به طلوع الشمس، فنادهما الموصلي، وأخذ منهم السلاح، وجعله يجثو على ركبتيه، وسأله لماذا ينوي قتله، فأقر هذا الخائن بسوء نيته، وطلب السماح من الموصلي الذي سامحه وغفر له، وقبل أن يدخل الموصلي قرية طابيه لادا المستيسو وصديقه بالفرار، ودخل الموصلي القرية، وحكى القصة لخوري القرية الذي أجابه قائلاً: إنهم قتلوا أخاه في هذا الدرب نفسه.^(٣)

وهناك صنف آخر يسمى مولاتوس Mulattos ؛ هو مولدون من أب أبيض وأم سوداء، وهؤلاء يكونون سمر البشرة لا بيض ولا سود^(٤).

وأماكن يسكنها الهنود فقط، مثل المناطق الواقعة خارج كيتو^(٥)، وقرية ليلمو التي لم يكن فيها إسباني إلا القسيس، وقرية لانبا^(٦)، وقرية أمابلا^(٧)، وقرية أموشايو^(٨) وجبال بارامو في بلدة كونكا، وكان سكانها يهاجمون التجار الإسبان ويأخذون بضائعهم، فمرة نزل هؤلاء من الجبل، وهاجموا

(١) الذهب والعاصفة: ٦٥. وانظر: رودريجيث: ثقافة وحضارة، ص ١٢٢-١٢٣.

(٢) الذهب والعاصفة: ٦٥.

(٣) الذهب والعاصفة: ٦٦.

(٤) الذهب والعاصفة: ١٠٥.

(٥) الذهب والعاصفة: ٦٢.

(٦) الذهب والعاصفة: ٨١.

(٧) الذهب والعاصفة: ١٠٤.

(٨) الذهب والعاصفة: ١٠٤.

التجار الإسبان الذين تركوا بضائعهم ولاذوا بالفرار، لكن الهنود فتحوا البضائع، وأخذوا منها ما يحتاجونه، وتركوا للتجار بدلاً منه أقراص ذهب^(١)، وهذا دليل على أنهم ليسوا لصوصاً، بل هم لا يأخذون شيئاً دون مقابل.

وهنود ميناء كولفو دولسه كثيرون العدد، قساة القلوب، متوحشون، غير محبين للغرباء؛ لذلك لم يجرؤ أحد على الذهاب إلى مناطقهم مع أنها مليئة بالذهب. ^(٢) والكلام نفسه ينطبق على هنود ميناء كلديره المليء بالأصداف واللؤلؤ. ^(٣)

ويصف أيضاً سكان قرى باسيليكا، وجونجوناماه، وواكاناما الهنود، وكان قساوستهم هنوداً أيضاً، وهم قليلو شعر الوجه، ليس لهم لحى، بل لهم بعض شعرات في حنكهم، وعندما أبصروا لحيته الكثيفة تعجبوا منه، وقالوا له: إنك رجل شجاع قوي؛ لأنك جزت تلك البلاد، وطرقها العسيرة. ^(٤)

ويذكر الموصلي أنه التقى برجل هندي عمره مئة وخمسون عاماً، فوجده صحيح الجسم، عتيق الأيام، سليم العقل. ^(٥) والعبيد لهم ألوان، فمنهم الأحمر^(٦)، ومنهم الأسود الذي يعمل بالأرض والزراعة^(٧)

وتجار الهنود عارفون حقوقهم دائمو المطالبة فيها ^(٨)، ولم تكن هذه الصفة حكراً على التجار فقط، بل كان هناك هنود يشتكون على أي حاكم إذا كان فاسداً، فهنود صان أنطوان جيشتبك الأغنياء جمعوا مبلغاً قدره أربعة آلاف غرش من أجل استخدامهما في حال تخاصموا مع الحاكم أو الخوري، فيقدمون منها هدايا للقضاة والكتاب^(٩)، ووصف سكان قرية أوطاوالو بأنهم عديمو اللون

(١)الذهب والعاصفة: ٦٣.

(٢)الذهب والعاصفة: ١٠٢.

(٣)الذهب والعاصفة: ١٠٣.

(٤)الذهب والعاصفة: ٦٥.

(٥)الذهب والعاصفة: ٥٦، ١١٣.

(٦)الذهب والعاصفة: ٥٤، ١١٣.

(٧)الذهب والعاصفة: ٧٨.

(٨)الذهب والعاصفة: ٩٩.

(٩)الذهب والعاصفة: ١٠٦.

مورمو البطون^(١)، والهنود كثيرو العدد، وشديدو القوة، لا يقدر الإسبان على مقاومتهم، وهم يسكنون في جبال شامخة، ولهم أمير يحكمهم، ويدير شؤونهم.^(٢)، وهم قساة القلوب شديدو العداء والقتال^(٣)، وبعضهم كان حسوداً حقوداً، يفعل كل شيء حتى ينال من خصمه، وإن اضطر إلى أن يشهد زوراً، ويقول بهتاناً^(٤)، ولم يكن كل الهنود أغنياء؛ إذ كانت النسبة الكبرى فيهم من الفقراء والأيتام والأرامل^(٥)، وبعض الهنود كانوا متوحشين مثل هنود بلاد توكمان، وإن كانوا قليلي العدد لكنه لا يجرؤ أحد على الذهاب إلى مناطقهم^(٦).

وهؤلاء الهنود - حسب الموصلي - لم يكونوا عارفين بالحرب وفنونها قبل مجيء الإسبان، ولم تكن عندهم خيول، لكنهم بعد أن خالطوا الإسبان عرفوا الحرب، وصاروا يركبون الخيل حاملين الرماح، ويحاربون الإسبان، وهم كارهون للإسبان، وهذا الكره كان متوارثاً بينهم ينقله الأبناء عن آبائهم ويورثونه لأولادهم^(٧).

ويتحدث الموصلي عن أمانة بلدة أوكيبا الخالية من اللصوص، فيذكر أن البغال التي كانت تحمل فضته الرملية تاهت في تلك المنطقة، فنام وهو مهموم مغموم عليها، ولما استيقظ صباحاً وجد البغال وما تحمله دون أن ينقص منه شيء^(٨).

والهنود بارعون بالسباحة^(٩)، وهذا الشيء ليس بغريب على سكان منطقة مليئة بالأنهار والبحيرات التي كانت كثيرة الانتشار في ربوع هذه المنطقة المتعددة المظاهر الطبيعية، والمختلفة المناخ

ومما له صلة بالحديث عن السكان اللصوص ((الجلالية)) الذين تحدث عنهم الموصلي في

(١)الذهب والعاصفة: ٦٢.

(٢)الذهب والعاصفة: ٨٠.

(٣)الذهب والعاصفة: ٩٣.

(٤)الذهب والعاصفة: ٨١.

(٥)الذهب والعاصفة: ٨٢.

(٦)الذهب والعاصفة: ٩٢.

(٧) الذهب والعاصفة: ٩٣. وعرف الأرتيك بوحشيتهم وكانوا يحبون الدماء.

(٨)الذهب والعاصفة: ٩٤.

(٩)الذهب والعاصفة: ٧٧.

غير موضع ذاكراً أنهم كانوا كثيري العدد، متعددي الطوائف والأجناس، قساة القلوب، دائمي النهب والسرقة، فقد ذكر أن الشخص يستطيع أن يسيراً براً بعد ميناء كومانا في جميع بلاد البيرو، لكنه لم يفعل ذلك أحد بسبب خوفهم من اللصوص الجالية الذي ينتشرون في تلك المناطق، ويهاجمون المارة، ويأخذون أغراضهم، ويقتلونهم في كثير من الأحيان مستفيدين من طبيعة مناطقهم الجبلية الكثيرة الأنهار والأشجار. (١)

وهؤلاء اللصوص الجالية ينتشرون في ينكي دنيا ((المكسيك)) بكثرة، وهم يهاجمون السفن المحملة بالبضائع والذهب والفضة؛ لهذا كان يرافق مركب الذهب مركبان اثنان حتى يحموا هذا المركب من أولئك اللصوص الذين كانوا ذوي أعداد كثيرة. (٢)

وفي ينكي دنيا توجد جزيرة خاصة بهؤلاء اللصوص الجالية، وهذه الجزيرة هي جزيرة إيزلاده لوس لدرونس المسماة جزيرة اللصوص، (٣) وهذا دليل أن هؤلاء اللصوص كانوا كثيري العدد، وكانت لهم مناطق خاصة بهم، ولم يقوَ الإسبان بما لديهم من قوة وسلاح وعسكر على السيطرة عليهم.

وذكر الموصلي أنه يوجد في بلدة جيانا جبال خاصة باللصوص الجالية الذين يقطعون الطرقات، ويهاجمون عابري السبيل، وينهبون الأغراض والبضائع؛ لذلك أرسل معه حاكم هذه البلدة حرساً حتى يستطيع النجاة من هؤلاء اللصوص. (٤)

ويتحدث الموصلي عن هجوم اللصوص على ميناء ويراكروس، وهؤلاء اللصوص الذين كانوا هراطقة مجتمعين من كل الأجناس والطوائف، فوصلوا الميناء ليلاً، ونزلوا إلى البرد، ودخلوا البلدة التي لم يكن لها سور، وذهبوا إلى بيت الحاكم وألقوا القبض عليه، وسجنونه، ثم أخرجوا الرجال والنساء، وحبسوهم في الكنيسة، وأغلقوا الأبواب عليهم، وتركوا حرساً عليهم، وراح البقية ينهبوا المنازل والكنائس والأديرة، وضلوا يسرقون ثلاثة أيام، أجبروا الأهالي على أن ينقلوا البضائع إلى سفنهم التي كانت راسية قبالة الميناء الذي يبعد قرابة نصف فرسخ، وهناك حملوا الأموال والرجال

(١)الذهب والعاصفة: ٤٩.

(٢)الذهب والعاصفة: ٩٨.

(٣) الذهب والعاصفة: ١٠١.

(٤)الذهب والعاصفة: ١٠٨.

والعبيد معهم، وغادروا إلى جزيرة قريبة من الميناء، وقالوا لهم: إما أن تقتلوا أرواحكم وإما أن نقتلكم جميعاً، وكانت الفدية التي طلبوها مئة وخمسين ألف غرش، فاضطر هؤلاء الأسرى إلى دفع الفدية، وبعد عشرة أيام سلموهم المبلغ المطلوب، فأطلقوا سراحهم، وأخذوا العبيد السود، وكان مقدار المال الذي نهبوه من هذه البلدة ثمانية ملايين، وكان عددهم ستمئة رجل، وكان قائدهم رجلاً هراطقياً له صديق وشريك إسباني يسمى بسيليو فتخاصما على تقسيم المسروقات، وتطور الخلاف بينهم، فقتل الإسباني الهراطقي، وأصبح رئيساً للعصابة، وأثناء وجود هؤلاء اللصوص في الجزيرة جاءت السفن الإسبانية، ودخلت هذا الميناء، فأخبر الوزير جنيرال السفن بما فعله أولئك اللصوص بأهل الميناء، فأرسل الجنرال إلى بقية قادة المراكب حتى يجتمعوا ويضعوا الخطة المناسبة لمهاجمة هؤلاء اللصوص؛ لأنه خاف أن يغرق أحد المراكب أو يحترق، وهي جميعاً محملة بالبضائع، وقرروا عقد الاجتماع بعيداً عن الميناء، ولما توجهوا إلى المكان المحدد، قام نسيلىو بالهرب بسفنه ومسروقاته، وهو ينظر إليهم ضاحكاً مصطحباً معه أكثر من ألفي أسير، وعبيداً سوداً وحمراً، وكان تاريخ هذه الحادثة سنة ١٦٨٣ م. (١)

فالموصلي يقدم معلومات دقيقة وواضحة عن السكان وحياتهم في تلك القارة راسماً صورة أثنوغرافيا لتلك القارة، وهذا ما جعل رحلته تضع الجذور الأولى للأثنوغرافيا التي شكّلت قاعدةً أساسيةً للمقارنة بين أساليب الحياة ومظاهرها اليومية، كالبينة والملبس والمأكل والطب وغير ذلك من جوانب المقارنة المتصلة بالنظم الاجتماعية والثقافية لدى سكان القارة.

(١) الذهب والعاصفة: ١١٢.

ثالثاً: الطَّعامُ والشرابُ.

يبدو الأثر المحلي واضحاً في أطعمة السكان المحليين، إذ يفضل السكان الخضار والبقوليات والذرة ولحوم الحيوانات ولاسيما البغال والبيكونيا، ويمتنعون عن أكل لحم الخنزير، والكلاب، ، والحيوانات المفترسة، والأحياء المائية غريبة الشكل.

فقد ذكر الموصلي أن الأمريكيان يشربون الجيكولاتا^(١) التي يصنعونها من ثمرة الكاكاو المنتشرة في بلادهم، ويغلونه مثل القهوة، ويضيفون إليه سكرًا كل حسب حاجته، وقد يضيفون إليه بعضهم شيئاً من القرفة أو العنبر. ^(٢)

ولديهم مشروب مشهور متداول بينهم يصنعونه من حشيش يسمى إيربا ديال كواي، يغلون هذا الحشيش بالماء مع السكر، والكأس من هذا الشراب يجعل الإنسان نشيطاً قوياً طليّة يومه، وإذا أراد أحدهم أن يستفرغ ما في جوفه شرب أكثر من كأس. ^(٣)

وهم يملكون نوعاً من الحشيش يدعى كوكا، فإذا مضغوه يسكرهم، ويعطيهم شجاعة وقوة، ويفعل فيهم كما تفعل الخمرة بصاحبها، ^(٤) وعندهم نوع من الذرة التي يخلطونها بماء بارد ويشربونها، فتسكرهم كالعرق^(٥). وأهل هذه البلاد يأكلون الذكور من البغال ^(٦)، ويأكلون السلاحف الكبيرة أيضاً^(٧)، ولديهم نوع من الحلويات الفاخرة التي يقدمونها للضيوف والمرضى^(٨). وإذا ما أمسك سكان هذه البلاد بشخص إسباني صنعوا وليمة، وذبحوه، وشووه، وقاموا بأكله^(٩).

(١) وهي الشكولاته التي كانت المشروب المفضل في أمريكا، وكانت مادة تجارة وتصدير كبيرة.

(٢) الذهب والعاصفة: ٥٩.

(٣)الذهب والعاصفة: ٩٢.

(٤)الذهب والعاصفة: ٨٠.

(٥)الذهب والعاصفة: ٨٠.

(٦)الذهب والعاصفة: ٨٤.

(٧)الذهب والعاصفة: ٤٩.

(٨)الذهب والعاصفة: ٧٠.

(٩)الذهب والعاصفة: ٨٠.

رابعاً: وصفُ الأماكنِ

اشتمل العالم الجديد على إمبراطوريات وتاريخ وحضارة عاشت وترعرعت على أراضي هذه القارة ومن أهمها: حضارة المايا، وإمبراطوريتا الأزتيك في المكسيك، والأنكا في البيرو. وقد شهدت هذه الإمبراطوريات والحضارات عظمة وتوهج في فنون البناء والنحت والنقش والصياغة والخزف والأدب والكتابة والحساب والفلك والأساطير، تساوت في عظمتها مع حضارات العالم القديم وتفوقت عليه في بعض المجالات. وامتدت حضارة المايا من منتصف القرن الثالث الميلادي إلى القرن العاشر الميلادي. وخلال هذه الفترة أسس المايا أكبر مدنهم وحققوا إنجازاتهم المتميزة في مجالات الأدب والعلوم إضافة إلى ذلك، بدأ المايا ممارسة تشييد النصب التذكارية تخليداً للأحداث المهمة في حياة قاداتهم.^(١)

كما نستطيع التحدث عن المباني الضخمة التي كانت تقام في بعض المناطق الأمريكية، ولاسيما مناطق أمريكا الوسطى والمكسيك. تلك المباني الهائلة المشابهة للأهرامات، وهي تسمى أيضاً (الأهرامات) مع وجود اختلافاتٍ نسبيّةٍ في هيكلها واستعمالها. فهذا كلّهُ يوحي باحتمالات وصول الفراعنة إلى هناك^(٢).

وفي القرون الثلاثة الأولى في المرحلة الكلاسيكية كانت المدينة المكسيكية، تيوتيتواكان مركز إمبراطورية كبيرة. وكان لحضارة تيوتيتواكان تأثير قوي في فن ومعمار المايا. وأثر مؤقتاً سقوط ثيوتوا الذي حدث في القرن السابع الميلادي على المايا. ومثال ذلك أن المايا أوقفوا حركة البناء في مدنهم وأوقفوا تشييد النصب التذكارية. وبعد مدة قصيرة دبّت الروح مرة أخرى في حضارة المايا، واستمرت في التطور ثلاثمئة سنة إضافية. ومع بداية القرن التاسع الميلادي شيد المايا النصب التذكارية في كل مدينة. وتخلوا عن مراكزهم الرئيسية في الأراضي المنخفضة الجنوبية الواحد بعد الآخر. وفي النهاية غادروا المنطقة بصفة نهائية.^(٣)

وكان الملك أو "الأنكا" يقيم في العاصمة كوشكو، وهذه العاصمة وكل المدن والعواصم الإقليمية الأخرى بنيت على نفس الطراز المعماري. ساحة كبرى تقوم فيها المباني الرئيسية، وهي

(١) حسام النافيف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص: ٣٠.

(٢) نبيل خليل خليل: أمريكا بين الهنود والعرب، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م، ص ١٩-٢٠.

(٣) حسام النافيف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص: ٢٧.

قصر الملك أو مقر الحاكم الإداري والمعابد الدينية وأهمها معبد إله الشمس، وفي وسط الساحة التي تسمى "أوزنو" مبنى حجري كبير تستخدمه فيما يبدو السلطات الملكية أو الكهنوتية للإشراف على الاحتفالات الشعبية في الميدان الكبير، وهناك أيضاً قاعات حجرية مغطاة السقف مثلثة الشكل ذات فتحات كثيرة تؤدي إلى الميدان تستخدم في عقد الاجتماعات عند هطول الأمطار وعدم إمكان الاجتماع في الساحة المكشوفة. وهذه القاعات ذات الأسقف الحجرية المثلثة تسمى "هالانكا".

وتبدت القارة الأمريكية في رحلة الموصلي حضارة عريقة شامخة شموخ أبنيتها التي لا تزال شاهداً حياً على عظمة وروعة العطاء والتطور والريادة التي تميزت بها تلك القارة، ولا غرو في ذلك فهي التي كانت المركز المهم للذهب والفضة الذي كان محط أنظار وأطماع جميع الدول في تلك المرحلة، وهذا ما منحها سوقاً بكل ما تحمله الكلمة من معان. ويهدف هذا المبحث إلى دراسة الأبنية العمرانية في تلك البلاد دراسة تاريخية وصفية تحليلية قائمة على تخير نماذج من تلك الأبنية، والتركيز على دورها الاقتصادي والاجتماعي، ووظائفها التي كانت تقوم بها، مع تبيان عددها وأسمائها ومواقعها، والشروط المعتمدة في بنائها.^(١)

وتقدم رحلة الموصلي معلومات وافية عن الأماكن وطرق بنائها ووظائفها في القارة الأمريكية، وتأتي الأهمية التاريخية لهذه الأماكن من أنها تعكس صورة الطابع المعماري المميز الذي كان سائداً بما شاهده من نضج وتطور؛ لأن العمارة كانت ولا تزال مرآة الشعوب الحضارية منذ بزوغ شمس التاريخ وحتى يومنا هذا.

ويتخذ البناء في القارة الأمريكية نمطاً عمرانياً ملائماً لطبيعة المنطقة التي بني فيها وحسب مناخها؛ لذلك تنوعت المواد الخام الأولية التي استخدمت في بناء الخانات حسب المنطقة التي هي فيها؛ إذ نجد بعضها مصنوعاً من الحجر، وبعضها الآخر مصنوعاً من ألواح الطين، وبعضها الآخر مصنوعاً من الخشب والقش، وقد أكثر الموصلي في رحلة من وصف الكنائس، والأديرة، والقصور، والقرى.

(١) نبيل خليل خليل: أمريكا بين الهنود والعرب، دار الفارابي، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٦م، ص ٢٣.

ومن ذلك حديثه عن قرية بوتيكاس دي سان أنطوان المليئة بقصب السكر الذي يبلغ ارتفاعه أربعون ذراعاً، وأهل هذه القرية يستخدمون هذا القصب في العمران جاعلين منه غطاء لسقوف منازلهم المصنوعة من الحجارة. ^(١)

ويتحدث عن دير راهبات من طائفة الكرملينيين الذي بناه أسقف بلد كيتو، وقد صرف عليه أموالاً طائلة قدرت بمئتين وخمسة وعشرين ألف غرش حتى أصبح مضرب المثل في تلك البلاد لجميل صنعه وحسن ترتيبه. ^(٢) ووصف كنائس بلدة بيوره التي كانت كثيرة الزخرفة، بارعة التصميم والتخطيط. ^(٣) ومنها أيضاً حديثه عن كنائس بلدة أكوامانكا ^(٤)، ووصف كنائس بلدة ليما التي وجدها جميلة البناء والعمران، كثيرة الأعداد، متنوعة الوظائف والمهام، أولها الكنيسة الكبيرة التي هي كرسي المطران، وفيها أربعة أديرة لراهبات مار إفرنيسيس، وثلاثة أديرة لرهبان المرسى، وأربعة أديرة لراهبات الفقراء والأيتام والأرامل، ودير مار يوحنا الذي كان يستخدم لمعالجة المرضى، وهناك دير كبير للملك كان يسمى مار أندر اوس، وهو مشفى كبير جداً لم يذكر الموصلي نظيراً له في تلك البلاد، وكان الملك يشرف عليه، ويصرف عليه من ماله. ^(٥)

وتحدث عن دير مدينة شبنكاي الذي كان في القديم قصراً للملك الهندي وازاواليا، وله بساتين كثيرة واسعة، فسيطر عليه الإسبان جاعلين منه ديراً للراهبات، وهو منحوت في الصخور بطريقة لم ير الموصلي نظيراً لها، فيذكر أن هذه الحجارة المنحوتة صنعها الأمريكيون بغير آلة الحجارين الحديدية، وهي منحوتة بطريقة منظمة مرتبة. ^(٦)

ويصف بلدة ريو بامبا التي ألفاها بلدة جميلة البناء، زاخرة بالزخارف، فيها من التنظيم والترتيب الشيء الكثير الكثير، وفيها كنائس كثيرة، وأهلها أغنياء، وكثيرو الكرم والعطاء، ومحبو

(١) الذهب والعاصفة: ٥٩.

(٢) الذهب والعاصفة: ٦٠.

(٣) الذهب والعاصفة: ٧٠.

(٤) الذهب والعاصفة: ٧٦.

(٥) الذهب والعاصفة: ٧١.

(٦) الذهب والعاصفة: ٧٨.

للضيوف والغرباء. (١)

ويتحدث الموصلي عن قرية خوان كاباليكا الصغيرة المليئة بالفضة والزئبق، ويذكر أن فيها ماء لونه أسمر، فيجعل سكان هذه القرية هذا الماء في صناديق، ويتركونه ثمانية أيام في الهواء حتى يتجمد، ويصير حجراً يعمرّون به البيوت. (٢) وتحدث عن مدينة كوثكو بمبانيها المرصعة بالذهب (٣)

ويذكر الموصلي بلدة وأخاكا ذات العماير والأبنية الفاخرة الرائعة التي تشهد على حضارة وبراعة أهلها، ويتحدث عن الكنائس والأديرة فيها، ويذكر أنها ذات بناء عظيم وزخارف كثيرة، ولاسيما دير مار عبد الأحد، وأدير راهبات المدينة، ومشافي ((مارستانات)) المرضى. (٤)

ويصف الموصلي العمران والبناء في مدينة بوبولا ده لوس أنخلوس التي كانت معروفة باسم مدينة شعب الملائكة والتي كانت كثيرة القصور، والأبنية، والكنائس مثل الكنيسة الكبيرة المصنوعة من الذهب والفضة، وهي مصممة على نحو فريد جداً، وفي هذه المدينة كنائس لجميع طوائف الرهبان والأديرة. (٥)

وراح الموصلي يتكلم عن كنائس بلدة ميخيكو مصوراً جمال صنعها، وروعة زخارفها، وعظمة صانعيها، وغناها الذي لا يوصف، ففيها ثلاثة أدير لرهبان ما أفرنسيس، وديران لرهبان المرسى، ومشافي ((مارستانات)) لمدواة المرضى، وسبعة عشر ديراً للراهبات، ودير للرهبان الكرملانيين، وفيها الكنيسة الكبيرة ذات العمران الطريف الفذّ (٦)، فدرج المذبح الكبير فيها؛ وهو تسع عتبات صنعوه من الفضة، والعواميد التي على المذبح مصنوعة أيضاً من الفضة، وصنعوا جسراً على ارتفاع ذراعين يصل بين الكنيسة والبلدة؛ لأنه عندما يهطل المطر تصبح تلك البقعة بحيرة لا يقدر

(١) الذهب والعاصفة: ٦٣.

(٢) الذهب والعاصفة: ٧٤-٧٥.

(٣) لاوريت سيجولانه: أمريكا اللاتينية الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية، ص ٦٢.

(٤) الذهب والعاصفة: ١٠٨.

(٥) الذهب والعاصفة: ١٠٩.

(٦) الذهب والعاصفة: ١١٠.

أحد على السير فيها. ^(١)

ويذكر الموصلي أن الطريق إلى قرية صارونا فيه مشقة وجهد، وهي طريق طويلة؛ لأنها واقعة بين الجبال، وهي منطقة خاوية من الناس والقرى، لذلك يتوجب على الذهاب في هذه الطريقة أن يكون معه رفقاء درب، وزوادة طعام كافية. ^(٢)

وهكذا يلاحظ من يقلب صفحات الذهب والعاصفة أن الموصلي أفسح المجال لقلمه حتى يخط وصفاً دقيقاً للأبنية والقصور والكنائس التي كانت متناثرة في رحاب القارة الأمريكية، فكان هذه الوصف توثيقاً حياً مباشرة لحضارة تلك البلاد وساكنيها التي سطرت أروع وأجمل الزخارف العمرانية التي ازدانت بالذهب والفضة اللذين اشتهرت بهما تلك القارة، غير أن وصفه للكنائس والأديرة طغى على بقية الأماكن، ولا عجب في ذلك، فالرجل كان قسيساً يهوى الأماكن المقدسة، وتهوي إليها نفسه، ويجد راحته النفسية فيها، بل إن أحد أهم أسباب رحلته إلى هذه القارة كان دينياً صَرفاً ألا وهو نشر الديانة المسيحية بين سكان هذه المدينة الوثنية، أو الكفرة على حد تعبير رحالتنا الموصلي.

(١) الذهب والعاصفة: ١١١.

(٢) الذهب والعاصفة: ٦٤ - ٦٥.

خامساً: الأمراض والأوبئة.

يعاني الناس جميعاً في القارة الأمريكية من الطاعون والملاريا، وغيرها من الأمراض التي كانت تحصد مئات البشر بين الحين والآخر، كما أن الموقع الجغرافي للقارة يؤثر في انتشار الأمراض المعدية، بسبب العوامل الطبيعية التي تؤدي إلى الإصابة بالأمراض، ولاسيما التغيرات الفصلية على تؤثر في صحة الإنسان، ويتقلب المناخ في هذه القارة حيث الشتاء البارد والماطر، والصيف الحار والجاف، وهو مناخ يؤدي إلى حدوث العديد من الأمراض في السكان. وتأثر الهنود تأثراً شديداً بالجذري، وفتك بهم داء الزهري، لأن جميع العاملين في المزارع قد عاشوا منذ سن الثانية عشرة حياة زنى دائم. وكان كل من لا تظهر فيه علائم الداء موضوع تهكم وسخرية. ونقلت إليهم الألبسة أمراضاً جلدية وساعدت بتحويلها وظائف الجلد على انتشار الأمراض الرئوية. فتناقص عدد الهنود تناقصاً مستمراً، وكثرت الأوبئة بين عام ١٥٧٦ وعام ١٥٧٩، وقضت على نصف السكان الهنود.

ويذكر الموصلي أن أرض بورتوبلو حارة جداً، وكثيرة الأمراض، فقد حلّ بها مرض - أثناء قيامه بها - خطير أصيب به معظم سكان تلك المنطقة، وذهب ضحيته ألف إنسان، وأصيب الموصلي به أيضاً.^(١)

ويصف الموصلي مرض الطاعون الذي انتشر في البلاد أثناء مروره بقرية أنبات، وهذا الطاعون أصاب الإنسان والحيوان، ولم يكونوا قادرين على مقاومته بسبب الدخان الذي خرج من أحد جبال تلك المنطقة، وغطى الجو كله حتى إنه حجب السماء والشمس مدة ساعتين، وبعد ذلك هبط هذا الدخان على الأرض فأهلك النبات، وأفسد الماء، ولم يعد يجد الإنسان والحيوان ما يأكله^(٢).

ويعاني الناس في بلدة غواياكل من الطاعون الذي كان كثير الانتشار بينهم، وحين يحل الطاعون فيهم يذهبون إلى بلدة كيتو، ويأخذون أيقونة مريم العذراء من كنيسة جكيكواه، ويعودن متذرعين بها، وتبقى عندهم تسعة أيام معززة مكرمة، وبواسطة هذه الشفيعه يزول مرض الطاعون،

(١) الذهب والعاصفة: ٥٣.

(٢) الذهب والعاصفة: ٦٠.

ثم يعيدونها إلى كنيستها.^(١)

ويذكر الموصلي أن ماء بلدة كيتو غير صالح للشرب؛ لذلك انتشر مرض بين سكان هذه البلدة بسبب الشرب من ذلك الماء، وهذا المرض يجعل لهم غدة كبيرة تنزل من حلقهم^(٢)، وذكر أنه وجد راهبة في هذه البلد تعاني من نزيف الدم منذ ثماني سنوات، فقام بمعالجتها، وسقاها من ماء قصب السكر الذي كان معه سبعة أيام، ثم شفيت بعد ذلك.^(٣)

(١)الذهب والعاصفة: ٦٢.

(٢)الذهب والعاصفة: ٦٠.

(٣)الذهب والعاصفة: ٦١.

الفصلُ الرابعُ

الحياةُ الثقافيَّةُ في القارَّةِ الأمريكيَّةِ الجنوبيَّةِ

أولاً: القصصُ، والخرافاتُ، والأساطيرُ.

ثانياً: التعليمُ والثقافةُ.

ثالثاً: الطبُّ وطُرُقُ مُعالِجَةِ المَرَضَى.

رابعاً: الأعيادُ.

خامساً: الدياناتُ.

حوت القارة إمبراطوريات وتاريخاً وحضارة عاشت وترعرعت على أراضي هذه القارة ومن أهمها: حضارة المايا، وإمبراطوريتا الأزتيك في المكسيك، والأنكا في بيرو. وقد شهدت هذه الإمبراطوريات والحضارات عظمة وتوهج في فنون البناء والنحت والنقش والصياغة والخزف والأدب والكتابة والحساب والفلك والأساطير، تساوت في عظمتها مع حضارات العالم القديم وتفوقت عليه في بعض المجالات.

وامتدت حضارة المايا من منتصف القرن الثالث الميلادي إلى القرن العاشر الميلادي. وخلال هذه الفترة أسس الهود أكبر مدنها وحققوا إنجازاتهم المتميزة في مجالات الأدب والعلوم. وإضافة إلى ذلك بدأ السكان ممارسة تشييد النصب التذكارية تخليداً للأحداث المهمة في حياة قاداتهم. وفي القرون الثلاثة الأولى في المرحلة الكلاسيكية كانت المدينة المكسيكية، تيوتيتواكان مركز إمبراطورية كبيرة. وكان لحضارة تيوتيتواكان تأثير قوي في الحياة الثقافية. وأثر مؤقتاً سقوط ثيوثوا الذي حدث في القرن السابع الميلادي على القارة. ومثال ذلك أن المايا أوقفوا حركة البناء في مدنها وأوقفوا تشييد النصب التذكارية. وبعد مدة قصيرة دبّت الروح مرة أخرى في حضارة هذه القارة واستمرت في التطور ثلاثمئة سنة إضافية. وثمة عناصر وأحداث شتّى في تاريخ العالم القديم وأساطيره تلقي بظلالها على شهرة الغزو الإسباني وأثره في الحياة الثقافية لسكان القارة.

وبما أنه وجد كثير من التناقضات في تاريخ حضارة أمريكا، ولا يزال كثير من الدارسين منشغلاً بالنقاش الأخذ مجراه بحدّة للإجابة عن السؤال متعلّق المناحي العلميّة: هل الثقافة الأمريكية نابعة من ذاتها أو إنّها متأثرة بالغرباء؟ في هذا النزاع يقف المدافعون والخصوم من بعضهم بعضاً موقف العداء موقفاً لا يقبل المهادنة، قلّ ذلك أم كثر. فالمدافعون يعتمدون دائماً وباستمرار على الهجرات عبر طريق البيرنج، وعلى التقارب عندما يضطرون لإيجاد شرح المتطابقات الواضحة والكثيرة بين العالم القديم والجديد. ونظرة التقارب تشقّ الحلول ذاتها في المواقف الحيائيّة الإنسانيّة المعنيّة ومن الطبيعة الفكرية نفسها. وعلى النقيض من ذلك يعرض الخصوم التنويه إلى طريق البيرنج^(١) "Bering" بصورة نسبيّة، لأنهم لا يرونه ذا أهميّة إلا في عصر ما قبل التاريخ، بينما تشير المتوازيات التي جرت عبر الأطلسي إلى اتصالاتٍ تمّت في العصر الحديث.

(١) مضيق بيرنج: مضيق يربط بين المحيط المتجمد الشمالي مع بحر بيرنج وبفصل بين قارتي آسيا وأمريكا الشمالية في أقرب نقطة لها. اكتشفه فيتوس يوهانسن بيرنج (١٦٨١ - ١٧٤١) رحالة بحري وضابط في الجيش

أولاً: القصص، والخرافات، والأساطير.

شكلت الأساطير والخرافات والحكايات الشعبية الأمريكية القديمة أهم المصادر التي توثق حياة السكان المحليين وعاداتها وثقافتهم، وعملت على تغذية روح الشعب ونقل تراثه الشفاهي من عصر إلى آخر، والرفع من شأن منزلة الحكام، وكلما كانت الأسطورة أو الحكاية تحمل شيئاً من الحقيقة تتم المبالغة فيها وتفخيمها وإحاطتها بالأوهام والخيال والأدلة الزائفة، ومع ذلك تحافظ على بريقها وقدرتها على التأثير في ذاكرة الشعب، ويتم تدوينها وتأريخها في السجلات التاريخية، أو النقش على الشواهد التذكارية "حجرية كانت أو خشبية" في المعابد أو الساحات أو الشواهد والأضرحة وغيرها، وقد أسهمت التربية الأسرية في نقل هذه الأساطير والحكايات وتواترها من جيل إلى جيل، وتناقلها الرواة على نحو يجعل التمييز بين الحقيقة والخيال متعزراً الآن.^(١)

ورحلة الموصلي حافلة بالقصص والمرويات والوقائع والخرافات والأساطير التي تعكس صورة سكان القارة في تلك المرحلة، فلا غرو أن يعدّ هذا النوع من الأدب الوسيلة الأكثر قدرة على رصد مشاهدات الرحالة لمختلف جوانب الحياة والطبيعة، وتوثيقها بالكلمة والوصف من خلال رؤية الرحالة لها، هذه الرؤية جاءت مفعمة بالمشاعر، وهذا ما جعلها مؤثرة في أسلوبها وممتعة في تفاصيلها.

ويروي الموصلي قصة الغطاسين في جزيرة مركاريتا المليئة باللؤلؤ الكبير ذي اللون الأخضر، ففي يوم من الأيام نزل الغطاسون إلى البحر بعد أن نذروا على أنفسهم أن كل ما سيخرجونه من لؤلؤ سيقدمونه إلى كنيسة العذراء، فجمعوا لؤلؤاً كثيراً كبيراً نفسياً ذا ثمن غالٍ، فاستأثروا به لأنفسهم قائلين: سنحضر للكنيسة غداً بدلاً من هذا اللؤلؤ، وفي اليوم الثاني أصابوا لؤلؤاً أكثر وأكبر وأعلى ثمناً من اللؤلؤ السابق، فسوّلت لهم أنفسهم أخذه قائلين: غداً نوفي ندورنا ونستخرج للكنيسة غيره، وفي الثالث نزلوا إلى البحر لاستخراج اللؤلؤ، فلم يعثروا على شيء أبداً، ولم يعثروا بعد ذلك على اللؤلؤ أبداً.^(٢)

الروسي والريان البحري ترأس البعثتين الجغرافيتين العلميتين في شبه جزيرة كامتشاتكا وبلغ ساحل شمال أمريكا واكتشف عدداً من جزر أليوت. وقد أطلق اسم بيرينغ على جزيرة ومضيق وبحر.

(١) حسام الناييف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص: ٢٦.

(٢) الذهب والعاصفة: ٤٨.

ويحكى الموصللي قصة النبات القاتل الموجود في البيرو، وهو نوع من الحشيش يشبه الخيزران الرفيع، فحين يمر به رجل أبيض يرتفع مثل عود السهام، ويلسعه محدثاً فيه جروحاً بسيطة، لا يشفى بعدها هذا المصاب، بل يزداد مرضه شيئاً فشيئاً حتى يموت، وهذا النبات لا يلسع الهنود ولا يؤثر فيهم، فلما سمع الموصللي هذه القصة أراد أن يتأكد منها بأمر عينيه، فنصحته الحاكم بعدم الذهاب، لكنه أصرَّ على الذهاب، فأرسل معه الحاكم خادمه - وهو أحمر اللون - ليريه ذلك الحشيش، فلما رأى الموصللي الحشيش وقف على بعد عشرة أذرع عنه، فارتفع الحشيش، وراح يزحف نحوه، وكاد أن يلسعه لولا أن الخادم خرج من خلف الموصللي مخاطباً الحشيش: " دونك يا كلب"، فحين سمع صوت العبد وقع على الأرض. (١)

ويروي الموصللي قصة حكاها له رجل من الهنود عمره مئة وخمسون سنة كان قد زاره الموصللي فوجده صحيح الجسم، سليم العقل، فقص عليه أن هناك مغارة كبيرة دفن فيها أناس من الجبابرة، فرغب الموصللي بزيارة تلك المغارة للتعرف على أولئك الجبابرة المدفونين فيها، فأخذ معه اثني عشر هندياً مزودين بالسلاح، وقصد المغارة، ولما وصل إليها أشعل الشموع حتى لا يتيهون في المغارة، وترك بين كل مسافة ومسافة رجلاً حاملاً شمعته ليستدلوا على طريقة العودة، وسار أمامهم الموصللي حاملاً سيفه، فلما وصل إلى تلك الجثث ألفاها كبيرة العظام والجماجم، فأخذ الموصللي ضرساً من إحدى الجماجم، وكان حجمه كبيراً جداً، ذاكراً أنه يزن مئة مثقال، وقاس حجم إحدى الأرجل فوجد طولها خمسة أشبار. (٢)

وما ذكره الموصللي أكده رحالة آخر؛ وهو كوريال الذي ذكر أن عظام هؤلاء الجبابرة موجودة في البيرو، فقال: " وقد ذكر لنا الهنود أن قوماً من الجبابرة كانوا يسكنون أرضهم، فنزل شاب من السماء وأبادهم بالنار، وقد لجأ بعضهم إلى المغاور والكهوف، فماتوا فيها حريقاً". (٣)

ولا ندري كيف صور الموصللي وكوريال هذه القصة على أنها حقيقة، فهل يعقل أن يزن ضرس الإنسان مئة مثقال؟! وهل يعقل أن هناك ساقاً طولها خمسة أشبار؟! ولماذا لا تكون هذه العظام عظام حيوانات لا بشر؟

(١) الذهب والعاصفة: ٥٤.

(٢) الذهب والعاصفة: ٥٦.

(٣) الذهب والعاصفة: ٥٦ - ٥٧.

وهذا الرجل الطاعن في السن حكى للموصلي نقلاً عن والده أنهم كانوا يسمون سفن الإسبان حيتان البحر، ويظنون الصواري أجنحة الحيتان؛ لأنهم لم يروا مراكب قبل مجيء الإسبان إليهم، وكانوا يعتقدون أن الفرس وفارسها قطعة واحدة لا يمكن الفصل بينهما. ^(١) وهذا دليل على أنهم كانوا معزولين عن العالم الخارجي الذي لم يتعرفوا عليها إلا بعد قدوم الإسبان إلى بلادهم.

ويذكر الموصلي قصة بركان قرية كونلبو الذي خرجت في سنة من السنين منه نار كبيرة، ودخان كثيف غطى الجو، ولم يعد أحد قادر على رؤية شيء لدرجة أنهم لم يقدرُوا على رؤية السماء ولا الشمس لساعتين متواصلتين، ثم نزل هذا الدخان على الأرض، فأحرق كل شيء من النبات، وعكر المياه، فانتشر إثره مرض الطاعون في هذه المنطقة. ^(٢)

وقصَّ عليه سكان قرية لاتاكونكا قصة الجبل الذي خرجت منه نار مثل الرعد، وقذفت هذه النار حجارة كثيرة محرقة على مسافة أربعين فرسخاً من الجبل، وقد أحرقت هذه الحجارة كل شيء نزلت عليه. ^(٣)

ويحكي الموصلي قصة الفلاح الأمريكي الذي عثر أثناء حرثه الحقل على أيقونة لمريم العذراء مدفونة في الأرض، وهي ذات منظر جميل جداً، فأخذها إلى بيته، ووضعها في صندوق، وحين رجع في اليوم الثاني إلى حقله وجدها أمامه، فأعادها ثانية إلى بيته، وفي اليوم الثالث جاء إلى حقله فوجدها في المكان نفسه، وتكررت القصة معه غير مرة، فلم يكن أمامه إلا أن أخبر أسقف البلد، فتوجه الأسقف بصحبة الرجل إليها، وتناولها بإكرام، ونقلها إلى مكان قريب من البلد، وبنى لها كنيسة، وسميت هذه الكنيسة بكنيسة مريم العذراء، أو جكيكواه على اسم تلك القرية، وكان الناس يأتون لزيارتها من كل المناطق، وعندما يصيب هذه البلدة طاعون، يأخذون هذه الأيقونة، ويذهبون داعين بها إلى كيتو، وتبقى الأيقونة هناك تسعة أيام مكرمة معززة، فينقطع مرض الطاعون بسبب شفاعتها، ثم يعيدونها إلى كنيستها. ^(٤)

(١) الذهب والعاصفة: ٥٦.

(٢) الذهب والعاصفة: ٩٥ - ٦٠.

(٣) الذهب والعاصفة: ٦١. وفيه أن هذا الجبل هو جبل بيشنشا الذي انفجر انفجاراً كبيراً سنة ١٦٦٠م، محرقة كل

الضواحي التي تحيط به.

(٤) الذهب والعاصفة: ٦٢.

وتكلم الموصللي عن قرية أوطاوالو ذاكراً بعض القصص السائدة بين سكانها، فمن ذلك أنه يروى أنه في بعض الأيام تسقط طيور ميتة من السماء على هذه القرية، وفي هذه القرية لا يوجد فيء ولا ظل، وأشجارها دائمة الخضرة، والشمس لا تغيب فيها أبداً.^(١)

ويتحدث الموصللي عن صاحب معدن بونو المسمى دون خوسيف سلسيدو، وهو من مدينة سيويليا، ويصفه بعبارة مليئة بالمشاعر والأحاسيس، فهذا الرجل كان كريماً كثير الخير والعطاء، وكان يوزع على الفقراء والمساكين والأرامل واليتامى ستة آلاف غرش سنوياً، فحسده بعض أعدائه، ودبروا له مكيدة، وشهدوا عليه بهتاناً وزوراً، فكتبوا إلى الوزير كتاباً ذكروا فيه أن هذا الرجل اتفق مع جماعة من الناس البيض كي يصبح حاكماً لهذه البلدة، فجاءه الوزير، وألقى القبض عليه، وساقه إلى بلدة ليما، أعدم بعض أصحابه، وصادر أموالهم، كما صادر معدن بونو الذي كان بحوزة الرجل، وصادر معه حجارة كانوا يستخرجون منها الفضة، وكان وزنها عشرة آلاف قنطار، وهناك وضعه في السجن، وحكم عليه بالإعدام، وطلب هذا الرجل من الوزير أن يعرض قضيته على الملك، فإن وافق على قتله قتلوه، وإن أمر بسجنه سجنونه، لكن الوزير أصر على قتله طمعاً بأمواله وثرواته الكثيرة، وشرع الفقراء والأيتام والأرامل والرهبان يدعون الله أن ينجيه من هذا البلاء، وتم قتله خنقاً في منتصف الليل بأمر من الوزير. وبعد قتله أرسل الوزير رجالاً حتى يستخرجوا الفضة من الحجارة التي أخذوها من الرجل، فلما ألقوها في النار ظهرت إشارة الله، وتحولت تلك الفضة إلى رماد، والمعدن الذي كان يستخرج منه حجارة الفضة طاف في الماء، ثم غرق، ولم يعثروا عليه، والوزير الذي أمر بقتله شاهده بعد خمسة عشر يوماً من قتله واقفاً على بابه، وهو داخل إلى مخدعه، فخاف وارتعد من هذا المنظر، وحكى لزوجته القصة، ثم وقع في فراشه مريضاً، ومات بعد ستة أيام من هذه الحادثة، أما القاضي الذي حكم عليه فقد شُلت يداه ورجلاه بعد عدة أيام من حادثة قتل هذا الرجل، هذا كله بسبب أن القتل كان ذا خيرات وأنعام وأفضال لا تعد ولا تحصى، فقد كان أباً للأيتام والأرامل، حنوناً على الفقراء والمساكين، مهتماً بالكنائس والأديرة ومنفقاً عليها، وكان يساعد الفتيات الفقيرات، ويجهز لهن أمور زواجهن.^(٢)

ويقص الموصللي علينا قصة قسيس بلدة سيكاسيك التي رواها له سكان البلدة، فهذا القسيس

(١) الذهب والعاصفة: ٦٢.

(٢) الذهب والعاصفة: ٨٢.

كان خورياً متفرداً في معبد تلك البلدة اثنتين وعشرين سنة، وقد جمع أمولاً طائلة لا تعد ولا تحصى، لكنها كانت حراماً، وقبل أن يتوفى هذا الرجل كتب وصيته قائلاً فيها: إنه دفن تحت فراشه خابئتين مملوءتين، واحدة فضة، والأخرى ذهباً، وأوصى القاضي أن هذا المال يكون ميراثاً لأخته وأخيه، وبعد وفاته أخرجوه من البيت، وأغلقوا الباب، وختموه حتى لا يفتحه أحد، ولما انتهت مراسم الدفن، مضى الحكام وأصحاب الشرع كي يخرجون المال المذكور، فلما حفروا المكان وجدوا الخابئتين مملوءتين دماً، ولا يوجد فيهما أي عملة، فاستغرب الحاضرون من هذه الحادثة العجيبة، وأدركوا حكمة الله في المال الذي يجمع من الحرام، وأخبروا المطران بهذه القصة، فأوصاهم أن يستروا هذه القصة، ولا يتحدثون بها، لكنها انتشرت وسارت على ألسنة الناس الذين راحوا يناقلونها جيلاً بعد جيل. (١)

ولا ينسى الموصلي القصص المتعلقة بالفضة التي كانت واسعة الانتشار في القارة، فيروي عن أحد أصدقائه قصة عن والد صديقه، فقد كان لهذا الرجل معدن في جبل المعادن في بلدة برتوسي، لكنه كان قليل الفضة، فأمر والده العمال أن يردموه، ويسدوه بالحجارة التي أخرجوها منه، ففعلوا ما أمروا به، وراحوا يعملون في جانب آخر من الجبل، وبعد سبع وثلاثين سنة ذهب هذا الولد، وفتح ذلك المعدن، فوجد تلك الحجارة القليلة الفضة قد تحولت وتبدلت، وغدت مليئة بالفضة، وصارت شبيهة بالثمرة، فشرع في استخراج الفضة منها، وأعطت كل حجرة حجماً كبيراً من الفضة، والسبب في ذلك أن هذا الإقليم مسلط عليه نجم يسمى عطار، وهذا النجم يطبخ الفضة حسب الخرافات التي كانت شائعة بين الناس في تلك الفترة. (٢)

ومنها أيضاً حديثه عن القصة التي دارت في بلدة ليما، فقد ذكروا له أن هناك هندياً له معدن كثير في هذه البلدة، لكنه أخفى أمره، وكان يذهب سراً هو وابنه ويستخرجون الفضة ليلاً، وكان كثير الخير والعطاء، ينفق على الكنائس والحفلات الدينية، فأرسل الموصلي وراءه، وقال له: لماذا لا تكشف هذا المعدن، وتجعل الملك يستفيد منه، فينعيم عليك وعلى أولادك، وتكون صاحب مكانة وحظوة في البلدة، فأجابه: رأيت هنوداً أقدم مني كشفوا حالهم للإسبان، وكانت نهايتهم الموت تعذيباً

(١) الذهب والعاصفة: ٨٦.

(٢) الذهب والعاصفة: ٨٩.

على أيديهم، فصدقه الموصلي؛ لأنه كان عارفاً بممارسات الإسبان مع سكان هذه القارة. ^(١) وبيروي قصة حدثت منذ زمن بعيد في جزيرة إيزلاده لوس لدرونس المعروفة بجزيرة اللصوص، إذ يُحكى أن مركباً سافر في هذا البحر إلى بلاد ينكي دنيا، فأصابته ريح، وساقته إلى جزيرة الرمل، وبعد يومين سكنت الريح، فراح الركاب يصلحون بعض الأشياء في غرفة الطبخ التي تضررت جراء الرياح الكثيرة، وخرجوا إلى تلك الجزيرة، وأخذوا منها رملاً ملؤوا به الحوض الذي كانوا يطبخون فيه، ثم غادروا تلك الجزيرة، وفي اليوم الثاني بدأ الطباخ يطبخ لهم، وعندما حرك النار، وجد الرمل كالحجر، فأخذه فإذا هو قرص من الذهب، وحين أخبرهم بالقصة أرادوا الرجوع إلى تلك الجزيرة، ولم يتمكنوا من ذلك؛ لأنهم لم يكون عارفين بمكانها على نحو دقيق، ولا وزنوا قيراطات الشمس ليحددوا مكانها. ^(٢)

ويذكر الموصلي أن هذه الجزيرة كانت تسمى في كتب القدماء إيسلاده سلامون؛ أي: جزيرة سليمان، ويحكى أن سليمان لما عمر البيت كانت يحضر الذهب من هذه الجزيرة، وكان الإسبان كثيرون يبحث والتفتيش عن هذه الجزيرة، لكنهم لم يعثروا عليها. ^(٣)

ويذكر الموصلي قصة كنيسة العذراء العجائبية في بلدة ميخيكو ((مكسيكو))، فبعد دخول الإسبان هذه البلاد بأيام قليلة كان أحد السكان، واسمه خوان ديكو سائراً خارج هذا البلد، فظهرت له امرأة جليلة بهية في غاية الجمال، وقالت له: اذهب إلى مطران البلد، وقل له حتى يبني لي بيتاً في هذا المكان، وخاف هذا الرجل من نور وجهها، وذهب مسرعاً إلى المطران، وأخبره بالقصة التي جرت معه، لكن المطران قام بطرده، فعاد الرجل خائباً حزيناً إلى المكان نفسه، فظهرت له السيدة نفسها، وطلبت منه الشيء نفسه، فرجع مرة أخرى إلى المطران، وأخبره بما جرى معه، فطرده المطران مرة أخرى، ورجع الرجل إلى المكان نفسه، فخرجت له السيدة نفسها، وقالت له: لماذا لم تفعل ما أمرك به، فرد عليها قائلاً: يا سيدتي فعلت ما طلبتيه مني، وذهبت إلى المطران مرتين، لكنه لم يستجب لي، وقام بطردي، فقالت له: عد إليه مرة ثالثة، وأخبره بما قلته لك، وخذ معك هذا الورد ليصدق كلامك، فذهب إليه الرجل، وأخبره بما قالت له السيدة، وقدم له الورد، فلما رأى

(١) الذهب والعاصفة: ٩٤.

(٢) الذهب والعاصفة: ١٠١.

(٣) الذهب والعاصفة: ١٠١ - ١٠٢.

المطران الورد الذي مع الرجل، تعجب منه، وصدقه؛ لأن تلك الفترة لا يوجد فيها ورود أبداً، كما أن المطران أبصر صورة مريم العذراء مرسومة في رداء الرجل، فجثا المطران على ركبتيه أمام الرجل طالباً منه العفو والغفران، وأخذوا الورد، ورداء الرجل، ووضعوه في المذبح الكبير بفرح وعيد عظيم، وخرجوا إلى المكان الذي شاهد فيه الرجل السيدة، وأمر المطران ببناء كنيسة فيه، وسمّاها كنيسة مريم العذراء، وجعل الرجل خادماً فيها طيلة حياته.^(١)

وعلى هذا النحو يكثر الموصلي من استخدام القصص والأساطير والخرافات في رحلته؛ لأنه أدرك الوظيفة المهمة لها في حياة الفرد قديماً وحديثاً، وفي حياة المجموع على السواء، فهي تهب الحياة معناها وتعطيها قيمتها حين تضع أمام السلوك نموذجاً سامياً يشارك الفنان عن طريقه مجتمعه في حقيقة حياة تعيش بين ظهرائه، وهذه الحقيقة التي ربما كان الحديث عنها أجدى للدارس من الحديث عن أصلها ومصدرها ومادتها، وهي تساهم في تفسير الفكر الإنساني في بعض مراحل التاريخ من جهة، وتعمق إدراكنا لفكر المجتمع من جهة ثانية، وتوضح طبيعة الأسطورة ذاتها ودور التجربة فيها وماهية وحدتها من جهة ثالثة.

(١) الذهب والعاصفة: ١٠٥.

ثانياً: التَّعْلِيمُ وَالثَّقَافَةُ.

دُوِّنَ كتابُ المايا المقدَّس "البو بول بو" برسومٍ وصورٍ تحاكي تلك الرسوم المعتمدة في اللوحات الفرعونية القديمة، ويمكن إجراء مقارنة بين المفاهيم الهندية القديمة، والمفاهيم الفرعونية، ولا نتحدث هنا عن مقارنة دقيقة بل عن بعض التشابه بين الحضارتين من حيث المفاهيم القديمة (الغيبيات، العالم الآخر، والبنية الاجتماعية، وألوهية الملك والحاكم، . . إلخ).^(١)

استعمل الكهنة كذلك الرياضيات وعلم الفلك لتطوير نوعين من التقويم؛ الأول تقويم مقدس على حد قولهم يتكون من ٢٦٠ يوماً. وحمل كل يوم اسماً مع واحد من أسماء عشرين يوماً ورقماً من ١ إلى ١٣. وكان لكل اسم من العشرين يوماً إله أو إلهة مرتبطة به. وكان الكهنة يعتقدون أن باستطاعتهم التنبؤ بالحظ السعيد أو السيء بوساطة دراسة تركيب الآلهة أو الإلهات والأرقام. وكان للمايا تقويم من ٣٦٥ يوماً مبني على مدار الأرض حول الشمس. وقسمت هذه الأيام على ١٨ شهراً باحتساب ٢٠ يوماً لكل شهر زائداً ٥ أيام عند نهاية السنة. وعد المايا هذه الأيام الخمسة الأخيرة في السنة سنة الحظ للغاية. وخلال هذه المدة كانوا يصومون ويقدمون عدة قربانين ويتجنبون أي عمل غير ضروري.^(٢)

وكان التقويم الديني عند الأزتك يتألف من ٢٦٠ يوماً. وقد استخدم الكهنة التقويم لتحديد أيام السعد للقيام ببعض الأعمال، مثل بذر المحاصيل، وبناء البيوت، والخروج إلى الحرب. كما كان لهم تقويم شمسي يتألف من ٣٦٥ يوماً. وكان التقويم الأخير يتألف من ١٨ شهراً، وكل شهر يتألف من ٢٠ يوماً، علاوة على خمسة أيام إضافية.

وحين جاء الإسبان استخدموا في تعليم السكان المحليين العاجزين تقريباً عن التجدد العقلي (بحسب وجهة النظر الإسبانية)، طرائق متعددة للتأثير في الحواس وربط الأفكار بالجسم كله والحس كله. وكانت الأبجدية صعبة الإدراك بالنسبة للهنود، فوجب من ثم ربط تمثيل الأحرف بتمثيل الأشياء التي كانت في متناول يد التلميذ: فمثلت A بالبركار، و B بالقيثارة، و C بنعل الفرس، إلخ. . . وأعطى المرسلون المثل في تقانيهم الكلي في سبيل ترسخ العلم في عقولهم. ورفضوا أبداً استيفاء ضريبة العشر من الهنود. وارتدوا نسيجاً صوفياً خشناً، وتنقلوا حفاة، وافترشوا

(١) نبيل خليل خليل: أمريكا بين الهنود والعرب، دار الفارابي، بيروت، لبنان، طبعة ثانية، ٢٠٠٦م، ص ١٩ - ٢٠.

(٢) مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية، دمشق ٢٠٠٧، ط ١، ج ١٧، ص ٥٩٨ - ٦٠٠.

الألواح الخشبية، وتغذوا بالجذور وامتنعوا عن اللحوم والخبز والنبيد، وتمثلوا بالهنود. وإذا ما سأل هؤلاء عن سبب محبتهم للفرنسيين، أجابوا: "لأنهم فقراء وحفاة مثلنا، يأكلون ما نأكل، ويقيمون فيما بيننا ويعيشون فيما بينا مسالمين". عاشوا معهم وماتوا من أجلهم. وقد بلغ من عناء الرهبان وحرمانهم أن نسبة الوفيات بينهم كانت مرتفعة جداً. وحين كان الأخ (أنطونيو دي روا) يتكلم عن الجحيم، كان يلقي بنفسه إلى النار ويلفت نظر الهنود إلى أنه إذا لم يستطع تحمل مثل هذا الألم، فماذا سيكون من النار الأبدية. وكلما صادف أو نصب صليباً طلب أن يجلد ويصفع ويهان ويصق في وجهه؛ لأن يسوع المسيح قد تحمل كل ذلك كفارة عن خطايا البشر. فكان يرسخ بذلك ذكرى تعليمه في ذاكرة الهنود.^(١)

واستعان الرهبان بلوحات تشكل تعليماً مسيحياً مصوراً؛ كما استعانوا بالمسرح وتمثيل الأسرار أو انتصارات المسيحيين على المغاربة. وحملوا الهنود على أن يعيشوا التعليم الروحي بالزمام على أن يتأبوا الخدمة أسبوعاً في المستشفى. وحولوا تلاوة فعل الإيمان كل صباح ومساءً، والصلاة، وترتيل صلاة السحر ركوعاً، إلى ممارسات لا تلبث أن تصبح حسية بخدمة القريب. وعامل الرهبان الهنود بحلم ومسامحة واكتفوا منهم بتقديم بطيء.^(٢)

ويشير الموصلي بمهارة إلى الفضاء العلمي والثقافي في القارة الأمريكية، ويلفت النظر إلى عناية واهتمام الديانة المسيحية بنشر الدين والوعي والثقافة بين السكان المحليين، وتقدم الرحلة الواقع الثقافي لهذه القارة بلسان السارد المشاهد الذي يسرد تفاصيل الأحداث ونتائجها العائدة على الأمريكان، ويرسم الموصلي النقاطات الجديدة من المجتمعين الأوربي والأمريكي معاً من خلال الشخصيات المتنوعة وتوصيف الأمكنة والفضاءات الأوربية والأمريكية، ويقارن أمريكا بإسبانيا من حيث طبيعة السكان، والثقافة، والمظاهر الإنسانية، ويعرفنا الشخصيات المتنوعة ذات الطابع الدينية، والسياسية، والاجتماعية المختلفة.^(٣)

فيمضي إلى أن أهل هذه القارة ليس لديهم أحرف يكتبون بها، ولا يعرفون القراءة أو الكتابة، فإذا ما أراد أحدهم أن يقدم شكوى إلى الحاكم، يقوم برسم صور معينة على منديل، وهذه الصور

(١) حسام النافيف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ٢١٣.

(٢) حسام النافيف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ٢١٤.

(٣) حسام النافيف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ٢١٩.

هي التي تشرح حاله لهذا الحاكم، ^(١) فاللغة السائدة عندهم هي اللغة التصويرية. وعندما مر الموصل في بلدة كوسكو وجد فيها مدارس مخصصة لأطفال الإسبان، ومدارس أخرى بناها اليسوعيون من أجل أطفال السكان المحليين ^(٢). أما أيام العطل في هذه البلاد فتكون في يوم الأحد وأيام الأعياد المعروفة بين السكان في تلك البلاد ^(٣).

والناظر في رحلة الموصل يجد أنه يجب علينا ألا نفهم الأصالة بصفتها رابطة عرق ودم، بل رابطة لغة، وثقافة، وعيش مشترك في ظل الحرية التي تؤسس ثقافة تكون قادرة على أن تتفاعل وتتعايش مع الثقافات الأخرى، وأن تقيم علاقة حوار معها. وانطلاقاً من فهمنا للهوية الثقافية لهذا الآخر وتمثلها واستيعابها.

(١)الذهب والعاصفة: ٧١.

(٢)الذهب والعاصفة: ٧٨.

(٣)الذهب والعاصفة: ٨٨.

ثالثاً: الطبُّ وطُرُقُ مُعَالَجَةِ المَرَضَى.

كان الطب لدى السكان المحليين بدائياً قائماً على العادات والتقاليد المتوارثة، فقد استعمل المايا الأعشاب والسحر لمعالجة المرضى. ومع ذلك لا يعرف العلماء إلا القليل عن معرفة المايا بالطب^(١).

ذكر الموصلي أن الطب كان قليلاً في القارة الأمريكية، وأن الناس كانوا يستخدمون الطب الشعبي في معالجة المرضى، ولم يكن لديهم أطباء مختصون، كما أنهم لم يعرفوا المشافي، ومراكز العناية الطبية قبل قدوم الإسبان إليهم، فلإسبان يعود فضل السبق في نشر الطب في ربوع هذه القارة التي كانت الأمراض تحصد فيها مئات الأرواح والأنفس، وهم لم يعرفوا الطب المتخصص لولا الإسبان، فقديمًا إذا لدغت أحدهم حية في يده قطعوها له^(٢).

ويستخدم السكان المحليون حجر الباهز الذي يستخرجونه من الحيوان الأنيس الذي يسمونه بيكونيا لمعالجة السموم^(٣). ويقصد المرضى نبع المياه الكبريتية الساخنة الموجود في بلدة بوتوسي، فيغتسلون به، وبعد اغتسالهم به يشفون من أمراضهم^(٤).

ويعالج المرضى في تلك البلاد في الأديرة^(٥)، وذكر الموصلي أن شاهد مشفى ((بيمارستان)) كبيراً في مدينة ليما، وكان يحمل اسم الملك، ويدعى مار أندراوس، والملك هو الذي يتولى أمور نفقاته^(٦).

وذكر أيضاً أنه شاهد مشفى ((بيمارستان)) لمعالجة المرضى في بلدة واتيمالا، وشاهد عدة مشافي في بلدة ميخيكو^(٧).

(١) مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية، دمشق ٢٠٠٧، ط١، ج١٧، ص ٥٩٨-٦٠٠.

(٢) الذهب والعاصفة: ٦٩.

(٣) الذهب والعاصفة: ٧٧.

(٤) الذهب والعاصفة: ٨٧.

(٥) الذهب والعاصفة: ٧١.

(٦) الذهب والعاصفة: ٧١.

(٧) الذهب والعاصفة: ١١٠.

ويمضي الموصلي إلى أن بلدة ميخيكو كان فيها أطباء يعالجون المرضى، فحين وصل إلى هذه البلد وقع مريضاً، وبقي طريح الفراش عشرة أيام، وكان وزير هذه البلدة يرسل أطباءه لمعالجته، واستمروا في علاجه حتى تعافى من مرضه. ^(١)

غير أنه يشيد بدور الكنائس التي كانت تخصص جزءاً منها ليكون مشافي يعالج فيها المرضى، وتقوم هي نفسها بتأمين الكوادر الطبية، وتتولى مهمة الصرف والإنفاق عليهم، وهذا دليل واضح على أن الإسبان ساهموا بشكل كبير وفعال في التصدي للأمراض والأوبئة التي عانى منها السكان المحليون، وكانت تحصد بين الحين والآخر آلاف الأنفس، كما ساهم الإسبان بنشر الوعي والثقافة الطبية بين الأوساط الاجتماعية التي كانت تعتمد فيما مضى على طرق العلاج البدائية التقليدية التي لا تعطي كبير فائدة في كثير من الأحيان.

(١)الذهب والعاصفة: ١٠٩.

رابعاً: الأعياد.

كان الأزلتك يقيمون احتفالاً كبيراً كل ٥٢ سنة، يُدعى ربط السنوات أو مهرجان النار الجديدة. وقبل بداية الاحتفال يطفئ الناس مواقد نيرانهم، ليشعل الكهنة ناراً جديدة فوق صدر أحد القربان عند فجر دورة الـ ٥٢ سنة الجديدة. وكان الناس يقومون بوخر أنفسهم ليضيفوا دماءهم إلى القربان، ومن ثم يشعلون من هذه النار الجديدة نيران مواقدهم ثانية، ثم يحتفلون^(١). ويتوقف العمل في الساعة الرابعة أو الخامسة مساءً بغية إفراح المجال لشؤون العبادة في أيام الأعياد التي ينقطع الهنود فيها عن العمل، وتقام فيها الاحتفالات الدينية، وترافقها ضروب اللهو المختلفة: الموسيقى، والرقص، وإطلاق النار على المرمى، وألعاب الكرة، والتمثيليات.

ولسكان القارة الأمريكية كثير من الأعياد، منها عيد الثور الذي يعدّ أكبر عيد تقليدي لأبنائها، إلى جانب أعياد تقليدية أخرى، كعيد هنود بوقرتنبو، وعيد الصفاء، أو عيد سباق قوارب التتين، إضافة إلى الأعياد الدينية الجديدة التي راحوا يحتفلون بها بعد اعتناقهم الديانة المسيحية على أيدي رجال الدين الإسبان.

ويتحدث الموصلي عن عيد هنود بوقرتنبو الذي يحضرون فيه رجلاً إسبانياً، ويذبحونه، ويشوون لحمه، ويأكلونه، أما رأسه فيأخذون عظم الجمجمة ويصنعون منه طاسة يشرب فيها خمرًا من خمر بلادهم.^(٢)

وحين وصل الموصلي إلى بلدة كولان كان وصوله ليلة عيد مار يعقوب أخي الرب، فطلب منه الخوري أن يقدس لهم، فقام الموصلي وقدس لهم في اليوم الثاني، وحضر قداسه كل هنود البلد، وبلغ عددهم أربعة آلاف هندي، وبعد انتهاء التقديس جلس الموصلي على كرسي، وصنع خبزاً مباركاً، فيأتي الناس، يقلبون يده، ويأخذون من الخبز، ويرمون النذور في الصينية حتى بلغ الماء مئتين وخمسين غرشاً.^(٣)

(١) الموسوعة العربية، ج ٢، ص ٥-٧.

(٢) الذهب والعاصفة: ٨٠. وروى كولومبس نفسه أنه رأى بعض بقايا جسم بشري تطهى في قدر على النار، واستند في ذلك إلى أن الهنود الحمر كانوا يأكلون لحم البشر في نفس الوقت الذي يأكلون فيه لحوم الببغاوات. انظر: حسام الناييف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ٣٧.

(٣) الذهب والعاصفة: ٦٦.

وعيد الثور يقومون به من أجل التفريج عن المريض أو المكروب، وهو عبارة عن لعبة، فيقومون أولاً بوضع سور في ساحة مصنوع من الخشب والرفوف، ويصنعون خلف هذا السور مثل الدرج كي يجلس الناس عليه، ويضع كل واحد منهم مبلغاً من النقود حتى يفرج ما به من هم أو مرض أو غيره، ثم يأتون إلى الساحة بثور من الثيران الوحشية الذي كان مسجوناً من زمن، وحين يطلقونه في الساحة يجري خوفاً، ويستمر في الركض بحثاً عن مخرج له، بعد ذلك يدخل إليه رجل على فرسه حاملاً في يده رمحاً، ويبدأ يهاجم الثور، والثور يهجم عليه، فيهرب منه، وبعد ذلك يقتل الثور، والثور في بعض الأحيان يقتل الفارس وحصانه بقوة قرونه، وهذا العيد مشهور في إسبانيا، ومنها نقل إلى القارة الأمريكية.^(١)

(١) الذهب والعاصفة: ٦٣ - ٦٤.

خامساً: الديانات.

عَبَدَ شعب القارة الأمريكية عدة آلهة وإلهات كغيرهم من شعوب ذلك العصر. وهناك مخطوط للمايا يذكر أكثر من ١٦٠ من هذه الآلهة. ومثال ذلك أن المايا عبدوا إلهًا للذرة اسمه أهمون، وإلهًا للمطر عُرف باسم شاك، وإلهًا للشمس اسمه كنيش أهو، وإلهة للقمر اسمها إكسثيل. وكان كل إله يُرتجى على جزء من حياة السكان. فكانت إكسثيل مثلاً إلهة الطب والغزل. وأدى الدين دورًا كبيرًا في الحياة اليومية. وكان لكل يوم في سنة أهمية دينية خاصة، وكانت الاحتفالات الدينية تقام على شرف آلهتهم في أيام خاصة خلال السنة. وزعم المايا أن آلهتهم ذات قدرة على المساعدة والإيذاء. ومن أجل الحصول على مساعدة الآلهة، كان السكان يصومون ويصلون، ويقدمون القرابين وفق معتقداتهم، ويطعمون احتفالات دينية عديدة. وكانت الأيائل، والكلاب، والديكة الرومية تُذبح قربانًا للآلهة تقريبًا وتضرعًا، وكان المايا غالبًا ما يقدمون دماءهم والتي كانوا ينشرونها على أجزاء من الورق المصنوع من لحاء (قلف) الأشجار. وقدم الهنود بعض القرابين البشرية، مثل إلقاء ضحايا في آبار عميقة أو قتلهم في مآتم القادة الكبار. وفي المدن، وبنى المايا أهرامات عالية من الأحجار الكبيرة، وأقاموا على رأسها معابد. وكان الكهنة يتسلقون درجات الأهرامات ويطعمون الشعائر الدينية في المعابد، وكانت الاحتفالات الدينية الكبرى التي تتعلق بالسنة الجديدة عند المايا من الطقوس المقدسة وتقام لكل شهر احتفالات.^(١)

والغالب على الظن أن الحكام كانوا من رؤساء القبائل والرهبان، وربما كان هناك قائد كبير يحكم المدينة ويجمع بين السلطتين السياسية والدينية. ولم يتفق المايا قط على تشكيل حكومة مركزية. ولكن في المراحل الأخيرة من حضارة المايا، كان لحكام المدن مثل شيشن إتر و مايا بان سلطة على مجموعات كبيرة من السكان.^(٢)

وشكّلت الاحتفالات الدينية واحدة من أهم الأشكال المفضلة للترويج عند المايا. وأقيمت هذه المهرجانات في أيام خاصة خلال السنة. ويتخللها الرقص والأكل، وبالإضافة إلى هذا، كان للمايا لعبة مقدسة تشبه كرة السلة تُلعب في ملاعب صُممت لها بصورة خاصة. وكان اللاعبون يحاولون ضرب كرة من المطاط من خلال دولااب حجري بواسطة المرفق أو الخصر.

(١) حسام النافيف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٩٩٢-١٩٤٥)، ص ٢٨.

(٢) حسام النافيف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٩٩٢-١٩٤٥)، ص ٢٨.

وأثر التولتيك في فن وهندسة المايا، وأدخلوا عبادة الإله الثعبان المريش سموها كوكولكان. وعقب نهاية حكم التولتيك شيدت مجموعة من زعماء المايا عاصمة في مايبان وأعاد المايا بناء ثقافتهم من جديد حيث شيدوا مسلات حملت نقوشا. ومع ذلك، ظهرت تحولات في مجتمعهم. مثال ذلك، غلبت التجارة على المعتقدات الدينية التي كانت مهيمنة على ثقافة المايا. وأصبحت مدن المايا مراكز تجارية مزدهرة، وبدأ الناس يديرون التجارة بحرية ونشاط.^(١)

وكان الأزتيك قد جاؤوا من الشمال في القرن الثالث عشر، وأنشؤوا مدينة في وسط المستنقعات، وفي المكان الذي شاهدوا فيه نسراً كبيراً يأكل حية ضخمة. فاعتقدوا أنها إشارة من ربهم "مكسيكلي" لوقف سيرهم، وبناء عاصمتهم، التي ستحمل اسم مكسيكو. وسرعان ما تحدث القبائل المجاورة أو خضعت ودفعت الجزية. وسادت قوانين الأزتيك، وانتشرت آلهتهم في كل المنطقة. وتحدث الفلاسفة وعلماء الآثار عن عادات الأزتيك وما تركوه من قصور ومعابد وأهرامات.^(٢)

وأدت القرابين البشرية دوراً أساسياً في معظم الطقوس الدينية. وكان الكهنة يشقون صدر الضحية الحية وينتزعون منها القلب، إذ كانوا يعتقدون أن آلهتهم تحتاج إلى قلوب ودماء بشرية كي تبقى قوية. وكان المتعبدون يأكلون أحياناً أجزاء من جسد الضحية. وربما كانوا يعتقدون أيضاً أن قوة الشخص الميت وشجاعته تنتقل إلى كل من يأكل لحمه. وكان معظم الضحايا من أسرى الحروب أو العبيد، ولكن الأزتك كانوا يضحون بأولادهم لإلههم تيالوك.^(٣)

وذكر الموصلي أن سكان القارة الأمريكية يدينون بعدة ديانات أوسعها انتشارا عبادة الأصنام والأوثان وهي الديانة المحلية، وعبادة الشمس هي الديانة الوثنية المحلية كذلك، أما المسيحية فقد جاءت إلى القارة الأمريكية من الغرب والإسبان الذين جاؤوا من القارة الأوروبية. وكانت بعض الديانات الأمريكية تقوم على عبادة أرواح الأجداد أو الطبيعة.

(١) حسام النافيف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ٢٩.

(٢) جلال يحيى: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د. ت، ج ٤، ص ٢١٠.

(٣) حسام النافيف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ٣٣.

ويذكر أيضاً إن اعتناق الأمريكيين للأديان خلال تاريخهم الطويل يرجع إلى الأوضاع السياسية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية، ولعل الشعب الأمريكي أفضل من ينطبق عليه القول: "إن الناس على دين ملوكهم"، فهم شعب مسالم ومطيع، وأن الحكام أو الأباطرة الذين مروا على حكم القارة الأمريكية إنما يؤمنون بما يحقق استقرارهم وبقاءهم على كراسيهم وعروشهم ويخدم مصالحهم، فتارة يقربون رجال الدين ويمنحونهم الأوسمة والألقاب والصلاحيات وتزدهر الحياة الدينية، وقد يغير أحد الأمراء أو الحكام دينه، عندها لا يكون على الناس إلا الانقياد والطاعة. قبل قدوم الإسبان إلى القارة الأمريكية لم يكن أهلها يعبدون الله تعالى، بل كان بعضهم يعبدون الشمس، وبعضهم الآخر يعبد القمر، وطائفة ثالثة يعبدون النجوم^(١).

وذكر الموصلي أن سكان جزيرة تيتيكاكا الواقعة في بلدة جكويت يعبدون جبلاً منصوباً أمامهم يسمى الجبل الأحمر^(٢) وقد اكتشف الإسبان جزيرة ده مارياناس، وكان سكانها يعبدون الأصنام، فقام الإسبان بتعليمهم الديانة المسيحية^(٣) وحين جاء الإسبان إلى هذه القارة غدا بعض سكان القارة الأمريكية نصارى حقيقين، وبعضهم الآخر اعتنقوا المسيحية خوفاً من الإسبان^(٤).

وهكذا برهن الإسبان على أنه لا يوجد شعب في العالم مهما بلغ من قساوته، وبربريته، وخشونته، ووحشيته، يستحيل إقناعه واستمالته، وإعادته إلى النظام، وترويضه، وجعله وديعاً سهل المراس، إذا ما اعتمدنا اللياقة، وسلطنا هذه الطريق الطبيعية الخاصة بالإنسان بدافع من المحبة، والحلم، والوداعة، والبهجة. وإذا كنا لا ننشد سوى هذه الغاية "التاريخ الدفاعي" فمن الممكن ترقية الشعوب كافة إذا ما نظرنا إليها نظرة أخوية، وسعينا جاهدين في سبيل هذه الغاية دونما سعي وراء فوائد شخصية أو قومية. وبالتالي يجب هديهم إلى الدين القويم بالملاطفة، "بإقناع العقل"، ثم "بتحريك الإرادة برفق". فهي الوسيلة الوحيدة لاستمالة الشعوب كافة إلى الديانة الحقيقية^(٥).

(١) الذهب والعاصفة: ٧١.

(٢) الذهب والعاصفة: ٨٤.

(٣) الذهب والعاصفة: ١١٦.

(٤) الذهب والعاصفة: ٦٧.

(٥) برتولومي دي لاس كازاس: المسيحية والسيوف، وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الإسبان (رواية شاهد عيان)، ترجمة سميرة الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، د. ت، ص ٢٢ - ٢٣.

الفصلُ الخامسُ

المناخُ والحيوانُ والنباتُ في القارةِ الأمريكيَّةِ الجنوبيَّةِ

أولاً: النباتُ.

ثانياً: الحيوانُ.

ثالثاً: المناخُ والطبيعة.

أَوَّلًا: النَّبَاتُ.

ومن أهم المنتجات والمحاصيل الزراعية التي اهتم بها المايا: الفاصوليا، والذرة، واليقطين. وشكلت الذرة الغذاء الرئيسي للمايا، وهيات النساء الذرة الشامية بطرق مختلفة، حيث صنعن حلوى مسطحة من الذرة الشامية تسمى اليوم تورتيلياس؛ وهي نوع من الخبز.

استعمل المايا الذرة الشامية لإنتاج نوع من المشروب يسمى بالش الذي يضاف إليه العسل. وزرع المايا منتجات زراعية أخرى، مثل الأفوكادو والطماطم، والفلفل الحار. وهياً المزارعون حقولهم من خلال قطع الأشجار بالفؤوس الحجرية. وأحرقوا الأشجار والأغصان، وبعد ذلك استعملوا العصي لغرس البذور في الرماد، وبعد أن تصبح التربة ضعيفة، يعمل المزارعون على تهيئة أراض إضافية ونقل حقولهم إلى مواقع جديدة. وكانت الكلاب هي الحيوانات الأليفة الوحيدة لدى المايا، وربوا الديكة الرومية والنحل في حقولهم. واصطادوا الأيائل والأرانب وغيرها. وجمعوا القشريات من الأودية والبحر. كما قطفوا الفواكه والخضراوات من الريف. أما الأراضي فكانت ملكاً للإينكا كما كانت في مصر القديمة ملكاً لفرعون، وكان على الأهالي زراعتها، على أن يقسموا المحصول إلى ثلاثة أقسام: الأول للشمس، أي للكهنة، والثاني للدولة، أي للعجزة والأرامل والأيتام، والثالث للمجتمع ويقسم بين الأسر الموجودة.^(١)

تحدث الموصلي عن نوع من الأشجار التي رآها في قرية بابا التي تنتشر فيها بساتين لأشجار تشبه أشجار التوت، وتحمل ثماراً تسمى كاكوا، يصنعون منه الشوكولاته، وهذه الثمرة تراها مثل البطيخ متعلقاً وملتصقاً على جسم الشجرة، فلما ينضج ويصفر يأخذونه ويقطعونه، ويخرجون من داخله ثماراً، وهي عبارة عن حبوب أخشن من الفستق، ثم يجففونه، وبعد ذلك يغلونه فتراه كالحقوة في اللون والطعم والرائحة، لكنه أكثر دسماً منها، وأحياناً يضيفون إليه شيئاً من القرفة والعنبر الخام، ثم يعجنونه، ويقطعونه إلى أقراص، ويضعونه في الظل حتى يجف، ثم يغلون هذه الأقراص بالماء ويشربونها مثل القهوة، وهذا المشروب سائد في جميع البلاد، حتى إن الإسبان كانوا يأخذونه إلى بلادهم ويبيعونه هناك.^(٢)

(١) حسام النافيف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ٣٣.

(٢) الذهب والعاصفة: ٥٩.

ويذكر الموصلي أيضاً أن الكاكاو يزرع في سان فيلبه ده بورتو، وهو من البضائع التي تأخذها السفن الإسبانية. (١)

وفي سان فيلبه ده بورتو ينتشر النبات المعروف باسم بينيونيا أو بيكونيا، وهو نبات قطني يطلقون عليه اسم **صوف التفتنيك**. (٢)

ويتحدث الموصلي عن **النبات القاتل** الموجود في جزيرة لاوانا، وهو نوع من الحشيش يشبه الخيزران الرفيع، فإذا مر عليه رجل أبيض ارتفع هذا النبات مثل أعواد السهام، ويشك جسم المار، ويصيبه بجروح لا يشفى منها، وتكون نهايته الموت، وهذا النبات لا يصيب إلا الأشخاص البيض ولا يقترب من الهنود وأصحاب البشرة السوداء أو السمراء. (٣)

وشاهد الموصلي في جبال هذه الجزيرة زهرة غريبة، أغصانها مستوية متعادلة، ولا توجد عليها أوراق، وفي كل غصن ثلاث جوزات مثل القطن، فإذا انفتح جانب الجوزة رأيت داخلها حماسة بيضاء بجناحيها ورجليها، ومنقارها أحمر، وعيونها سوداء، ويسمي السكان المحليون هذه النبتة **بزهرة روح القدس**، وحاول كثير من الحكام الإسبان نقلها، وزراعتها في إسبانيا، لكنهم لم يقدروا على ذلك. (٤)

ويذكر أن الأشجار في قرية أوطالو دائمة الخضرة، وفيها **أشجار القرفة**، لكنهم لا يعرفون زراعتها والاهتمام بها مثل سكان الهند، فالقرفة عندهم أكثر حرارة، وأقوى نكهة، ومع ذلك سعى سكان هذه المنطقة جاهدين أن يخفوا هذه النبتة عن الإسبان حتى لا يأخذوها إلى بلادهم، وهناك نوع آخر من النبات اسمه **جوز الطيب**، يجمعه السكان، وهو أخضر، ويشبه الزيتون، ويرسلونه إلى كراكس، وهناك يبيعونه إلى الإسبان والإنكليز. (٥)

ويصف الموصلي **قصب السكر** المنتشر في ربوع بلدة ليما، وقرية بوتيكاس دي سان أنطوان، ويبلغ ارتفاع هذا القصب أربعون ذراعاً، وهي عريضة: " وثخن القصبه أغلظ من مطوية نول

(١) الذهب والعاصفة: ٥٣.

(٢) الذهب والعاصفة: ٥٣، ٧٧.

(٣) الذهب والعاصفة: ٥٤.

(٤) الذهب والعاصفة: ٥٤.

(٥) الذهب والعاصفة: ٦٢.

الحيك"، وفيه عقد كثيرة، وبعض هذا القصب يكون مليئاً بماء أبيض حلو، وقد شرب منه الموصلي، وأمر خادمه أن يحمل معه ست عقد مملوءة بالماء، وسكان تلك المنطقة يستخدمون هذا القصب لتغطية سقوف منازلهم. ^(١)

وفي بلدة كوسكو توجد مزرعة قصب السكر، وتسمى هذه الأرض شبنكاي، وهي لليسوعيين، ويعمل فيها العبيد السود الذين يفلحون الأرض، ويزرعون القصب، ويستخرجون منه السكر، وفي كل سنة يستخرجون من هذه الأرض ثلاثين ألف خند كاري من السكر. ^(٢)

وتنتشر في بلدة سانيا أشجار القطن، والقطن عندهم خشن جداً قدر الرمان، وحبه صغير قوي، وفتيلته طويلة كالصوف، وبأخذ السكان منه قدر حاجتهم، ويستخدمونه في صناعة الأحزمة والثياب للنساء، ويصنعون من أشياء أخرى كالأكياس، والحبال، والخيام. ^(٣)

وتحدث الموصلي عن أشجار توكال الممتدة على طول درب بلدة أكوامانكا، وهي أشجار كثيرة جداً، أوراقها سمكية تبلغ مقدار كفين، وليس لها أغصان، وأوراق ذات أشواك، وتكون الثمرة في طرف الورقة، ويسمي السكان المحليون هذه الثمار تونس، والثمرة تكون مثل بيضة الدجاجة، لكنها أكثر صلابة منها، وطعمها يشبه طعم التوت، وتكون الثمرة مغطاة بشوك ناعم؛ لذلك يتوجب على الإنسان ألا يمسكها بيده، بل لا بد أن يزال الشوك عنها أولاً، وهذا النبات يمنح الجسم برودة، وفي بعض الأحيان يصيب الإنسان بالإسهال، وهي منتشرة بكثرة في تلك المناطق. ^(٤)

وفي بلدة بوقرتنبو يوجد نوع من الحشيش يسمونه كوكا، فإذا مضغه الهنود أسكرهم، ومنحهم شجاعة وقوة كشرب الخمر، ولا يوجد في هذه المنطقة لا قمح ولا شعير، وعندهم ذرة يجعلونها في علبه ويشربونها، فتسكرهم مثل العرق. ^(٥)

(١) الذهب والعاصفة: ٥٩، ٦٩. وفي سنة ١٥٢٣، أنشأ الحاكم ((ماتين أفوتسو)) أولى مطاحن السكر في جزيرة سانتو-فيسنته أمام مدينة سانتوسالالية. ثم حذا حذوه الحكام الآخرون والأسيداء. انظر: موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام: ج٥، ص ٥٢٧.

(٢) الذهب والعاصفة: ٧٨.

(٣) الذهب والعاصفة: ٦٨.

(٤) الذهب والعاصفة: ٧٥.

(٥) الذهب والعاصفة: ٨٠. وقال نوري الجراح: الكوكا حشيشة لها خصائص معروفة، تستخدم لتقوية عضلات

وسكان بوناس أيرس يزرعون حشيشاً يسمى إيربا ديال بايل كواي، وجميع سكان تلك البلاد يشربون ذلك الحشيش مغلياً مع سكر، فإذا شرب الواحد منهم منه فنجاناً زاده طاقة وحيوية ونشاطاً، وإذا أراد أن يتقيأ يشرب منه أكثر من فنجان، فيستفرغ ما في جوفه من العفونات، وهذا المشروب مستعمل كثيراً في تلك البلاد، مثل استعمال القهوة في بلادنا. (١)

وتحدث عن نبات النيل الذي يزرع في قرية صان سلوادور، وهذا النبات يشبه نبات الفصة المعروف لدينا، وكل شخص في تلك المناطق لديه مزرعة لهذا النبات؛ إذ يزرعونه كما يُزْرَعُ القَمْحُ، وفي بعض السنين يعلو هذا النبات حتى يتجاوز قامة الإنسان، فيصبح رخيص الثمن في تلك البلاد، وعندما يحين موسم حصاده، ويحصدونه، ويضعونه في حوض كبير، فترتفع حرارته بسبب الجو، ويأكل بعضه بعضاً، وفي الحوض دواليب تتحرك حتى تهرس هذا الحشيش، وبعد أن يهرس، يفرغونه في حوض آخر، ويتركونه ثلاثة أيام حتى يختمر، وتصبح له زبدة، فيأخذون تلك الزبدة، ويجعلونها مثل الطابات، وينشرونها تحت الشمس. (٢)

وفي بلدة وأخاكا تنتشر الأشجار التي يستخرجون منها القرمز؛ إذ يطلع القرمز، ويلتصق في بعض الأشجار ذات الورق السميك، ويلتصق كما يلتصق الدود على الورق، ثم يتحول إلى حبّ مثل حب الجديري، وهكذا يكون قد نضج واكتمل، فيستخرجونه، ويضعونه في فرن حار، فيجف القرمز، ثم يجف متحولاً إلى القرمز. (٣)

وفي أسكلة ويراكروس يزرع البصل، والتفاح، ودائماً يشتري منه المسافرون من أجل التزود به خلال سفرهم (٤). والبصل لا ينمو في جزيرة لاوانا، فإذا زرعوا البصل يطلع مثل أذنان الفئران، وإذا تركوه حتى ينمو ويكبر فإنه يتعفن ثم يجف ويهترئ (٥).

الجسم، وتستخدم الآن في صناعة الأدوية والعقاقير. ونقل عن أحد الرحالة المعاصرين للموصلي قوله: إن الرجل في ضواحي كوسكو يمتنع عن الطعام ولا يمتنع عن مضغ حشيشة الكوكا، فهو يجد فيها طعاماً وشراباً ودواءً.

(١) الذهب والعاصفة: ٩٢.

(٢) الذهب والعاصفة: ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) الذهب والعاصفة: ١٠٨ - ١٠٩.

(٤) الذهب والعاصفة: ١٢٢.

(٥) الذهب والعاصفة: ١٢٢.

ثانياً: الحيوان.

كانت الكلاب هي الحيوانات الأليفة الوحيدة لدى المايا، وربوا الديكة الرومية والنحل في حقولهم. واصطادوا الأيائل والأرانب وغيرها، وجمعوا القشريات من الأودية والبحر. وعندما جاء الإسبان أحضروا معهم حيوانات أوروبا الداجنة للتغذية والأعمال (الخنزير - الثور - الخروف - الحصان - الحمار)، واستخدموا الحصان الذي ما كان الاستعمار ليصبح ممكناً بدونه. وازدهرت تربية المواشي.

وذكر الموصلي الحيوانات التي شاهدها أثناء رحلته في القارة الأمريكية، وذكر أنهم يربون الجمال، والخيول، والحمير، والبغال، والأغنام، والمواشي في تلك البلاد كثيرة وعديدة القيمة في الجبال، وهي وحشية^(١)، ولم يكن لديهم خيول، ولا يعرفون ركوبها قبل مجيء الإسبان إليهم، وبعد مجيء الإسبان أصبح عندهم خيل يركبونها، ويحاربون بها^(٢).

فجزيرة ترتوكا لم تكن مأهولة بالسكان، غير أنها كانت مليئة بالسلاحف الكبيرة التي يزيد طول الواحدة منها عن ذراعين، ويبلغ عرضها ذراعين أيضاً، وكانت المراكب تقصد هذه الجزيرة حتى تصطاد هذه السلاحف، وتجعل منها طعاماً.^(٣)

وفي بلدة بورتو بلو ينتشر جنس من الذباب أصغر من البرغوث، ويسمى عند الهنود بنكتوا، فهذه الذبابة إذا غفل عنها الإنسان تدخل في جسده، وبعد أربعة أو خمسة أيام تكبر، وتصبح بحجم حبة الحمص، وهنا يقومون بفتح جسد المصاب، ويخرجون هذه الذبابة بإبرة دون أن يفقأوها، ثم يضعونها على جمرة فتتفجر مثل الفقاعة، وإذا ما أخرجوها وفقأوها فوراً تنتشر على جسد الإنسان، فيتورم ويموت.^(٤)

وتوجد في هذه البلدة خفافيش كبيرة، وتأتي إلى الإنسان وهو نائم، فيبدأ يحرك الهواء بجناحيه على هذا الإنسان النائم حتى يطيب له النوم، ثم يبدأ بمص دمه، ويفرغه حتى يستيقظ الإنسان

(١) الذهب والعاصفة: ٩٢.

(٢) الذهب والعاصفة: ٩٣.

(٣) الذهب والعاصفة: ٤٩.

(٤) الذهب والعاصفة: ٥١.

مغشياً عليه؛ لكثرة ما فقد من دم. ^(١) وتنتشر الأفاعي السامة بكثرة في بلا صانتافه ^(٢)، وتكثر الأسماك في نهر كولان الذي يمر بقرية طابيه ^(٣).

ويصف الموصلي التماسح المعروف باسم قيمان، وهو حيوان فمه واسع طويل يبلغ خمسة أشبار، وطول جسده خمسة أذرع، فإذا صادف إنساناً حياً ابتلعه، ولا يأكل الأشخاص الميتين، وهذا القيمان يخرج من الماء، ويطوف قرب النهر، فإذا وجد إنساناً أو حيواناً أكله، وهو يمشي على يديه ورجليه، فإذا ما جاء ثور أو فرس ليشرب من الماء، انقض عليه، وسحبته إلى الماء، فتجتمع عليه بقية التماسيح الأخرى وتأكله. والكلاب تعرف هذا الحيوان وتخافه فإذا أرادت شرب الماء اقتربت من الماء، ونبحت أولاً، فيسمع هذا القيمان صوتهن فيخرج ليأكلهن، عندها تهرب الكلاب إلى مكان آخر، وتشرب منه الماء؛ لأنها عرفت أن القيمان سيخرج من مكان سماع صوت النباح. ويستخدم الهنود طريقتين لصيد هذا الحيوان، الأولى: يحضرون عوداً طوله نصف ذراع، وينحتون رأسي العود نحتاً رفيعاً، ويربطون في منتصف هذا العود حبلاً قوياً، ثم يجلس أحد الهنود بجانب النهر منتظراً هذا الحيوان، وعندما يخرج هذا القيمان يشاهد الرجل فيتوجه إليه حتى يفترسه، وعندما يفتح فمه، يضع الرجل العود بين فكيه، وعندما يطبق القيمان فهمه على العود ينغرس العود في فكيه، وكلما أطبق فكيه انغرس العود فيهما أكثر، فيسحبه الآخرون إلى الأرض، ويقلبونه على ظهره حتى لا يقدر على المشي، ويقطعونها قطعاً صغيرة. والطريقة الأخرى ينزل أحدهم تحت الماء حاملاً معه حبلاً، ويتوجه إلى هذا القيمان الذي يكون طافياً على سطح الماء، فينزل تحته، ويلفه بالحبل، ثم يبدأ يحرك بطن هذا الحيوان حتى يلتف الحبل عليه بشكل جيد، ولا يخاف من القيمان؛ لأنه لا يقوى على افتراس شيء تحت الماء، وبعد أن يربطه بالحبل، يخرج من الماء حينئذٍ يسحب البقية القيمان المربوط في الحبل إلى اليابسة، ويقومون بقتله. ^(٤)

وقد شاهد الموصلي بعينه كيف اصطاد السكان قيمانين، والسبب في ذلك أن واحداً من هذه الحيوانات افترس صبيّاً كان خادماً للخوري أثناء مرورهم بالمركب في هذه البحيرة، فغضب الخوري

(١)الذهب والعاصفة: ٥١.

(٢)الذهب والعاصفة: ٥٢.

(٣)الذهب والعاصفة: ٦٦.

(٤) الذهب والعاصفة: ٥٧ - ٦٠.

لهذا الصبي، وأمر الهنود أن يصيدوا هذا الحيوان لينتقم منه، وعندما اصطادوا القمانين قاموا بشق بطونهما، فوجدوا في بطن أحدهما قطعاً من لحم ذلك الصبي، فأخذوها ودفنوها.

وهذه الحيوانات كثيرة العدد، وتخرج في بعض الأوقات، وتنام جانب النهر، وتترك فيها مفتوحاً في الهواء، فيأتي عصفور صغير، ويدخل في فمهم، ويبدأ بنقر بقايا الطعام العالقة بأسنان هذا الحيوان، فيرتاح بهذه الحركة، ويعود العصفور الصغير شعباناً.^(١)

وأثناء مرور الموصلي بقرية بوتيكاس دي سان أنطوان شاهد أجناس حيوانات ووحوش تشبه السعدان والميمون في الشكل واللون، ونوعاً من الطيور يسمى باكامايا، وهو بقدر حجم ديك كبير، وريشه ملون بألوان رائعة متعددة، وهناك أنواع من الطيور التي تتكلم ويسمونها الضرة.^(٢) وأخذ الموصلي معه عندما عاد إلى إسبانيا أربعة ببغاءات تستطيع الكلام^(٣)

ولا يوجد لدى السكان المحليين أحصنة وحمير وثيران وبقر وغنم ودجاج، بل لديهم حيوان يشبه الجمل، وحجمه قريب من حجم الحمار، وله حذبة في صدره، يستخدمونه في النقل، ويأكلون لحمه، ولا يستطيع هذا الحيوان أن يسافر مسافات طويلة، ومقدرته اليومية لا تتجاوز أربعة فراسخ، وحين يتعب ينام، ويخرج من فمه زبد، ويبصق على أصحابه.^(٤)

ويناقض الموصلي كلامه السابق أثناء مروره ببلدة كوسكو التي شاهد فيها أنواعاً كثيرة من الخيول، والحمر الوحشية، وبقر الأيل، والبغال، والحمير، وغيرها من الحيوانات الكثيرة التي تعيش في تلك المنطقة، وليس لها صاحب.^(٥)

ويصف حيوان البيكونيا الذي يشبه الغزال، لكنه دون قرون، وهو حيوان قوي جداً، ويأنس برؤية البشر والحيوانات، فإذا ما مر شيء بجانبه انحدر إليه من قمة الجبل حتى ينظر إليه، وأعدادها كثيرة جداً، ولونها عسلي مثل لون الغزال، وفي بطن هذا الحيوان يوجد حجر البازهر الذي يقع بين كليتيه، ويستخدم هذا الحجر لمعالجة السموم، وهو غالي الثمن، وصوفها ناعم كالحرير،

(١) الذهب والعاصفة: ٥٧ - ٥٨.

(٢) الذهب والعاصفة: ٥٩.

(٣) الذهب والعاصفة: ١٢٣.

(٤) الذهب والعاصفة: ٧١.

(٥) الذهب والعاصفة: ٧٧.

يستخدمونه في صناعة القبعات، ولا يأكل لحمه إلا السكان المحليون، وقد اصطاد الموصلية بعضها. (١)

وذكر الموصلية أن اللؤلؤ يوجد بكثرة في ميناء التنجيره، وقد أمر الموصلية العساكر أن يحضروا له من هذا اللؤلؤ، فجاءوا له بتسع صدقات، فلما فتحها وجدها كبيرة اللؤلؤ، جيدة النوع، جميلة الشكل، فقال للجنيرال: لماذا لا تستخرجون هذا اللؤلؤ الغالي النفيس، فرد الجنرال قائلاً: إننا نخاف من سكان هذه المنطقة، فهم متوحشون، قساة القلوب، يكرهون الإسبان. (٢)

(١) الذهب والعاصفة: ٧٧.

(٢) الذهب والعاصفة: ١٠٣.

ثالثاً: المناخ والطبيعة.

يظهر أثر امتداد القارة الأمريكية في تنوع تفاصيل مناخها ونباتها ومواردها الاقتصادية؛ إذ توجد فيها معظم أنواع المناخات المعروفة من أوضاعها برودة إلى أشدها حرارة، ومن أكثرها جفافاً إلى أعظمها أمطاراً، وما ينجم عن ذلك من مجموعات نباتية كثيرة التنوع.^(١)

الموصلية أول من قدم وصفاً قيماً لطبيعة القارة الأمريكية التي تختلف عن باقي أصقاع الأرض الأخرى بسحر الطبيعة، وتنوع التضاريس، والمناخ، فبلدة بورتوبلو تتصف بالحرارة المرتفعة، والأمطار الغزيرة التي تستمر أربعين يوماً^(٢)، وقرية بابا كثيرة الحرارة أيضاً^(٣)، وقرية أوطالو ذات أمطار غزيرة شديدة، وصواعق دائمة^(٤)، وفي بلدة كونكا برد كثير شديد، وجبالها مغطاة بالثلوج^(٥)، وقرية خاوخا شديدة البرد كثيرة الأمطار حتى إنه لا يستطيع أحد السير ليلاً فيها لغزارة أمطارها^(٦)، وتمتاز بلدة بيوره بشدة الحرارة، ورمالها التي تسبب التعب للمارين فيها^(٧)، أما قرية ليلمو فهي مقفرة، لا ماء فيها، وكل أرضها رمال ذات حرارة مرتفعة^(٨)، ولا يستطيع المار ببلدة سانيا السفر نهراً لشدة الحر فيها؛ لذلك كان الموصلية يسافر ليلاً في هذه البلدة خوفاً من الشمس والحرارة العالية^(٩)، وتشتهر بلدة ليما بالزلازل الكثيرة الشديدة^(١٠)، وتكثر الثلوج والرياح والبرد الشديد في بلدة خون كاباليكا، وفي هذه البلدة تختلف الرياح ثلاث مرات في النهار، وتمطر دائماً وقت العصر، وهي أرض كثيرة الأمراض بسبب اختلاف الهواء، وبسبب الجبل الذي يستخرجون

(١) حسام الناييف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، ص ١٩٢.

(٢) الذهب والعاصفة: ٥٢، ٥٣.

(٣) الذهب والعاصفة: ٥٩.

(٤) الذهب والعاصفة: ٦٢.

(٥) الذهب والعاصفة: ٦٣.

(٦) الذهب والعاصفة: ٦٤.

(٧) الذهب والعاصفة: ٦٦.

(٨) الذهب والعاصفة: ٦٧.

(٩) الذهب والعاصفة: ٦٨.

(١٠) الذهب والعاصفة: ٧١.

منه الزئبق المطل عليها ^(١)، وأثناء قيام الموصل في بلدة كوسكو حدث زلزال كبير خارج البلدة بمقدار فرسخين، ومن شدة هذا الزلزال إنهار الجبل الذي كان بجانب النهر، وسقط في النهر، فطاف ماء النهر على الأراضي المجاورة، ودمر مزارع ثلاث قرى، وفي الوقت نفسه حدث زلزال في بلدة ليما، وسقطت منازل كثيرة وكنائس، وخرج الناس من شدة خوفهم خارج البلدة. ^(٢)، وفي بلدة بوقرتنبو يكون البرد قارساً وشديداً حتى إن الموصل لم يستطع أن يمكث في هذه البلدة أكثر من ثلاثة أيام ^(٣)، وأرض بايتا شديدة الحر، لا يوجد فيها ماء للشرب، ويحضرون ماء الشرب إليها من مسافة فرسخين. ^(٤) وأرض ميخيكو منخفضة غير مستقرة الأساس، وفي جانبها تقع بحيرة تتبع من الأرض، وفي إحدى السنين هطل مطر غزير فغرقت البلدة، وملاً الماء كثيراً من البيوت، وسقط بعضها، والمطر يبدأ بالهطول فيها من أول شهر أيار إلى آخر شهر أيلول ^(٥). أما أسكلة ويراكروس فجوها حار، وهواؤها متعب، وماؤها لا يصلح للشرب ^(٦)، أما جزيرة لاوانا فهواؤها منعش، وماؤها طيب سائغ للشراب ^(٧).

(١) الذهب والعاصفة: ٧٢ - ٧٣.

(٢) الذهب والعاصفة: ٧٩.

(٣) الذهب والعاصفة: ٨١.

(٤) الذهب والعاصفة: ٩٥.

(٥) الذهب والعاصفة: ١١٠ - ١١١.

(٦) الذهب والعاصفة: ١٢١.

(٧) الذهب والعاصفة: ١٢٢.

الخاتمة

خلص البحث إلى جملة من النتائج، منها:

- كان إلياس حنا الموصلي أول عربي يصل إلى القارة الأمريكية الجنوبية في النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد، وكتب رحلته بين عامي ١٦٦٨ - ١٦٨٣ م، مسمى رحلته بـ (الذهب والعاصفة) . وقد أرخ الموصلي تاريخ ومكان بداية رحلته التي كانت من مدينة قادش في اليوم الثاني عشر من شباط سنة ١٦٧٥ م.
- جاءت رحلة الموصلي مؤلفة من قسمين : أحدهما وصف أساسي للرحلة ، وقد عنوانه الموصلي بـ (السياحة)، والآخر يتحدث عن اكتشاف أمريكا وتاريخها.
- تقسم رحلة الموصلي إلى أربعة أجزاء: الجزء الأول: الرحلة الأوربية: من بغداد إلى البندقية. والجزء الثاني: الرحلة الأمريكية: من مدريد إلى كاركاس. والجزء الثالث: الرحلة المكسيكية: من تابوكا إلى مكسيكو. والجزء الرابع: رحلة العودة: من مكسيكو إلى روما.
- لا يقف الناظر في المصادر التي تناولت حياة الموصلي على معلومات عن الرجل سواء عن تاريخ ميلاده، أم أبوه، أم أمه، أم إخوته، أم تعليمه، أم المدارس التي تعلم فيها، أم وفاته، أم مكان دفنه، وإن رجح كراتشكوفسكي أنه قد مات ودفن في روما. ما خلا ذلك الخلاف بين في نسبه بين أنطوان رباط الذي أعاد نسبه إلى أسرة عمودة ، أو إلى أسرة عمون حسب ما ذكر كراتشكوفسكي.
- استطاع الموصلي أن يرسم صورة واضحة المعالم عن تلك البلاد ، وقدم وصفاً أقرب ما يكون للواقع عن سكان تلك البلاد وعاداتهم وتقاليدهم وأنظمتهم الاجتماعية مصوراً القرى والمدن والبلدات التي زارها، واصفاً الطرق والقصور والجبال والأنهار، راسماً صورة الناس في تلك البقاع مشيراً إلى طرائق عيشهم وطباعهم وصفاتهم الخلقية والخلقية مقدماً وصفاً حياً دقيقاً للنباتات والحيوانات. ووصفاً للقارة الأمريكية، وتعريفاً بالأقوام الساكنة فيها، موثقاً العادات والتقاليد والأعراف.
- لم يكتف الموصلي بالحديث عن الحياة الاجتماعية لتلك البلاد ، بل راح يصف حدودها ومسالكتها ومناخها وتضاريسها ومعابدها التي قدمت صورة صادقة عن الحياة الثقافية لتلك البلاد.

- ضمن الموصلية رحلته كثيراً من أخبار تلك البلاد التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية والبيئية، وهذه الأشياء أعطت الرحلة أهمية تاريخية يفيد منها كثير من الدارسين الساعين إلى معرفة أحوال تلك البلاد في تلك الحقبة .

- يقف القارئ لرحلة الموصلية على علاقات وصدقات كثيرة للموصلية في جميع البلدان التي مرَّ بها ، وغالباً ما كان يحل ضيفاً على شخصيات مهمة في روما، وباريس، ومدريد، ولشبونة، وبغداد، وأمريكا، فقد استقبل من قبل ملك فرنسا لويس الرابع عشر، وأخوه أورليانوس، وأم كارلوس الثاني ملك البرتغال الملقبة بحنة النمساوية، وملكة إسبانيا أكثر من مرة، والبابا إنوسنت الحادي عشر، وهذه العلاقات والصدقات تبين مدى الأهمية والمكانة التي تمتع بها الموصلية في تلك المرحلة

- صور لنا الموصلية في رحلته الذهب الذي كانت منشراً في أرجاء القارة الأمريكية ، متحدثاً عن سهولة استخراجها ، وآلية صنعه ، ومدى سيطرته على الأعراف والعادات في القارة الأمريكية، بل إنه نال نصيباً وافراً من القصص والأساطير التي كانت سائدة عن وجود مدن ذهبية في هذه القارة ، وهذه الأهمية للذهب جعلت الدول الأوروبية تتسارع إلى مدّ نفوذها أجل الحصول عليه، ولاسيما بين الإسبان والفرنسيين والهولنديين والإيطاليين والإنكليز .

- لا ينسى الموصلية أن يتحدث عن الممارسات الإسبانية في القارة الأمريكية ، فقد قام الإسبان بأبشع صور الاستغلال والعبودية والإبادة ضد سكان القارة الأصليين، وكان همهم الأول والأخير الحصول على هذا الذهب.

- في رحلة الموصلية نجد أن الفضة كانت منتشرة ومتداولة بين الناس أكثر من الذهب والمعادن الأخرى، وقد ذكر الموصلية أماكن وجودها ، وآلية استخراجها ، وصور في الوقت نفسه مدى عناية الإسبان بالفضة وحرصهم الشديد عليها لدرجة أنهم جعلوا بيتاً لسبك الفضة، وخصصوا لها معلمين، وجعلوا لهم وكلاء لجمع الفضة من القارة، وأصدر الملك قانوناً ينص على أن لكل معدنجي بعض هنود معيّنين يشتغلون في معدنه، وأصدر الملك مرسوماً بأن يأخذوا من كل قرى الهنود رجالاً لقطع المعادن، والقانون هو من كل خمسة رجال يطلع واحد للشغل المذكور، وإذا لم يوافق حكام القرى على إرسالهم، فالوزير

يغرمهم ويعزلهم، وكل من يحمل الفضة الرميطة دون تصريح تصدر ويعرض للسجن والغرامة بعد مصادرة الفضة.

- تغادر السفن من إسبانيا إلى القارة الأمريكية مرة كل ثلاث سنوات من أجل إحضار خزينة الملك من تلك البلاد، والخزينة مؤلفة من ذهب وفضة بقيمة عشرين أو خمسة وعشرين مليوناً، وكل مليون يساوي عشر كرات من الذهب أو الفضة، وكل كرة تساوي مئة ألف غرش.

- تحدث الموصلي عن السكان وحياتهم في تلك القارة حديثاً طويلاً مفصلاً دقيقاً ، وتمكن من عكس صورة أنثوغرافية للبلاد وساكنيها مبيناً أساليب الحياة ومظاهرها اليومية، كالبيئة والملبس والمأكل والطب وغير ذلك من جوانب المقارنة المتصلة بالنظم الاجتماعية والثقافية لدى الشعوب، وهذه الأمور قد تبدو عادية لدى السكان المحليين في حين هي غاية في الأهمية في دراسة تطوّر هذه الأنماط الثقافية، وكذلك في الدراسات المقارنة لعادات الشعوب وقيمها وتقاليدها وثقافتها، وهذا ما جعل بعض المؤرخين يرون أن تلك المعارف وضعت الجذور الأولى للأنثوغرافيا التي شكّلت قاعدة أساسية للمقارنة بين أساليب الحياة ومظاهرها اليومية والثقافية لدى الشعوب.

- كانت الديانات في القارة الأمريكية متعددة متنوعة ، فقد كانت عبادة الأصنام والأوثان ؛ وهي الديانة المحلية الأكثر انتشاراً بين سكان القارة ، وقد عبد قسم من السكان الشمس أيضاً، وكانت بعض الديانات الأمريكية تقوم على عبادة أرواح الأجداد أو الطبيعة. ولم يعرف السكان الديانة المسيحية إلا عن طريق والإسبان الذين جاؤوا من القارة الأوروبية، وقاموا بنشر المسيحية بين السكان الذين اعتنق قسم كبير منهم المسيحية خوفاً ورهبة لا حباً ورغبة.

- ذكر الموصلي جملة من الأساطير والخرافات والحكايات الشعبية التي كانت متداولة بين سكان القارة الأمريكية ، ولا يخفى ما لهذه القصص والأساطير من أهمية تاريخية في توثق حياة السكان المحليين وعاداتها وثقافتهم ومعتقداتهم وطرائق عيشهم ، فهذه الأمور تساعد على تغذية روح الشعب ونقل تراثه الشفاهي من عصر إلى آخر، وكلما كانت الأسطورة أو الحكاية تحمل شيئاً من الحقيقة تتم المبالغة فيها وتفخيمها وإحاطتها بالأوهام

والخيال والأدلة الزائفة حتى تلقى قبولاً لدى المستمعين ، وقد أكثر الموصلي من ذكر هذه القصص والأساطير؛ لأنه وجد فيها كثيراً من معارف وعلوم سكان هذه القارة.

- حين تحدث الموصلي عن الطب الذي كان سائداً في القارة الأمريكية ذكر أنهم كان قليلاً بل نادراً ، وكان السكان يستخدمون الطب الشعبي في معالجة المرضى، وغالباً ما امتزج هذا الطب بالخرافات والأساطير، ولم يعرف السكان أطباء مختصين، ولم تكن لديهم مشاف مطلقاً ، وحين جاء الإسبان جلبوا الأطباء معهم وأسسوا المشافي والمراكز الطبية، فلإسبان يعود فضل سبق في نشر الطب في ربوع هذه القارة التي كانت الأمراض تحصد فيها مئات الأرواح والأنفس في كل عام، وهذا الأمر يعد من الأشياء الحسنة التي جاء بها الإسبان إلى القارة وأهلها.

- كان الموصلي بارعاً في الجغرافيا ، فاستطاع أن يصف الطريق التجاري البحري الذي يربط منطقة الخليج العربي بالقارة الأمريكية من خلال حديثه عن المناطق التي مر بها ، وقد أولى عناية كبيرة للمسافات بين الموانئ والمدن والمحطات والمراكز التجارية؛ لهذا مضى عدد كبير من الباحثين إلى عده أول من قدم وصفاً قيماً لهذه الطريق التجارية.

- أولى الموصلي الأماكن والعمران وطرق البناء في القارة الأمريكية عناية فائقة مبيناً وظائفها التي كانت يشغلها كل بناء ، وسبب هذه العناية أن هذه الأماكن تقدم صورة الطابع المعماري المميز الذي كان سائداً بما شاهده من نضج وتطور؛ لأن العمارة كانت ولا تزال مرآة الشعوب الحضارية منذ بزوغ شمس التاريخ وحتى يومنا هذا، ويتخذ البناء في القارة الأمريكية نمطاً عمرانياً ملائماً لطبيعة المنطقة التي بني فيها وحسب مناخها؛ لذلك تنوعت المواد الخام الأولية التي استخدمت في بناء الخانات حسب المنطقة التي هي فيها؛ إذ نجد بعضها مصنوعاً من الحجر، وبعضها الآخر مصنوعاً من ألواح الطين، وبعضها الآخر مصنوعاً من الخشب والقش، وقد أكثر الموصلي في رحلة من وصف الكنائس، والأديرة، والقصور، والقرى.

- سطر الموصلي خلال رحلته معلومات تاريخية عن هذه القارة التي راحت أنظار ومطامع الدول الأوروبية إسبانيا، وفرنسا، وإنكلترا، وهولندا، والبرتغال تتوجه نحوها رغبة في السيطرة عليها للاستفادة من ثرواتها المتعددة وعلى رأسها الذهب والفضة ، وما قامت

به هذه الدول من تدابير لمد نفوذها نحو هذه القارة فكانت هذه الرحلة صورة صادقة
معبّرة عن الحقبة التاريخية في تلك الفترة بما فيها من صراعات ونزاعات، وتنافس دولي.

المَصَادِرُ والمَرَاجِعُ

أولاً- المصادر:

- إلياس الموصلي، الذهب والعصف، رحلة إلياس الموصلي إلى أميركا- أول رحلة شرقية إلى العالم الجديد (١٦٦٨- ١٦٨٣م)، حررها وقدم لها نوري الجراح، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، طبعة أولى، ٢٠٠١.
- الأب أنطوان رباط اليسوعي: رحلة أو سائح شرقي إلى أمركه، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط١، ١٩٠٦.
- ابتهاج عمر الراضي: رحلة المواطن العراقي إلياس يوحنا الموصلي، أول سائح عربي يصل الأمريكيتين، مجلة المورد ، العدد ٢، بغداد، سنة ١٩٧٥ .

ثانياً- المراجع:

أ- المراجع العربية:

- ١- إبراهيم الحسين: بيليوغرافية تفصيلية في أدب الرحلة. ضمن التراث الشفاهي الهجرة والترحال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠١٠.
- ٢- ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. ط: ٩. بيروت: دار القلم، ط٩، ١٩٨٨.
- ٣- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١.
- ٤- ابن فضل الله العمري: مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- ٥- ابن قتيبة: أدب الكاتب، تحقيق محمد الفاضلي، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠١م.
- ٦- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د. ت).
- ٧- أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، ١٩٨٦.
- ٨- أحمد محمد عبد العال: الجغرافية على مر العصور، مكتبة جزيرة الورد، ط١، ٢٠١١.

- ٩- إريك هوبزباوم، عصر الثورة، أوروبية (١٧٨٩-١٨٤٨)، ترجمة فايز الصايغ، المنظمة العربية للترجمة، طبعة أولى، بيروت، ٢٠٠٧.
- ١٠- أشرف صالح: حركة الكشف الجغرافية- كتاب أصول التاريخ الأوربي الحديث، دار ناشري، الكويت، ط١، ٢٠٠٩.
- ١١- أغناطيوس يوليا نوئتس كراتشكو فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الأول، جامعة الدول العربية، الطبعة الروسية ١٩٥٧، والطبعة العربية ١٩٦١.
- ١٢- ألن نفنز، هنري ستيل كومجر، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ترجمة مصطفى عامر، القاهرة، ١٩٥٢.
- ١٣- أوخينيو تشانج رودريجت: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ترجمة عبد الحميد الغلاب وأحمد حشاد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧.
- ١٤- برتولومي دي لاس كازاس، المسيحية والسيف- وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الإسبان (رواية شاهد عيان)، ترجمة سميرة عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.
- ١٥- بطرس بطرس غالي، محمود خيرى عيسى، المدخل في علم السياسة، القاهرة، ١٩٧٤م.
- ١٦- جان بيرنجيه، إيف دوران، فيليب كونتامين، فرنسيس راب، موسوعة تاريخ أوروبا العام، ترجمة وجيه البعيني، الجزء الثاني (أوروبا منذ بداية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر)، منشورات عويدات، بيروت، باريس، طبعة أولى، ١٩٩٥.
- ١٧- جلال يحيى: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.
- ١٨- جمال حمدان، إستراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق، بيروت، طبعة أولى، ١٩٨٣.
- ١٩- جورج أطلس: تاريخ البرازيل، ترجمة جورج أطلس، سان باولو البرازيل، ١٩١٧.
- ٢٠- جورج غريب: أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٧٩.

- ٢١- جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.
- ٢٢- حسام الناييف: تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر (١٤٩٢-١٩٤٥)، مطبوعات جامعة دمشق، ط١، ٢٠١٦.
- ٢٣- حسام الناييف: دور الرحالة العرب في اكتشاف القارة الأمريكية في القرن السابع عشر (رحلة إلياس الموصلي نموذجاً)، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، دمشق.
- ٢٤- حسن طه نجم: أمريكا اللاتينية أرضاً وسكاناً- دراسة جغرافية إقليمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ١٩٩٠.
- ٢٥- حسن طه نجم: أمريكا اللاتينية أرضاً وسكاناً- دراسة جغرافية إقليمية، مطبوعات جامعة الكويت، ط١، ١٩٩٠.
- ٢٦- حسن محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، العدد ١٣٨، ص ٣٢.
- ٢٧- خليل علي مراد، جاسم محمد حسن، عبد الجبار قادر غفور، دراسات في التاريخ الأوروبي المعاصر، بغداد، ١٩٨٨.
- ٢٨- د.ب. غالغر: أدب أمريكا الحديث، ترجمة محمد جعفر داود، بغداد، ط٢، ١٩٨٦.
- ٢٩- داوود سلوم: الشخصية العربية في روايات أمريكا اللاتينية، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٥.
- ٣٠- داوود سلوم: الشخصية العربية في روايات أمريكا اللاتينية، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٥.
- ٣١- دونالدو مونك، أمريكا اللاتينية المعاصرة، ترجمة منيرة محمد بدوي، النشر العلمي والمطابع، الرياض، ٢٠٠٨م.
- ٣٢- رودريغ أوخينيو تشانج: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ترجمة عبد الحميد الغلاب وأحمد حشاد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧.
- ٣٣- روز براون، البرازيل شعبها وأرضها، ترجمة محمد عيد الفتح إبراهيم، مراجعة عز

- الدين فريد، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، ١٩٦٩.
- ٣٤- زودهوف، هاينيه: معذرة كولومبوس، لست أول من اكتشف لأمريكا، ترجمة حسين عمران، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠١م.
- ٣٥- زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٦.
- ٣٦- ساطع محلي: أمريكا اللاتينية، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق ١٩٧٤، الفصل الثالث وما بعده.
- ٣٧- سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠٩.
- ٣٨- سيزار فرناندث مورينو: أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد، سلسلة عالم المعرفة، قسمين، القسم الأول، العدد ١٦٦، آب ١٩٨٧.
- ٣٩- سيمون الحايك: والعرب شاركوا في الاكتشاف أو كريستوف كلمبس، لبنان، ١٩٩١م.
- ٤٠- شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٧.
- ٤١- صلاح الدين علي الشامي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الدراسة الميدانية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢.
- ٤٢- طلعت شاهين: سيمون الحايك : أول من شاهد أمريكا مورسكي عربي، جريدة في الحياة، العدد ١٠٩٣٣، كانون الثاني، ١٩٩٩.
- ٤٣- عبد العزيز نوار، ومحمود محمد جمال الدين: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩.
- ٤٤- عبد العظيم رمضان: تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث (من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، الجزء الأول.
- ٤٥- عبد الفتاح حسن أبو عليه: تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات

- المتحدة الأمريكية، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٧.
- ٤٦- عبد المجيد نعنعي، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣.
- ٤٧- عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥.
- ٤٨- علي أحمد غانم: تطور الفكر الجغرافي، دار المسيرة، عمان، ط١، ٢٠١٣.
- ٤٩- عمار فاضل حمزة، أمريكا اللاتينية: تاريخ من الظلم المتواصل، د.ت.
- ٥٠- عمر عبد العزيز عمر: دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٢.
- ٥١- عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠،
- ٥٢- عيسى علي إبراهيم: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠.
- ٥٣- فرانكلين أشر، موجز تاريخ الولايات المتحدة، ترجمة مهيبه المالكي، دار الثقافة، بيروت.
- ٥٤- فهمي توفيق مقبل: دور العرب والمسلمين في اكتشاف العالم الجديد، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٤.
- ٥٥- فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢.
- ٥٦- فواز الشعار: الموسوعة الثقافية العامة، الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- ٥٧- كولومبوس: بداية الحلم أم ذروة المأساة، دراسة مركز أبحاث مجلة العربي، مجلة العربي، العدد ٤٠٠، آذار، ١٩٩٢.
- ٥٨- لاسو آدمون: من أعلام السريان رحلة إيليا أبونا، مجلة دراسات، العدد: ٦٧٦٠، سنة ٢٠١٠.
- ٥٩- لاوريت سيجورنه: أمريكا اللاتينية الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية، ترجمة

- صالح علماني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.
- ٦٠- مجموعة من المؤلفين: الموسوعة العربية، دمشق، ط١، ٢٠٠٧.
- ٦١- محمد العبدري البلسي: الرحلة المغربية، تحقيق أسعد بوفلاقة، بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧م، ص ٧-٨.
- ٦٢- محمد العزب موسى، حضارات مفقودة، الدار المصرية اللبنانية، ط٢، ١٩٩٢،
- ٦٣- محمد خكيس الزوكة: الكشف الجغرافية، مطبوعات كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٩.
- ٦٤- محمد قاسم، أحمد نجيب هاشم، التاريخ الحديث والمعاصر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥.
- ٦٥- محمد محمد الخطابي: وصول كولومبوس إلى العالم الجديد تصادف مع سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام في إسبانيا، جريدة الشرق الأوسط، العدد: ٤٩١٥، ١٣ أيار، ١٩٩٢.
- ٦٦- محمد مخزوم: مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨٣.
- ٦٧- محمد مظفر الأدهمي، أوروبا في القرن التاسع عشر دراسة في التاريخ والفلسفة، الرباط ١٩٨٥.
- ٦٨- محمود شاكر: الكشف الجغرافية دوافعها - حقيقتها، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨.
- ٦٩- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجواهر، مطبعة إجازة الإمبراطور، باريس، ط١.
- ٧٠- موريس كروزيه: تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط٢، ١٩٨٧.
- ٧١- مورينو، سيزار فرناندث: أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد، سلسلة عالم المعرفة، قسمين، القسم الأول، العدد ١٦٦، آب ١٩٨٧.

- ٧٢- ميشال دوفيز، أوروبا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر، ١٩٨٠.
- ٧٣- نبيل خليل خليل: أمريكا بين الهند والعرب، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م،
- ٧٤- نعوم تشومسكي: ٥٠١ سنة الغزو مستمر، دار المدى، ط٢، دمشق، ١٩٩٩.
- ٧٥- نوار عبد العزيز، جمال الدين، محمود محمد: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩.
- ٧٦- نور الدين حاطوم، تاريخ القرن العشرين، بيروت، ١٩٦٥م.
- ٧٧- هاينكه زودهوف: معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا، تعريب حسين عمران، مكتبة العبيكات، الرياض، ٢٠٠١.
- ٧٨- هيربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، ترجمة زينب عصمت راشد، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥.
- ٧٩- وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ترجمة محمد مصطفى زيادة، أربعة أجزاء، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة-نيويورك، ١٩٦٣.
- ٨٠- يسري عبد الرزاق الجوهري: الكشوف الجغرافية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤.

ج - المراجع الأجنبية:

1. Hugo D. BARAGELATA ، Histoire De L'Amérique Espagnole ، Avec 2 cartes dans le texte ، Librairie Armand Colin 103 ، Boulevard Saint-Michel ، Paris 1936
2. Pierre CHAUNU ، Histoire de l'Amérique Latine ، Dixième édition corrigée ، Paris 1988.
3. Robert ERGANG ، Europe From the Renaissance to Waterloo ، D. C. Heath and Company ، Boston ، 1954

Abstract

The journey of the Iraqi priest Elias Hanna Al-Mawsili, who was the first Arab to reach the American continent in the second half of the seventeenth century AD. This people, and this was his first oriental journey to the new world, during his trip, Al-Mawsili presented an accurate and very important description of those countries, and the details of the lives of the peoples inhabiting those lands, speaking about the Catholic clergy and the heads of the Inquisition, picturing the villages, cities and towns he visited.

Describing the roads, palaces, mountains and rivers, drawing the picture of people in those places, referring to their ways of living, their nature and their moral and ethical characteristics, providing a vivid and accurate description of plants and animals. and its economic, social, cultural and environmental conditions, and this is what made the Moussalli blog one of the most important historical documents that spoke about the American continent at that period; Whoever turns the pages of the book ***The Gold and the Storm***, and reads its lines, will find valuable and accurate information that draws the history of the American continent, and stands on the customs, traditions and culture of its inhabitants with its various arts.

Culturally very rich in sciences, philosophy, arts and literature. It is an eloquent summary of the roles of human history, and an honest and expressive picture of the development of human civilization from its beginning to the end of modern civilization

Syrian Arab Republic

Damascus university

Faculty of Arts and Humanities

Department of History



**The Arab Travelers and Their Role in the
Geographical Exploration of the American
Continent in the Seventeenth Century.
The Journey of Elias Al Mosli as a Model**

Master's Degree in:

Modern and Contemporary History

Supervision: Prof. Dr. Hussam Al-Nayef

Prepared by: Roken Mahmoud Hesse

The academic year: 1440-1441 AH / 2020-2021.